

الشتاء الأخير

مهند محمد عميرة





The Last Winter

مهنّد محمّد عَمِيرَة

Mohannad Mohammad Amireh

الطبعة الأولى

٢٠٢٢م

دار المعارف

تأسست ١٨٩٠



كتب ثقافية

القصة والرواية

تصميم الغلاف:
غادة نبيل

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني
بدار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل -
القاهرة - جمهورية مصر العربية

عميرة، مهند محمد.
الشتاء الأخير - The last winter / مهند محمد
عميرة. -ط 01 - القاهرة - دار المعارف، 2022.
180 ص، 19.5 سم
تدمك 9 9267 02 977 978
1 - القصص التاريخية.
2 - القصص الاجتماعية
3 - القصص العربية.
أ - العنوان.
تصنيف ديوى: 813,0871
رقم الإيداع: 14222/ 2022
رقم أمر التشغيل: 1/2022/24
رقم الكونجرس: 2 - 841518 - 01 - 2

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩
E mail: maaref@idsc.net.eg

أُهْدِي هَذِهِ الرِّوايَةَ إِلَى الشَّاعِرِ...

إِسْلام حَمَادَةَ

الفَصْلُ الأَوَّلُ

التِّمْثالُ

الشَّمْسُ والقَمَرُ خَصْمَانِ حَكيمانِ، ولِأنَّ الخَصْمَ الحَكيمَ يَحْفَظُ مَقَـامَ خَصْمِهِ؛ فَقَدْ تَقاسَمَا السَّـماءَ بِحنْكَـةٍ، وَاتَّفَقَا – مُنْذُ قَديمِ الأَزَلِ – عَلَى صَبْغِ الأَرْضِ بأَيّام مُتَشـابِهَةٍ، إِذْ تَسْـطَعُ الشَّمْسُ بِكَامِلِ طاقَتِها في السَّـماءِ، ثُمَّ يَنْدَرِجُ القَمَرُ، لِيَحُلَّ مَكانَها شَيْئًا فَشَـيْئًا إِلَى أَنْ تَخْتَفيَ، فَتَعيشُ الأَرْضُ أَوْقَاتًا مُتَشابِهَـةً كُلَّ يَوْم. أَمَّا مَـا يَحْصُلُ عَلَى الأَرْضِ مِنْ صُـروفٍ، فَتَفاصيلُ غَيْرُ مُهِمَّةٍ، وَأَحْـداثٌ تَتَكَرَّرُ، لَا يَخْتَلِفُ إِلَّا تَرْتيبُهـا وَحِدَّتُها، وَهَذَا غَيْرُ كَافٍ لِأَخْذِهَا بالاعْتِبَارِ، أَوْ إِعْلاءِ شَأْنِها.

في الأَوَّلِ مِنْ أُكْتُوبَرَ، طَلَعَتِ الشَّـمسُ – كَمَا اعْتَادَتْ – لِتَأْخُذَ حِصَّتَها كامِلَةً مِنْ السَّماءِ، وَاسْتَرَاحَ القَمَرُ في مَكانٍ آخَرَ. اسْتَيْقَظَ مِن النّاسِ مَن اسْـتَيْقَظَ، وَذَهَبَ مِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَشْغالِهِ، وَكَذَا يَحْدُثُ كُلَّ يَوْم. اسْتَيْقَظَ أَحْمَدُ، وأَوْقَظَ مُساعِديهِ:

– هَيّا، لَدَيْنَا الكَثيرُ مِن العَمَلِ اليَوْمَ.

– آهٍ، كَمْ أَكْرَهُ بِدايَةَ الشَّهْرِ.

- حِينَ تُحِبُّ عَمَلَكَ سَتُحِبُّ أَوَّلَ الشَّهْرِ!

غَمَزَ المُساعِدُ زَميلَهُ، وَتَمْتَمَ:

- يُرِيدُنِي أَنْ أُحِبَّ التَّنْظيفَ، مَاذَا لَوْ كُنْتُ أُستاذًا جَامِعِيًّا!

انْتَشَرَ أَحْمَدُ - كَبيرُ الخَدَمِ - وَمُسَاعِدُوه في أَرْجاءِ الْقَصْرِ، يُنَظِّفونَ مَداخِلَهُ وَغُرَفَهُ وَمَمَرّاتِهِ، وَيَسْتَدْرِكونَ مَا تَيَسَّرَ لَهُمْ مِنْ زَوايَاهُ. وَلِأَنَّ القَصْرَ مَليءٌ بِالتُّحَفِ، والْمُقْتَنَياتِ الثَّمينَةِ؛ فَقَدْ وَظَّفَ نائِلٌ فَريقًا مُخْتَصًّا بِالتَّنْظيفِ، يُؤَدِّي مَهامَّهُ طَوالَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ كَمَا يَلِيقُ بِفَريقٍ مُحْتَرِفٍ. وَحِينَ انْتَهَى الفَريقُ مِنْ عَمَلِهِ خَارِجًا، زَلَّتْ قَدَمُ رَجَبِ المُساعِدِ عَلَى الأَرْضِ الرَّطْبَةِ فِي وَسَطِ البَهْوِ، فَاحْتَضَنَ - لَا إِرادِيًّا - أَقْرَبَ شَيْءٍ إِلَيْهِ لَعَلَّهُ يَسْنِدُهُ، لَكِنَّ التِّمْثالَ القَريبَ سَقَطَ مَعَهُ، فَكُسِرَ جُزْءٌ مِنْهُ. صَرَخَ أَحْمَدُ وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى خَدِّهِ:

- أَيُّهَا الأَحْمَقُ، يَا لَمُصِيبَتِنَا!

انْطَلَقَ صَوْتُ أَحَدِ الزُّمَلاءِ:

- حَمْدًا للهِ عَلَى سَلامَتِكَ يَا رَجَبُ.

فَرَدَّ أَحْمَدُ غَاضِبًا:

- سَلامَةٍ! أَيُّ سَلامَةٍ! هَلْ تَسْتَطيعُ نُطْقَ ثَمَنِ هَذَا التِّمْثالِ!

رَدَّ رَجَبٌ مُحْتَجًّا:

- إنَّهُ تِمْثالٌ هَشٌّ، فِي كُلِّ مَرَّةٍ كُنَّا نُنَظِّفُهُ فِيهَا، كَانَتْ أَجْزاءٌ مِنْهُ تَذُوبُ. السَّيِّدُ نائِلٌ يَعْلَمُ ذَلِكَ. هوَ لَيْسَ أَصْلِيًّا بِالتَّأْكِيدِ.

قَبْلَ أَنْ يَرُدَّ أَحْمَدُ: «وَلَكِنَّهُ يَسْــقُطُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ!»، دَوَتِ الرِّيحُ فِي القَصْرِ، فَاهْتَزَّتِ الشَّبابيكُ مِنْ صَفْقَتِها، وَبَقِيَتْ مَفْتوحَةً أَمَامَ شَمْسِ أُكْتُوبَرَ، الَّتي بَدَأَتْ بِالدُّخُولِ عَلَى اسْتِحْياءٍ.

* * *

هَــمَّ مَحْمودٌ بِفَتْحِ الْبَــابِ الحَديديِّ الضَّخْمِ، رَفَعَ رَأْسَــهُ إِلَى الأَعْلَــى، وَوَقَفَ عَلَى رُؤوسِ أَصابِعِهِ، حَتَّى انْثَنَى ظَهْرُهُ اللَّيِّنُ، أَدَارَ مِقْبَضَ البَابِ بِبُطْءٍ، كَمَا يَدُورُ عَقْرَبُ السّــاعَةِ فِي يَدِ جُنْدِيٍّ يَنْتَظِرُ انْتِهاءَ الحَرْبِ، ثُمَّ دَفَــعَ الْبَابَ عَلَى مَهَلٍ نَحْوَ الدَّاخِلِ، وَجِسْــمُهُ يَميلُ يَسارًا، لِتَتَكَشَّــفَ أَمَامَهُ مُحْتَوَياتُ البَهْوِ. أَطْلَقَ عُيونَهُ اللَّامِعَةَ مُبْتَسِــما، يَسْتَكْشِفُ أَيَّ أَثَرٍ لِصَفيَّةَ. وَسُرْعَانَ مَا رَسَمَتِ الشَّمْسُ - المُنْقَضّةُ بِخَجَلٍ عَلَى الفَراغِ الآخِذِ بِالاتِّسَاعِ بَيْنَ الْبَــابِ والْجِدارِ - ظِلًّا لِمَحْمُودٍ، عَلا التِّمْثَالَ الرُّخاميَّ فِي وَسَــطِ البَهْوِ. وَمَا إِنْ رَأَتْ صَفيَّةُ ذَلِكَ الظِّلَّ حَتَّى اتَّسَــعَتْ ابْتِســامَتُها، وَتَسارَعَتْ خُطَواتُها المُتَناغِمَةُ، تَنْزِلُ السُّلَّمَ الأَيْسَرَ المُنْتَهِيَ بِبَهْوِ البَيْــتِ لِتَخْتَبِئَ تَحْتَــهُ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِــنْ أَنَّ رَذاذَ «جو مالون» المُتَطايِرَ مِنْ جَسَدِ صَفيَّةَ قَدْ هَبَطَ فِي أَنْفِ مَحْمودٍ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ

أنَّها جاهزةٌ لاسْتِقْبالِه. فاتَّخذ قرارًا بالدُّخولِ إلى المَنْزِل. تَحرَّكَ أرْبعَ خُطواتٍ بَطيئةٍ إلى الأمَام، ثُمَّ انْتَصبَ، وارْتَخَتْ يَدُهُ اليُمْنى بجَانبِـه، كأنَّ كلَّ ما تَمْلكُهُ مِنْ قوَّةٍ انْتقلَتْ إلى اليُسْـرى، الَّتي كَمَشَـتْ قميصَهُ الكرزيَّ منْ أسْفل طرْفه الخلْفيِّ بقوَّة. اسْتَوْجَبَ قرارُ الرَّكْض إلى الأعْلى بخفَّـة التَّنْفيذ الآن، رَفعَ مَحْمودٌ قَدَمَهُ اليُمْنَى عَن الأرْض شارعًا بالجَرْي، فباغتَهُ صوْتُ صَفيَّة الرَّقيقُ:

– مَاذا تُخَبِّئُ خَلْفَ ظهْرِكَ أيُّها المُشاكسُ الصَّغيرُ؟

لَمْ تَكُنْ صَفيَّةُ بحَاجَةٍ إلى إجابَةٍ عَنْ سُؤالِها، فقَدْ كانَتْ البُقعُ والخُطـوطُ الطِّينيَّةُ عَلى قميصِ مَحْمـودٍ أكْبَرَ مِنْ أنْ تُخْفيَها يَدُهُ الصَّغيرةُ، فَرأتْهَا صَفيَّةُ، بَل اشْـتَمَّتْهَا فوْرَ دُخولِهِ البَهْوَ، فَضْلًا عَـنْ أنَّ مَحْمودًا قَدْ اعْتادَ الدُّخولَ خِلْسَـةً إلى البَيْـتِ مُنْذُ عَام، لَكِنَّ بَعْضَ الأسْـئلَةِ تُلْقَـى لِأغْراضٍ أُخْرَى غَـيْرِ الحُصولِ عَلَى إجَابَتِهـا. لا يوجَدُ في البَهْوِ مَا يُعِيقُ صَـوْتَ صَفيَّةَ عَن الوُصولِ إلَى مَحْمودٍ، كَانَ خَاوِيًا إلَّا مِنْ بَعْضِ اللَّوْحاتِ الكِلاسِـيكيَّةِ عَلى جُدْرانِهِ، وَذَلِكَ التِّمْثالِ في الوَسَـطِ، وَفي طَرَفَيْهِ الأيْمَنِ وَالأيْسَـرِ ثَمَّةَ سُـلَّمَانِ عَريضانِ يُفْضِيَانِ إلَى الطَّابَـقِ العُلْويِّ. فَوَصَلَ صَوْتُها إلَى مَحْمودٍ حَنونًا كَالْعَادَةِ، مِمَّا أَلاحَ ابْتِسـامَتَهُ الجَذَّابَةَ، فَرَدَّتْ عَلَيْهِ بِمِثْلِهَا؛ ابْتِسامَةٍ جانِبيَّةٍ نَحْوَهُ، وَرَأْسُها إلَى الأسْفَلِ قَلِيلًا.

فَتَحَتْ صَفيَّـــةُ ذِرَاعَيهَا مُتَأَهِّبَةً لِاحْتِضانِه، فَرَكَضَ إِلَيْهَا -وَيَدُهُ مَا تَزَالُ خَلْفَ قَميصِهِ - لِيَسْتَقِرَّ عَلَى قَدَمَيْهَا، وَيَرْمِيَ رَأْسَهُ عَلَى كَتِفِهـــا، وَيُطْلِقَ يَدَيْهِ الْغارِقَتَيْنِ بِطِـــينِ الحَديقَةِ لِتَتَجَوَّلَانِ عَلَى وَجْهِهـــا الأَبْيَضِ الدائِرِيِّ، وَفُسْـــتانِها الأَصْفَرِ الفَضْفاضِ. هَبَّتْ نَسْـــمَةٌ مِنْ رِيَاحِ أُكْتُوبَرَ، فَتَحَرَّكَ التِّمْثالُ المُتَرَنِّحُ جِيئَةً وَذَهابًا، وَتَسَـــلَّلَ بَعْضٌ مِنْ غُرَّةِ [١] شَـــعْرِ مَحْمودٍ الفاحِـــمِ الكَثيفِ إِلَى فَمِ صَفيَّةَ، وَتَبَاطَئَتْ أَنفاسُـــهُ مُطْمَئِنًّا في حِضْنِ أُمِّهِ. أَعَادَ رَأْسَـــهُ إِلَى الوَرَاءِ قَليلًا، وَأَبْقَى جِسْـــمَهُ مُلامِسًا لَهَا، وَنَظَرَ إِلَيْهَا مِنْ خِلالِ خُصُلَاتِ شَعْرِها الأَسْوَدِ المُنْسَدِلَةِ عَلَى وَجْهِها قَائِلًا:

- مَلِلْتُ اللَّعِبَ فِي الحَديقَةِ كُلَّ يَوْم.

- مَا هِيَ إِلَّا بِضْعَةُ أَيّامٍ وَسَنَذْهَبُ لِقَضَاءِ إِجازَتِنا السَّنَوِيَّةِ.

رَدَّ مَحْمودٌ بِحَيَوِيَّةٍ:

- أَيْنَ سَنَذْهَبُ؟

فَرَكَتْ صَفيَّةُ رَاحَتَيْ يَدَيْهَا سَرِيعًا، وَاتَّسَعَتْ عُيونُـها السَّوْداءُ البَرِيئَـــةُ، الَّتِي لَمْ تَكْبُرْ مُنْذُ عِشْـــرِينَ عَامًا، وَرَدَّتْ بِصَوْتٍ أَعْلَى مِمَّا اعْتَادَتْ عَلَيْهِ:

- تَعالَ لِنَسْأَلْ أَبَاكَ أَيْنَ سَنَقْضيها.

---

(١) الغُرَّةُ مُقَدِّمَةُ الشَّـعْرِ الَّتي تُغَطِّي الوَجْهَ، سَمَّتْهَا العَرَبُ «الغُسَن»، وَلَكِنَّ المُفْرَدَةَ لَمْ تَعُدْ مُسْتَخْدَمَةً.

- أَخْبريني أَنْتِ.
- لا أَعْرِفُ يا حَبِيبي.
- وَهَلْ يَعْرِفُ أبي؟
- أَجَلْ يَا حَبِيبي، أَبوكَ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ.
دَارَتْ عُيونُ مَحْمودٍ في المَكانِ كُلِّهِ، لِتَسْأَلَ قَبْلَ لِسانِهِ:
- أَيْنَ هوَ الآنَ؟
- إنَّهَا التَّاسِعَةُ والنِّصْفُ الآنَ، لا بُدَّ أَنَّهُ في مَكْتَبِهِ.
أَوْسَعَتْ صَفيَّةُ ابْتِسامَتَها قَلِيلًا، وَقَالَتْ بِمَكْرِها البَرِيءِ، الَّذي لَمْ يُفارِقْها مُنْذُ سَنَوَاتٍ:
- اصْعَدْ أَنْتَ إِلَيْهِ، وَسَأَلْحَقُ بِكَ فَوْرًا.
قَفَزَ مَحْمودٌ مُعْلِنًا فَرَحَهُ، وَصَعَدَ السُّلَّمَ الرُّخاميَّ العَريضَ، يُهَرْوِلُ نَحْوَ مَكْتَبِ أَبِيهِ.

* * *

دَخَلَ مَحْمودٌ المَكْتَبَ وَأَبُوهُ يَنْزِلُ سُلَّمًا صَغِيرًا - يَصِلُ بَيْنَ رُفُوفِ مَكْتَبَتِهِ الكِلاسيكيَّةِ الكَبيرَةِ - وَفي يَدِهِ كِتابٌ جَلَبَهُ مِنْ أَعْلَى مَكانٍ في المَكْتَبَةِ. وَضَعَ نائِلٌ قَدَمَهُ عَلَى الأَرْضِ، وَنَظَرَ مُبْتَسِمًا إِلَى وَجْهِ مَحْمودٍ المَليءِ بِخُطوطِ العَرَقِ العَشْوائيَّةِ، الَّتي جَفَّفَها الهَوَاءُ:

- كَيْفَ حالُكَ يَا جَميلِي؟ اِغْتَسِلْ، ثُمَّ تَعَالَ لأَضُمّكَ.

دَخَلَتْ صَفيَّةُ خَلْفَ مَحْمودٍ. أَدْرَكَ نائِلٌ أَنَّ دُخول مَحْمودٍ لَمْ يَعُدْ، كَوْنَهُ مُقَدِّمَةً لِدُخُولِ صَفيَّةَ، مَا كَانَ هَذا لِيَفُوتَهُ. فَحَيّاها غامِزًا:

- مَاذَا تُريدِينَ يَا صَافي؟

- نُرِيدُ أَنْ نَعْرِفَ أَيْنَ سَنَقْضي الإِجازَةَ هَذا العَامَ.

- لَمْ أَدْرُسِ الأَمْرَ بَعْدُ، سَأَحْصُرُ الاحْتِمالاتِ، ثُمَّ أُناقِشُكِ فِيهَا.

- وَلَكِنْ لَمْ يَتَبَقَّ إِلَّا ثَلاثَةُ أَيّام عَلَى بَدْءِ الإِجازَةِ.

قَطَعَ كَلامَ صَفيَّةَ صَوْتُ سُقوطِ كِتابٍ صَغيرٍ، رَكَضَ مَحْمودٌ نَحْوَهُ، وَوَضَعَهُ في رَفٍّ غَيْرِ رَفِّهِ. فَقَالَ لَهُ نائِلٌ:

- لَيْسَ هَذا مَكانَهُ يَا حَبِيبي.

أَخَذَهُ نائِلٌ، وَتَصَفَّحَهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ عِلْمِهِ بِمُحْتَواهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ إِلَى مَكانِهِ الصَّحيحِ فَوْرَ خُروجِ صَفيَّةَ وَمَحْمودٍ.



الفَصْلُ الثَّاني

أَلْوانٌ من المَاضي

إذَا امْتَلأَ المَرْءُ بالْحَنِين، اسْـتَحْضَرَ ذِهْنُهُ صُورًا تَتْرَى لِمَشـوقِهِ ظَانًّا أَنَّهُ يَسْتَشْـفِي بِهَا، لَكِنَّها مَا تَلْبَثُ أَنْ تُشْـعِلَ الجَوارِحَ شَوْقًا حَتَّى لَا تَكَادُ تَنْطَفِئُ. ازْدَحمَتِ المَشاهِدُ في وِجْدَانِ صَفيَّةَ، وَتَداخَلَتْ فِيه ذِكْرَياتُ الشَّـوارِعِ وَالشَّـوَاطِئِ وَالرِّفاقِ، فَجَلَسَـتْ في غُرْفَتِها تَسْـتَعْرِضُ أَلْبوماتِ الصُّوَرِ الخاصَّةَ بعائِلَتِها. دَخَلَ مَحْمودُ الغُرْفَةَ بَعْدَ أَنْ بَدَّلَ مَلابِسَهُ المُتَّسِخَةَ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى الأَلْوَانِ الخاطِفَةِ، الَّتي لَمْ تُفْلِحْ لِسَـنَوَاتٍ في إثارَةِ اهْتِمامِهِ، وَهُوَ أَمْـرٌ لَطالَمَا أَزْعَجَ صَفيَّةَ، إِذْ كَيْـفَ يَتَجاهَلُ مَحْمودُ تَدَرُّجَـاتِ الأَلْوانِ الزَّاهيَـةِ: الأَصْفَرِ، والْوَرْديِّ، وَالْفَيْروزيِّ، والياقوتيِّ! في حِينِ أَنَّهَا تَبْعَثُ في نَفْسِـها سَكينَةً بِمُجَرَّدِ رُؤْيَتِها. اسْتِنْكارٌ يَنْفُذُ إِلَى اسْتِنْكارٍ أَعْمَقَ، لا تُحِبُّ صَفيَّةُ اسْـتِدْعاءَه: هَلْ يُشْـبِهُ مَحْمودُ أَبَاهُ أَكْثَرَ مِنْ شَبَهِهِ بِهَا؟ أَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهَا إِلَّا اسْتِرْسالَ خُصُلَاتِ الشَّعْرِ وَسَوادَ قُزَحيَّةِ العَيْنِ؟

مَلَّ مَحْمودُ سَـرِيعًا، كَمَا يَلِيقُ بطِفْلٍ في السَّادِسَـةِ، فَجَلَسَ وَاضِعًا يَدَهُ اليُمْنَى عَلَى خَدِّهِ، كَأَنَّهُ يُثَبِّتُ رَأْسَـهُ الَّذِي أَشْـرَفَ

عَلَى السُّقوطِ، وَشَرَعَ بِوَضْعِ يَدِهِ الثّانيَةِ عَلَى خَدِّهِ الأَيْسَرِ، فَقالَتْ صَفيَّةُ:

– مَلِلْتَ يَا صَغِيري، تَعَالَ واجْلِسْ بِجَانِبي.

شَدَّتِ الصّوَرُ المُنْتَشِرَةُ انْتِباهَ مَحْمودٍ، فَتاهَتْ عُيونُهُ في المَشاهِدِ الَّتي امْتَلأَتْ بِهَا، وَلَكِنَّهُ اسْتَطاعَ أَنْ يُمَيِّزَ أُمَّهُ وَأَبَاهُ وَسْطَ الأَمَاكِنِ الَّتي لا يَتَذَكَّرُها لِصِغَرِ سِنِّهِ. لَمْ تَخْتَلِفْ صَفيَّةُ كَثِيرًا عَمّا كانَتْ عَلَيْهِ قَبْلًا، بِالْكَادِ اسْتَطاعَ العَقْدُ الأَخيرُ مِنْ عُمُرِها أَنْ يَصْنَعَ في شَعْرِها مِفْتاحَيْنِ مِن البيانو، وَأَنْ يُحيلَ أَرْدافَها إِلَى مَزْهَرِيَّةٍ مِنْ العَاجِ الإفْريقيِّ، كَانَ يَكْفِي مَحْمودٌ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الدُّرّاقَتَيْنِ المُمْتَلِئَتَيْنِ عَلَى خَدَّيْها، أَوْ إِلَى ضِحْكَتِها السّاحِرَةِ لِيَعْرِفَها. وَكَذَلِكَ نائِلٌ، فَمَلامِحُهُ لَمْ تَتَغَيَّرْ كَثِيرًا، اسْتَطاعَ مَحْمودٌ تَمْييزَ وَجْهِهِ المَطْلِيِّ بِصِبْغَةِ القَمْحِ الْوَقورِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ازْدِيادِ انْحِدارِ الأَطْرافِ السُّفْلَى لِشِفاهِهِ، وتَجَعُّدِها. انْدَهَشَ مَحْمودٌ فَرِحًا حِينَ رَأَى نَفْسَهُ في إِحْدَى الصّوَرِ، فَعَلَّقَتْ صَفيَّةُ مُشِيرَةً إِلَيْهَا:

– هَذِهِ في شَاطِئِ «لَا كونْشا» في إِسْبَانْيَا، قَبْلَ ثَلاثِ سَنَوَاتٍ.

أَطَلَّ «بُرْجُ إِيفِل» مِنْ إِحْدَى الصُّوَرِ، فَبَذَلَ مَحْمودٌ جَهْدًا ضَئِيلًا لِيَعْرِفَهُ، إِذْ شَرَحَ لَهُ نائِلٌ في السّابِقِ بَعْضَ التَّفاصيلِ التّاريخيَّةِ

الخاصَّةِ بهِ، بَعْدَ أَنْ ظَهرَ صُدْفَةً في بَرْنامَج وَثائِقيٍّ. امْتَدَّتْ شَـفتُهُ السُّفْلَى إِلَى الأَمَامِ مِنْ فَمِهِ المُتَقَوِّس، وَسَطَعَتْ عَيْنَاهُ حُزْنًا لَمَّا لَمْ يَعْثُرْ عَلَى نَفْسِهِ في تِلْكَ الصّورَةِ بَيْنَ أَبْطالِها الثّلاثَةِ: أَبيهِ وَأُمِّهِ، وامْرَأَةٍ عَجوزٍ، دَقَّقَ في مَلامِحِها، فَلَمْ يَتَعرَّفْ عَلَيْهَا. أَشَارَ بِإِصْبَعِهِ:

- مَنْ هَذِهِ؟

أَجَابَتْهُ صَفيَّةُ مُتَنَهِّدَةً قَبْلَ أَنْ يُكمِلَ:

- هَـذِهِ نَعيمَةُ، مُرَبِّيَتُكَ، كَانَـتْ امْرَأَةً فاضِلَةً، رَحِمَها اللهُ، تُوُفِّيَتْ عِنْدَمَا كَانَ عُمُرُكَ عَامَيْنِ.

لَفَتَتْ نَعيمَةُ أَنْظارَ مَحْمودٍ بِهَيْئَتِها المُخْتَلِفَةِ، وَمَلابِسِها غَيْرِ المَأْلُوفَـةِ لَهُ، فَبَحَثَ عَنْ صورَةٍ أُخْرَى لَهَا، وَعِنْدَمَا وَجَدَ واحِدَةً، رَفَعَها إِلَى الأَعْلَى:

- مَنْ هَذَا الطِّفْلُ الَّذي تَحْمِلُهُ نَعيمَةُ عَلَى قَدَمِهَا؟

- هَذَا أَنْتَ أَيُّها المُخادِعُ.

- وَلِمَاذَا تَحْمِلُني؟

أَجَابَتْ صَفيَّةُ وَهِيَ تَقْرُصُ خَدَّهُ:

- أَرْهَقْتَهَا بِبُكائِكَ، فَوَضَعَتْكَ عَلَى قَدَمِهَا، كَمَا تَرَى.

نَظَـرَ مَحْمودٌ إِلَى الصّـورَةِ طَويلًا، مَرَّتْ عِدَّةُ ثَـوَانٍ وَأَصابِعُهُ تَقْبِضُ عَلَيْهَـا، وَعَيْنَاهُ تَتَجَوَّلانِ بَطِيئًا في كُلِّ الاتِّجاهاتِ. أَدْرَكَ

أَنَّ الصّورَةَ التُقِطَتْ فِي البَيْتِ، وَلَكِنْ هُنَاكَ شَيْءٌ مَا اخْتَلَفَ، ثَبّتَ نَظَراتِهِ عَلَى يَمِينِ الصّورَةِ، حَيْثُ مُنْتَصَفُ البَهْوِ، وَالتَهَمَتْ الحَيْرَةُ وَجْهَهُ، ثُمَّ قَالَ مُتَرَدِّدًا:

– أَيْنَ تِمْثَالُ الرَّجُلِ؟

– هَذَا التِّمْثَالُ جَديدٌ، لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا فِي الوَقْتِ الَّذِي التُقِطَتْ فِيهِ هَذِهِ الصّورَةُ، جَلَبْنَاهُ بَعْدَهَا مِنْ «رُومَا» فِي إِحْدَى زِيَارَاتِنَا.

تَشَكَّلَ قِنَاعٌ خَشَبِيٌّ عَلَى وَجْهِ مَحْمُودٍ، وَطَالَتْ نَظَراتُهُ المُتَجَمِّدَةُ عَلَى الصّورَةِ فاغِرًا فَمَهُ. أَشَارَ بِإِصْبَعِهِ مُنْدَهِشًا:

– هُنَاكَ سَفينَةٌ أُرْجُوانِيَّةٌ جَميلَةٌ مَكانَ التِّمْثالِ.

– نَعَمْ يَا حَبِيبِي، كَانَتْ سَفينَةً جَمِيلَةً، وَعِمْلاقَةً أَيْضًا.

– وَأَيْنَ ذَهَبَتْ هَذِهِ السَّفينَةُ؟

– تَحَطَّمَتْ.

– وَهَلْ جَلَبْتُمُوهَا أَيْضًا مِنْ رُومَا؟

– كَلّا يَا حَبِيبِي.

صَمَتَتْ صَفِيَّةُ لِثَوانٍ، ثُمَّ اسْتَرْسَلَتْ:

– وَالسَّفِينَةُ أَيْضًا لَمْ تَكُنْ أَوَّلَ تُحْفَةٍ تُزَيِّنُ مُنْتَصَفَ البَهْوِ، فَقَدْ تَعَاقَبَتْ التُّحَفُ فِي هَذَا المَكانِ.

قَالَ مَحْمودٌ مُسْتَمْتِعًا بِالْحَدِيثِ:

- وَمَا هِيَ هَذِهِ التُّحَفُ؟

- كَانَ أَوَّلُها مُجَسَّـمَا لِمَرْكَبَاتٍ ذَهبِيَّةٍ مُجَنَّحَةٍ، تَحْمِلُ ثَلاثَةَ أَفْرادٍ؛ ثُمَّ جَلَبْنا مَكانَهُ طَيْرًا جَميلًا مَنْحوتًا مِن البَازَلْتِ الأَسْوَدِ؛ ثُمَّ مُجَسَّـمًا حَجَرِيًّا مَلِيئًا بِالأَعْمِدَةِ؛ وَبَعْدَهَا هَذِهِ السَّـفِينَةَ الَّتِي تَرَاهَا فِي الصّورَةِ؛ ثُمَّ قافِلَةً مِن الجِمالِ تَسيرُ نَحْوَ بُقْعَةٍ مِنْ نُورٍ.

صَمَتَتْ صَفِيَّةُ قَليلًا، ثُمَّ اسْتَدْرَكَتْ:

- أَظُنُّ أَنَّني لَمْ أَنسَ شَيْئًا.

وقَامَتْ لِتُعِيدَ الأَلْبومَ مَكانَهُ، وَهِيَ تَقولُ:

- وَالآنَ هَـذَا التِّمْثالُ الرُّخامِيُّ الَّذِي تَعْـرِفُ، وَالَّذِي يُصَوِّرُ وَجْهَ «أُوكْتَافْيَانَ» وَقَدْ تَكَلَّلَتْ رَأْسُهُ بِالْغارِ.

- وَهَلْ سَيَبْقَى هَذَا التِّمْثالُ هُنَا؟

- لا شَيْءَ يَبْقَى عَلَى حالِهِ يَا حَبِيبِي، كُلُّ شَيْءٍ يَتَغَيَّرُ.

انْزَلَقَ الأَلْبومُ مِنْ مَكانِهِ، وَسَـقَطَ عَلَـى رَأْسِ مَحْمودٍ، فَوَقَعَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ. جَلَسَتْ صَفِيَّةُ أَمَامَهُ، وَهِيَ تَصْرُخُ:

- نائِلُ.

مَسَـحَتْ عَلَى رَأْسِ مَحْمـودٍ بِالْمَاءِ حَتَّى اسْـتَيْقَظَ، بَيْنَمَا تَاهَ صَوْتُها فِي أَنْحَاءِ القَصْرِ المُتَرامِيَةِ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى نائِلٍ.

* * *

جَلَسَ نائِلُ عَلَى الكُرْسيِّ الأَسْوَدِ الخاصِّ بمَكْتَبِه، وَقَدْ اسْتَقَرَّ المَكْتَــبُ -تَمَامًا- أَمَــامَ مُنْتَصَفِ الجِدارِ الخَلْفِــيِّ لِلْغُرْفَةِ، الَّتي امْتَلأَ جِداراهــا الجانِبيَّانِ بِرُفوفِ الكُتُبِ، مِمَّــا يُعْطي انْطِباعًا لِواقِــفٍ عِنْدَ البَابِ بِــأَنَّ نِصْفَي الغُرْفَةِ مُتماثِلانِ، كَأَنَّ سَــاحِرًا نَسَــخَ أَحَدَهُمَا عَــنْ الآخَرِ. بِجِلْبابِهِ العُنَّابيِّ الَّــذِي يَرْتَديهِ فَوْقَ قَميصٍ وَبِنْطَالٍ أَسْــوَدَيْنِ كِلاسِــيكيّين بَدا نائِلُ جُــزْءًا أَصيلًا مِنْ هَذِهِ الغُرْفَةِ. فَتَحَ نائِلُ الكِتابَ البُنِّيَّ الَّذي كَانَ قَدْ أَنْزَلَهُ مِنْ أَعْلَى المَكْتَبَةِ، واسْــمُ «أَفْلاطُونَ» يَلْتَهِمُ غِلافَــهُ، تَتَابَعَتْ صَفَحاتُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى أَجْهِدَتَا، فَسَــنَدَ كُوعَيْهِ عَلَى المَكْتَبِ رَافِعًا الكِتابَ إِلَى أَعْلَى، فَسَقَطَتْ مِنْهُ وَرَقَةٌ بَيْضاءُ مَكْتوبٌ فيهَا بِخَطِّ يَدِهِ:

«ياسِرُ سُلَيْمان

٠٧٣٨٨٢٩٠٤٧٨»

تَحَــوَّلَ بَصَــرُ نائِــلٍ إِلَى الوَرَقَــةِ، وَاسْــتَغْرَقَ فِي اسْــتِذْكارِ مُحْتَوَيَاتِهَا، ثُمَّ ابْتَسَــمَ كَفارِسٍ مُخَضْرَمٍ جاءَتْهُ الأَنْباءُ بِاضْطِرامِ مَعْرَكَةٍ قادِمَةٍ.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

رَقْمٌ خارجيٌّ يتَّصلُ

سَــلَّمَ القمرُ الشَّمْسَ حِصَّتَها من السَّــماءِ، فَطَلَعَ نَهارُ الثَّانِي مِنْ أُكْتُوبَرَ. اسْــتَيْقَظَتْ حَميدَةُ، وبَــدَأَتْ تَلْعَنُ ظُروفَ الحَياةِ، والرّوتينَ اليَوْميَّ الشّاقَّ. لَمْ يَجُرِ الإِنْسَانُ على شَيْءٍ مُنْذُ اسْتَوْطَنَ الأَرْضَ جَوْرَهُ عَلَى الظُّــروفِ، فَبَغَضَها عَلَى أيِّ حَالٍ كانَتْ، ثُمَّ ادَّعَى أَنَّهُ مِسْــكينٌ بائِسٌ بِسَــبَبِهَا، فَأَكْثَرَ شَــكْوَتَهُ، وكَدَّرَ صَفْوَ عَيْشِــهِ، وتَمَنَّى كُلَّ نِعْمَةٍ عَــدَا نِعَمِهِ. وَمَا هِــيَ إِلَّا دَقَائِقُ حَتَّى تَطَايَــرَتْ قِطَعُ المَلابِسِ مِــنْ أَيْدِي حَميدَةَ نَحْوَ الغَسّــالَةِ الرَّثَّةِ، وَعُيونُها تُراقِبُ فُقَاعاتِ الحَســاءِ الثّائِــرَةَ في القِدْرِ، ثُمَّ صَرَخَتْ بِأَعْلَى صَوْتِها:

- قُلْــتُ لَكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ «أَرْسِــلِ الطَّعامَ إِلَى أَبيــكَ»، كَمْ مِنَ المَرَّاتِ عَلَيَّ أَنْ أَقولَ! شَادِي، أَنَا أَفْقِدُ صَوْتي فِي هَذَا البَيْتِ، لَيْتَ الصَّوْتَ فَقَطْ هُوَ مَا أَفْقِدُهُ. لَيْسَ في هَذَا البَيْتِ غَيْرُكَ وَغَيْرُ أُخْتِكَ، هَلْ تُريدُنِي أَنْ أُرْسِلَهَا إِلَى المَزْرَعَةِ فَيَرَاهَا مِئاتُ الرِّجالِ!

وَضَعَ شَادِي يَدَهُ فِي جَيْبِهِ، وَبَدَأَ بِفَرْكِ أَصابِعِهِ، ثُمَّ رَدَّ بِصَوْتٍ لَا يَكَادُ يُسْمَعُ:

– حَسَنًا، سأَذْهَبُ.

– ينْبَغِي عَلَى شابٍّ مِثْلِكَ أَنْ يَكونَ مَعَ أَبيهِ مُنْذُ الصَّباحِ، هَلْ تَظُنُّ أَنَّكَ ما زِلْتَ صَغِيرًا! اذْهَبْ وَتَعَلَّمِ المِهْنَةَ لِتُصْبِحَ رَجُلًا، مِثْلَ أَبيكَ وَأَجْدادِكَ، بَدَلًا مِنْ تِلْكَ الكُتُبِ الَّتي تَحْشُو رَأْسَكَ بِهَا.

وَضَعَ شَادِي قَدَمًا فَوْقَ الأُخْرَى طَاوِيًا كِلْتَا ذِرَاعَيهِ أَمَامَ صَدْرِهِ، وَراحَةُ كُلِّ يَدٍ مُمْسِكَةٌ اليَدَ الأُخْرَى مِن الأَعْلَى، ثُمَّ قَرَصَ بِإِصْبَعَيْهِ عَلَى شَعْرَةٍ نابِتَةٍ عَلَى ذَقَنِهِ، وَرَدَّ بِصَوْتٍ لَمْ يَسْمَعْهُ إِلَّا هوَ:

– أَجْدَادِي!

اسْتَرْسَلَتْ حَميدَةُ:

– انْظُرْ إِلَى صالحٍ، ابْنِ الحاجِّ مَحْمودٍ جارِنَا، إِنَّهُ يَبِيتُ اللَّيَالِيَ فِي المَزارِعِ، وَأَنْتَ لا نَأْخُذُ مِنْكَ حَتَّى إِرْسالَ الأَكْلِ، يَا لَكَ مِنْ وَلَدٍ عَديمِ الفائِدَةِ!

لَمْ يَرُدَّ شَادِي عَلَى أُمِّهِ كَالْعَادَةِ، عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا امْتَلأَ بِهِ مِن الرَّفْضِ، وَرَدَّدَ جُمْلَةً دَائِمًا مَا يُحَدِّثُ بِهَا نَفْسَهُ: «وَمَا الفائِدَةُ إِذَا أَجَبْتُ! لَنْ يَفْهَمُوا حَتَّى إِجَابَتِي». وَصْفُهُمْ بِالْبَساطَةِ – وَأَحْيَانًا بِالسَّذاجَةِ – تِرْياقٌ مُريحٌ، يَخْدَعُ بِهِ نَفْسَهُ، وَيُبَرِّرُ بِهِ عَجْزَهُ عَن الرَّدِّ عَلَيْهِمْ. حَمَلَ شَادِي الأَكْلَ وَخَرَجَ، رَكَلَ الشَّجَرَةَ الواقِفَةَ أَمَامَ البَيْتِ، ثُمَّ سَارَ بِبُطْءٍ شَديدٍ نَحْوَ المَزْرَعَةِ، لَعَلَّهُ

يُؤَخِّـرُ وُصُولَهُ إِلَيْهَا، وَيَقْضِي أَقَـلَّ وَقْتٍ مُمْكِنٍ فِيهَا، لَمْ يُحِبَّهَا يَوْمًا، وَلَا مَرَّتْ عَلَى أَحْلامِهِ قَطُّ، أَحْلامِهِ الكَثِيرَةِ الَّتِي لَمْ تُعْطِهِ تَجْرِبَةُ إِنْهاءِ الدِّراسَةِ الثَّانَوِيَّةِ، وَشَغَفُهُ بِالْقِرَاءَةِ مَقْدِرَةَ الإِعْلانِ عَنْهَـا، فَبَقِيَ غَرِيبًا عَن العالَمِ مِنْ حَوْلِهِ، يَسْـتَقْبِلُ التَّعْليماتِ، وَلَا يُناقِشُها، وَيَهْرُبُ إِلَى دُنْيَا خَيالِيَّةٍ فِي الكُتُبِ، حَيْثُ يَجِدُ مَا يُشْبِهُ آرَاءَه هُنَاكَ.

* * *

حَـلَّ اللَّيْلُ هَادِئًـا، إِلَّا مِن الصَّوْتِ المُـدوِّي لِحَميدَةَ، الَّتِي لَا تَعْرِفُ تَكَيُّفًا مَعَ ظُروفِ الحَياةِ غَيْرَ إِطْلاقِهِ، فَيُرِيحُها صُراخُها بِقَدْرِ مَا يُزْعِجُ الآخَرِينَ:

– إِنَّهُمْ أَغْبياءُ، كَيْفَ لِأَحَدٍ أَنْ يُثِيرَ المَشاكِلَ مَعَ وَلِيِّ نِعْمَتِهِ! بِفَضْـلِ هَذَا العَمَـلِ بُيوتٌ كَثيرَةٌ قائِمَةٌ، أَلَا يَعْرِفونَ أَنَّ السُّـخْطَ يورِثُ الحِرْمانَ والهَمَّ!

ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَى زَوْجِها مُحَذِّرَةً:

– أَنْتَ لَسْتَ مُشارِكًا فِي هَذِهِ المَهْزَلَةِ بِالتَّأْكِيدِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

أَوْمَأَ ياسِرٌ بِرَأْسِهِ مُؤَكِّدًا عَلَى كَلامِها، ثُمَّ قَالَ:

– قُلْتُ لَهُمْ كَثِيرًا إِنَّ طارِقَ يَاسِـين رَجُلٌ طَيِّبٌ، وَإِنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يَشْـتَرِيَ مُوْتُورَ المَاءِ كَيْ لَا يَحِلَّ مَـكانَ الكَثِيرِ مِن المُوَظَّفِينَ،

فَيَحْرِمَهُــمْ مِن العَمَلِ، إنَّهَا مِهْنَةُ أَجْدادِي وَأَعْرِفُها أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ أَحَدٍ، عَاشُـوا وَمَاتُوا في المَزارِعِ، وَلَمْ نَسْمَعْ أَنَّ مِنْهُمْ مَن اسْتَخْدَمَ مُوْتُورًا، سُحْقًا لِهذَا الجِيلِ! يُرِيدُ أَنْ يُعَلِّمَنَا كَيْفَ نَعْمَلُ!

* * *

أَطْلَقَتِ الشَّمْسُ شُـعاعًا خَجِلًا، فَفَتَحَتْ حَميدَةُ عَيْنَيْهَا عَلَى السَّتائِرِ الشَّـفافَةِ، الَّتي كَانَتْ تَعْزِلُ البَيْتَ عَن الحَيِّ في يَوْمٍ مِن الأَيَّامِ، وانْقَلَبَتْ لِتَسْـتَلْقِيَ عَلَى ظَهْرِها، فَاهْتَزَّ السَّـرِيرُ هَادِرًا كَأَنَّهُ عَجوزٌ يَئِنُّ. زَالَ الضَّبابُ الَّذِي يُغَطِّي عَيْنَيْهَا شَيْئًا فَشَيْئًا، فَتَكَشَّفَتِ البُقْعَتَانِ الرَّقِيقَتَانِ مِن الدِّهَانِ، اللَّتَانِ تُعانِقانِ السَّقْفَ عَنْوَةً. ثُمَّ جَلَسَـتْ عَلَى طَرْفِ السَّـرِيرِ، وارْتَشَـفَتْ نَفَسًا عَمِيقًا يَتَعَطَّرُ بِخَشَـبِ الأَثاثِ القَدِيـمِ. نَزَلَتْ عَن السَّـرِيرِ وَهِيَ تُفَكِّرُ بِوَاجِبَاتِهَــا اليَوْمِيَّةِ في المَنْزِلِ، وَلَمَّا تَعُـدْ أَطْرافُها لِلْحَيَاةِ تَمامًا، فَمَشَـتْ مُخَدَّرَةً مِنْ تَأْثِيرِ النُّعاسِ، إلى أَنْ عَثَرَتْ قَدَمُهَا بِسِـلْكٍ يَعْبُرُ أَرْضَ الغُرْفَةِ، وَيَنْتَهِي بِتِلْفازٍ رَمادِيٍّ صَغيرٍ، فَانْطَفَأَ كَأَنَّهُ جَنينٌ قُطِعَ حَبْلُهُ السُّرِّيُّ، وَزَلَّتْ حَميدَةُ، فَمَدَّتْ يَدَها لِتَسْتَنِدَ إلَى دُولَابٍ خَشَبِيٍّ بِجانِبِها، ثُمَّ وَقَفَتْ لِتَخْرُجَ مِن الغُرْفَةِ، فَباغَتَهَا صَوْتُ خَشْخَشَةٍ انْطَلَقَتْ مِنْ مَكانٍ مَا مِن البَيْتِ:

- مَا هَذَا الصَّوْتُ؟

رَدَّتْ بَهيَّةُ:

- إنَّهُ هاتِفُ أَبِي.

- يَا إلهي، لَمْ أَسْمَعْهُ مُنْذُ أَشْهُرٍ. نَسيتُ أَنَّ لَدَى أبيكِ هَاتِفًا، حَتَّى إنَّهُ يَنْسَاهُ وَيَتْرُكُهُ هُنَا في البَيْتِ. أَيْنَ الهاتِفُ؟ فَلْيَجْلِبْهُ أَحَدٌ.

ثُمَّ اسْتَدْرَكَتْ:

- اِذْهَبْ وَأَحْضِرِ الهاتِفَ يَا شَادِي، أُخْتُكَ لَدَيْهَا مَا تَقومُ بِهِ في المَطْبَخِ.

أَنْزَلَ شَادِي يَدَهُ عَنْ ذَقَنِهِ، وَمَدَّها بِحَذَرٍ داخِلَ الكَنبَةِ -حَيْثُ مَصْدَرُ الصَّوْتِ- ساحِبًا الهاتِفَ، فَجَرَحَهُ مِسْمارٌ عالِقٌ بِالْبِطانَةِ المُمَزَّقَةِ في الفَراغِ بَيْنَ مَسْنَدِ الكَنَبَةِ وَمَكانِ الجُلوسِ. ضَرَبَتْ حَميدَةُ كَفًّا بِكَفٍّ تَتَأَفَّفُ:

- تَعَالَ، تَعَالَ، مَن المُتَّصِلُ؟

- رَقْمٌ خارِجِيٌّ.

- رَقْمٌ خارِجِيٌّ! هَلْ يَعْرِفُ ياسِرٌ أَرْقَامًا خارِجيَّةً! يَا إلهِي، لَا أَدْرِي مَا يَجِبُ فِعْلُهُ الآنَ.

جَاءَتْ بَهيَّةُ مِن المَطْبَخِ، وَنَظَرَتْ إِلَى شَادِي بِهُدُوءٍ قَائِلَةً:

- خُذِ الهاتِفَ مَعَ الأَكْلِ اليَوْمَ يَا شَادِي، وَأَخْبِرْ أَبِي أَنَّ هُنَاكَ مَن اتَّصَلَ بِهِ.

أَوْمَأَ شَادِي بِرَأْسِهِ مُوَافِقًا، وَيَدُهُ تَقْرُصُ عَلَى شَعْرَةٍ نابِتَةٍ فِي ذَقَنِهِ.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

حَتْمًا سَنُفاوِضُ

يَعيشُ الأَبْنـاءُ في كَنَفِ آبائِهِـمْ، ويَسْـتَقُونَ مِنْهُمْ خِبْراتِ الحَيـاةِ، في رِحْلَـةٍ مُضْنيَةٍ، لا تَنْفَـكُّ المَتاعِبُ فِيهَـا تَتَقافَزُ في وُجـوهِ الآبَاءِ. وَحِينَ يَرْتوي الأَبْناءُ فَيَسْـتَقِلُّونَ، يُصْدَمونَ تِباعًا بِـأَنَّ المَتاعِبَ الحَقيقيَّةَ لَمْ تَكُنْ يَوْمًا مِـنْ صَنائِعِهِمْ، بَلْ تَدابيرَ الأَجْدادِ، الَّذِينَ فَرَضُوا عَلَى سُـلالَاتِهِمْ قُيُودًا مُتَراكِمَةً، أَسْمَوْهَا عَادَاتٍ. وَلَيْسَتْ صَدْمَتُهُمْ بِعَجيبَةٍ عُجْبَ مَا تَتَمَتَّعُ بِهِ تِلْكَ القُيودُ مِنْ حِمايَةٍ، فَحُرّاسُها كُثْرٌ، يَرْأَسُهُمُ النَّميمَةُ، الَّتي تَطالُ كُلَّ مَنْ يَتَجَرَّأُ عَلَى الْعَادَاتِ، فَيَتَحَوَّلُ جَوْهَرُ غايَتِها مِنْ إِرْضاءِ صَانِعِيهَا الأَمْواتِ، إِلَى إِرْضاءِ حُماتِها الأَحْيَاءِ. لَمْ تَكُنْ نِيَّةُ اسْتِضافَةِ ياسِرٍ لِنائِـلٍ إِلَّا ضَرْبًا مِنْ ضُروبِ ذَلِكَ الإِرْضاءِ، فَقَدْ أَقَرَّ أَجْدادُهُ إِكْرامَ الضَّيْفِ، وَحَرِصَ الأَحْفادُ مُتَرَبِّصينَ عَلَى تَقْييمِ ذَلِكَ الإِكْرامِ، أَمَّا قُدْرَةُ ياسِرٍ عَلَيْهِ فَلَمْ تُعْنِ أَحَدًا غَيْرَهُ وَحَميدَةَ.

مَلَّ ياسِرٌ حَرَكَةَ حَميدَةَ المُسْتَمِرَّةِ في الغُرْفَةِ، فَقالَ لَها:

- اجْلِسي. مَا بِكِ؟

- لَمْ تَكُنْ هَـذِهِ الدَّعْوَةُ ضَرورِيَّةً مِن البِدايَـةِ، أَتَدَعُو الرّائِحَ وَالغاديَ! بالْكَادِ نَجِدُ قُوتَ يَوْمِنَا.

- وَهَلْ قُوتُ الرَّجُلِ هوَ الَّذِي سَـيضُرُّنا! نَسْتَطيعُ إطْعامَهُ مِمَّا نَأْكُلُ.

- المُشْـكِلَةُ لَيْسَتْ أَكْلًا وَشُرْبًا، سَـيَأْكُلُ مِنْ طَعامِنا، لَكِنْ لَنْ نَسْـتَطيعَ اسْـتِقْبالَهُ في هَذَا البَيْتِ، كُلُّ شَـيْءٍ هُنَا قَديمٌ، حَتَّى الأَكْـوابُ وَالصُّحونُ. فَلْيَنْزِلْ في فُنْـدُقٍ، بَيْتُنا ضَيِّقٌ وَغَيْرُ جاهِزٍ لِاسْتِقْبَالِ الضُّيوفِ، حَتَّى أَنَا بِالْكَادِ أَسْتَطيعُ العَيْشَ فِيهِ.

قَالَ ياسِرٌ مُقاطِعًا:

- لَنْ أَقولَ لِضَيْفِي «انْزِلْ في فُنْدُقٍ».

- لَا أَدْرِي كَيْـفَ صَـارَ «ضَيْفَكَ»! بِالْـكَادِ صَادَفْتَهُ عَلَى مَتْنِ طائِرَةٍ، لا يَنْقُصُني إِلَّا أَنْ تَقولَ «صَدِيقِي»!

أَيْقَنَتْ حَميدَةُ أَنَّ ياسِرًا سَيُلَبِّي نِداءَ التَّقاليدِ، وَيَسْتَقْبِلُ نائِلًا، حَتَّى هِيَ نَفْسُـها لَمْ تَكُنْ رافِضَةً، لَكِنَّها أَرادَتِ اسْتِقْبالَهُ بِشَكْلٍ أَفْضَلَ. قَطَعَ ياسِرٌ لَحَظاتِ الصَّمْتِ الَّتي تَبِعَتْ حِوارَهُمَا مُتَنَهِّدًا:

- حَسَنًا، هُنَاكَ مَالٌ قادِمٌ إِلَيْنَا نِهايَةَ هَذَا الشَّهْرِ، سَنَسْتَخْدِمُهُ لِبَعْضِ التَّغْييراتِ المُناسِبَةِ.

- هَلْ تُسَمِّي الدَّراهِمَ القادِمَةَ «مَالًا»! لَنْ تَكْفِيَ لِشَيْءٍ.

- يَـا حَميدَةُ، سَـنُصْلِحُ مَا نَسْـتَطيعُ، وَنَشْـتَري الأَشْـياءَ الضَّروريَّةَ. لَنْ يَقُولَ آلُ زَيْدٍ إنِّي رَدَدْتُ ضَيْفًا.

ذَهَبَتْ حَميدَةُ غاضِبَةً:

- شَـادي، امْلأِ البرْميلَ بالْماءِ، أُريـدُ أَنْ أُنَظِّفَ البَيْتَ. هَلْ أَفْعَلُ في هَذَا البَيْتِ غَيْرَ تَنْظيفِهِ!

* * *

- «أَرَيْنَ مَحاسِنًا وكَنَنَّ أُخْرَى.»

قَالَهَــا نائِلٌ حِينَ اتَّخَذَتْ صَفيَّةُ جَانِبًا مِن السَّـرير، في حالَةٍ مُصْطَنَعَــةٍ بَيْنَ المُبَالَاةِ وَاللَّا مُبالاةِ، فَلَمْ تُجِبْهُ. وَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْهَا، أَعْطَتْهُ ظَهْرَها مُتَجاهِلَةً، وَتَكَلَّفَتِ النَّظَرَ إِلَى النّافِذَةِ، فَتابَعَ:

- يَا لَجَمالِ غَضَبِ المَلائِكَةِ!

حَافَظَتْ صَفيَّةُ عَلَى صَمْتِها. فَجَلَسَ نائِلٌ بِجانِبِها، وَنَظَرَ إلَى عَيْنَيْهَا:

- هَلْ سَأُسافِرُ وَأَنْتِ غاضِبَةٌ؟

- إذَا كُنْتَ قَدْ قَرَّرْتَ أَنَّكَ سَتُسافِرُ، فَلِمَاذَا نَتَحَدَّثُ إذًا!

بَرَقَتْ عَيْنا نائِلٍ حِينَ تَكَلَّمَـت صَفيَّةُ مُدْرِكًا أَنَّ بَدْأَهَا الكَلامَ خُطْوَةٌ مُهِمَّةٌ لإِقْنَاعِهَا بالسَّفَرِ، فَأَجَابَهَا:

- يَا عَزيزَتي، أَنَا مَعْنيٌّ بِرِضَاكِ.

صَمَتَتْ صَفيَّـةُ، وَابْتَلَعَتْ رِيقَهَا، وَأَخَذَتْ تُفَكِّرُ فِيمَا تَقولُهُ، فَهِـيَ تَعْلَمُ أَنَّ نائِلًا مَعْنيٌّ بِرِضَاهَـا، لَكِنَّها هَذِهِ المَرَّةَ تَبْحَثُ عَنْ رِضًـى مَصْحوبٍ بالْقَنَاعَةِ، يَخْتَلِفُ عَمَّا اعْتَادَتْ عَاطِفيًّا عَلَيْهِ مِنْ مَعْسولِ الكَلامِ، فَقَرَّرَتِ العِتابَ قَبْلَ الطَّلَبِ، لِتُشْعِرَ نائِلًا بِمَدَى سَخَطِها:

- أَتُرِيدُ حَقًّا أَنْ تَقْضيَ الإجازَةَ وَحْدَكَ! وَعِنْدَ رَجُلٍ لَمْ تُقَابِلْهُ في حَياتِكَ إِلَّا نِصْفَ سـاعَةٍ! لَقَدْ جَلَسْتَ يَوْمًا كَامِلًا تُفَكِّرُ مَنْ هوَ ياسِرُ سُلَيْمانَ هَذا، وَالآنَ تُريدُ أَنْ تَقْضيَ الإجازَةَ عِنْدَهُ!

- إنَّهُ رَجُلٌ طَيِّبٌ، هَلْ تَتَخيَّلِينَ أَنَّهُ دَعانِي إِلَى بَيْتِهِ بِكُلِّ وُدٍّ، دُونَ أَنْ يَعْرِفَني؟

ثُـمَّ أَدْرَكَ نائِلٌ مَـا تَرْمِي إِلَيْهِ صَفيَّةُ بِبَدْئِهـا العِتابَ، فَقَرَّرَ المُضيَّ بالْمُفَاوَضَاتِ خُطْوَةً إِلَى الأَمَامِ مُسْتَفْهِمًا:

- المُهِمُّ الآنَ، كَيْفَ تَرْضَيْنَ يَا صَافي؟

- أَرْضَى حِينَمَا نَحْزِمُ الحَقائِبَ ذَاهِبِينَ إِلَى الإجازَةِ.

رَأَى نائِـلٌ أَنْ يُبَعْثِرَ تَرْكيزَ صَفيَّةَ عَنْ إِجـازَةِ أُكْتُوبَرَ، فَبَدَأَ بِعَرْضِ الْخِيَارَاتِ المُتَعَدِّدَةِ أَمَامَهَا بِدَهاءٍ:

- وَهَلْ حَزْمُ الحَقائِبِ هَذَا لَا يَصْلُحُ إِلَّا فِي أُكْتُوبَرَ؟

- مَاذَا تَقْصِدُ؟

- أَقْصِدُ أَنَّنَا مِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ نَقْضِيَ إجازَتَنا في ديسَمْبِرَ، مَثَلًا.

آثَرَتْ صَفيَّةُ أَنْ تَخْتَبِرَ اسْتِجابَةَ نائِلٍ لِمُصاحَبَتِها في رِحْلَتِهِ هَذِهِ، قَبْلَ الاسْتِسْلامِ لِلْخِيَارَاتِ الأُخْرَى:

- وَلِمَاذَا لا تَأْخُذُنِي مَعَكَ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ؟

- لَيْسَتْ نُزْهَةً يا عَزِيزَتِي، اعْتَبِرِيها رِحْلَةَ عَمَلٍ، لَنْ تَكُونِي سَعيدَةً هُنَاكَ بِالتَّأْكِيدِ.

حِينَ رَأَتْ صَفيَّةُ حَزْمَ نائِلٍ عَلَى الذَّهابِ وَحْدَهُ، اسْتَسْلَمَتْ لِخُدْعَةِ الخَوْضِ في الْخِيَارَاتِ، وَبَدَأَتْ تَدْرُسُ ما يَعْرِضُهُ عَلَيْهَا قَائِلَةً:

- إِنَّنَا نُسافِرُ في ديسَمْبِرَ أُسْبُوعًا في العادَةِ، لَكِنَّ إجازَةَ أُكْتُوبَرَ أَرْبَعَةُ أَسَابِيعَ، فَإِذَا تَغاضَيْتُ عَنْ هَذِهِ الإجازَةِ، هَلْ سَنُسافِرُ خَمْسَةَ أَسَابِيعَ في ديسَمْبِرَ؟

صُدِمَ نائِلٌ مِنْ سُؤالِ صَفيَّةَ، فَلأَوَّلِ مَرَّةٍ يَرَاهَا تُفاوِضُهُ بِثَبَاتٍ، وَلا تَنْسَحِبُ أَمَامَهُ مِن الجَوْلَةِ الأُولَى، فَأَعَادَ الحِوارَ إِلَى رِحْلَةِ أُكْتُوبَرَ:

- يَا عَزِيزَتِي، إِنَّهَا رِحْلَةٌ في غايَةِ الأَهَمِّيَّةِ بِالنِّسْبَةِ لِي.

قَاطَعَتْهُ صَفيَّةُ:

- لا أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ مَدَى أَهَمِّيَّةِ هَذِهِ الرِّحْلَةِ، أَنَا مُهْتَمَّةٌ

بِرِحْلَتي فَقَطْ، هَلْ سَتُصْبِحُ خَمْسَةَ أَسَابِيعَ إِذَا تَأَجَّلَتْ إِلَى ديسَمْبِرَ؟

ضَحِكَ نائِلٌ قَائِلًا:

- أَيَّتُهَا الْمُخادِعَةُ، هَلْ تُفَاوِضِينَنِي؟

- أَجَلْ، أُفَاوِضُكَ، فَلَدَيَّ مَا أُفَاوِضُ لِأَجْلِهِ.

- حَسَـنًا، سَنُسافِرُ خَمْسَـةَ أَسَـابِيعَ نِهايَةَ الْعَامِ، هَلْ أَنْتِ راضِيَةٌ الآنَ؟

رَدَّتْ فِي دَلالٍ:

- سَأُفَكِّرُ فِيمَا إِذَا كُنْتُ راضِيَةً أَمْ لَا.

- تَعالَيْ نَتَناوَلُ العَشاءَ فِي الخَارِجِ، لَعَلَّكَ تَرْضَيْنَ.

- حَسَنًا، حَسَنًا، رَضِيتُ.

- وَلَكِنِّي لَمْ أَرْضَ.

ضَحِكَتْ صَفِيَّةُ، وَاسْتَرْسَلَ نائِلٌ:

- سَأَرْضَى حِينَ أَرَى المَحاسِنَ كُلَّها .

* * *

وَبَعْـدَ يَوْمَيْنِ، أَخَـذَ نائِلٌ حَقائِبَـهُ الَّتي حَزَمَها بِنَفْسِـهِ، وَاحْتَضَنَ صَفِيَّةَ مُوَدِّعًا، ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يَتَلَفَّتُ:

- أَيْنَ مَحْمودٌ؟

- يَلْعَبُ فِي الحَديقَةِ.

أَمْسَــكَتْ صَفيَّةُ يَدَ نائِلٍ، وَوَجْهُها يَمْتَلِئُ بِالدُّمُوعِ، وَخَرَجا مَعًا:

- تَعَالَ يَا مَحْمودُ، وَدِّعْ أَباكَ.

جَاءَ مَحْمودٌ، وَنَظَرَ إِلَى أَبيهِ مُسْتَفْهِمًا:

- أَيْنَ تَذْهَبُ؟

- سَأُسافِرُ لِفَتْرَةٍ قَصيرَةٍ.

- حَسَنًا، تَذَكَّرْ هَديَّتي.

احْتَضَنَــهُ نائِلٌ، ثُمَّ رَكِبَ السَّــيّارَةَ، وَأَشَــارَ إِلَى صَفيَّةَ بِيَدِهِ مُوَدِّعًا، فَقَالَتْ صَفيَّةُ:

- لَا تَنْسَ الاتِّصالَ بِي يَا نائِلُ.

- لَا تَقْلَقِي يَا عَزيزَتِي، سَأُحَادِثُكِ باسْتِمْرارٍ.

بَكَتْ صَفيَّةُ، وَمَا لَبِثَتِ السَّــماءُ أَنْ أَلْقَتْ مَاءَهَا، كَأَنَّهَا رَفيقَةٌ مُخْلِصَةٌ جَاءَتْ لِتُوَاسِيَ رَفِيقَتَهَا الحَزِينَةَ.

الفَصْلُ الْخَامِسُ

عَبْرَ الْحارَةِ الشَّرْقِيَةِ

مَلَأَتْ حَميدَةُ صُنْدُوقًا صَغِيرًا بِالْجُبْنِ وَالْخُبْزِ وَالْمَوْزِ، وَوَضَعَتْهُ فِي حَقيبَةٍ صَغيرَةٍ مَعَ قارورَةِ مَاءٍ، وَأَخَذَتْ تُتَمْتِمُ:

- لَا يَنْقُصُني إِلَّا واجِباتُ الضُّيوفِ، بِالْكَادِ أَنْتَهي مِنْ واجِباتِ المَنْزِلِ، لَنْ أَرْتاحَ في هَذَا البَيْتِ.

خَشِيَ ياسِرُ أَنَّهُ قَدْ يَنْسَى وَجْهَ نائِلٍ، فَنَادَى شَادِيًا لِيَجْلِبَ قِطْعَةً مِنْ كَرْتونٍ، وَيَكْتُبَ عَلَيْهَا: «نائِلُ اليَمانِيِّ»، ثُمَّ يُبَدِّلَ مَلابِسَهُ لِيَذْهَبَ مَعَهُ إِلَى المَطارِ كَيْ يَسْتَقْبِلَا نائِلًا. نَفَّذَ شَادِي الأَوامِرَ غَيْرَ مُتَشَجِّعٍ لِلرِّحْلَةِ، لَكِنَّهُ رَآهَا خِيارًا أَقَلَّ عَلَى نَفْسِهِ مَرارَةً مِنْ جُلوسِهِ فِي البَيْتِ مَعَ حَميدَةَ. وَعِنْدَ حُلولِ الظَّهيرَةِ تَحَرَّكَا شَمالًا نَحْوَ المَطارِ.

* * *

أَطَلَّ رَجُلٌ مِنْ خَلْفِ حاجِزٍ حَديدِيٍّ مُقَوَّسٍ في صالَةِ «القادِمينَ»، يَرْتَدي مِعْطَفًا مِن الفَرْوِ الأَسْوَدِ فَوْقَ قَميصٍ بِلَوْنِ البَحْرِ، عَرَفَهُ ياسِرٌ، فَأَخْفَى حَياءً قِطْعَةَ الكَرْتونِ، وَأَشَارَ لِشادي إِلَيْهِ:

- هَذَا نائِلٌ.

تَقَدَّمَ نائِلٌ نَحْوَهُمَا بخُطًى مُتَّزنَةٍ. أَنْزَلَ شَادِي يَدَهُ عَنْ ذَقَنِهِ، وَأَخَذَ يُراقِبُــهُ مُعْجَبًا بِأَناقَتِهِ المُفْرطَةِ. تَعانَــقَ الرَّجُلَانِ كَأَنَّهُمَا صَدِيقَانِ قَدِيمانِ، ثُمَّ قُدِّمَ شَادِي لِنائِلٍ، فَاسْتَقْبَلَهُ بِمَسْحَةٍ خَفيفَةٍ عَلَى رَأْسِهِ، تَسَلَّلَتْ إِلَى قَلْبِهِ.

* * *

تَحَرَّكَتِ السَّـيارَةُ جَنُوبًا نَحْوَ بَيْتِ ياسِرٍ تُقِلُّ الرِّجالَ الَّذِينَ تَبادَلُوا أَطْرافَ حَديثٍ مُعْتادٍ، وَاسْتَفْسَروا عَنِ الأَعْمالِ وَالأَحْوَالِ بِأَسْـئِلَةٍ تَنْتَهي عــادَةً بِإجابَةٍ واحِدَةٍ: كُلُّ شَـيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ. اسْــتَنْفَدَ ياسِــرٌ مَخْزونَهُ مِنْ ذَلِكَ الحَديثِ المُكَرَّرِ، وَلَمْ يَشَأْ قَطْعَ اطِّرادِ الحَديثِ، كَيْ لَا يَمَلَّ الضَّيْفُ، فَبَدَأَ الكَلامَ عَنِ الحارَةِ:

- نَسْكُنُ فِي الحارَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الحَيِّ، هِيَ نَفْسُها الَّتي تَضُمُّ المَطارَ.

- أَيْ أَنَّنَا فِي حارَتِكُمْ مُنْذُ بِدايَةِ الطَّريقِ؟

- نَعَمْ، وَبَيْتُنا فِي جَنوبِها الشَّرْقِيِّ.

لَاحَ لِلسَّـيارَةِ -الَّتي تَشُــقُّ الطَّريقَ عَمودِيًّا- بَيْتٌ أَزْرَقُ عَلَى يَسارِ الشَّارِعِ، خَطَفَ كِبَرُ حَجْمِهِ بَصَرَ نائِلٍ، فَقَالَ ياسِرٌ تِلْقَائِيًّا:

- هَذَا بَيْتُ سُلْطانِ الجَاسِمِ، كَانَ حَجْمُهُ أَكْبَرَ قَبْلَ ثَلَاثِينَ عَامًا.

تَنَاثَــرَتْ بُيوتٌ زَرْقــاءُ صَغيرَةٌ عَلَــى يَمينِ الشّــارِعِ، بَدَتْ مُشــابِهَةً لِذَلِكَ البَيْتِ الكَبيرِ الَّذِي يُقَابِلُهَا، كَأَنَّهُمْ أُسْرَةٌ واحِدَةٌ بَدَّدَ شَمْلَها الطَّريقُ. اسْــتَمرَّتِ السَّيّارَةُ بالسَّــيْرِ، وَمَرَّتْ بِبَيْتٍ صَغيرٍ مِن الطّوبِ الإسْمَنْتيِّ يَســارَ الشّارِعِ، ظَهَرَتْ فَوْقَهُ أَجْزاءٌ مِــنْ بَيْتٍ كَبيرٍ أَحْمَــرِ اللَّوْنِ، اكْتَمَــلَ ظُهورُهُ بِمُرُورِ السَّــيّارَةِ بالطَّريقِ المُنْحَرِفِ يَمينًا، فَعَلَّقَ ياسِرٌ:

- هَذَا بَيْتُ خالِدِ المَرْزوقِ، مِنْ أَقْدَمِ بُيوتِ الْحَيِّ.

رَدَّ نائِلٌ:

- المَنازِلُ هُنَا مُثيرَةٌ لِلاهْتِمَامِ.

ظَهَــرَ بِجَانِبِ البَيْتِ الأَحْمَرِ بَيْتٌ بِلَــوْنِ البُرْتُقالِ، ثُمَّ تَفَرَّعَ الطَّريــقُ الرَّئيســيُّ أَمَامَهُــمْ إِلَى فَرْعَــيْنِ: فَرْعٍ يُحــاذي البَيْتَ الأَحْمَرَ، والآخَرَ يُحاذي البَيْتَ البُرْتُقاليَّ، اتَّجَهَتِ السَّيّارَةُ إِلَى الفَرْعِ الأَيْمَنِ بِمُحَاذَاةِ البَيْتِ البُرْتُقاليِّ. قَالَ ياسِرٌ:

- أَرْجُــو أَلّا تَكونَ قَدْ مَلِلْتَ طُــولَ الطَّريقِ، فَحَارَتُنَا كَبيرَةٌ، هِيَ الأَكْبَرُ بَيْنَ الْحَارَاتِ السَّــبْعَةِ فِي الحَيِّ، لَكِنَّنَا شــارَفْنا عَلَى الوُصولِ، فَبَيْتُنا خَلْفَ هَذَا البَيْتِ البُرْتُقاليِّ، هُنَالِكَ، يُطِلُّ عَلَى البَحْرِ، رُبَّمَا تَسْتَطيعُ أَنْ تَرَى البَحْرَ مِنْ هُنَا.

- الطَّريقُ جَميلٌ، وَصُحْبَتُكُمْ تَزيدُهُ جَمالًا.

* * *

وَصَلَ الجَمْعُ إلَى المَنْزِلِ، يَتَقَدَّمُهُـمْ يـاسِرٌ، عَبَروا تِباعًا البَابَ الخَشَـبِّي الصَّغيرَ لِلْمَنْزِلِ إلَى سـاحَةٍ تُرابيَّةٍ تُحِيطُ بالْبَيْتِ ذِي الطّابَـقِ الواحِدِ. جَاءَتْ حَميدَةُ خَجِلَةً لِتُسَـلِّمَ عَلَى نائِلٍ، وَتُقَدِّمَ العَشاءَ. وَبَعْدَمَا فَرِغَ ياسِرٌ وَنائِلٌ مِنْ أَطْباقِ الْأَرُزِّ وَرُؤوسِ السَّمَكِ المَقْلـيِّ، تَجَمَّعَ الآخَرُونَ حَوْلَ بَقَايَـا الأَكْلِ يَلْتَهِمُونَها، ثُمَّ أَقْبَلَ شَـادِي وَجَلَـسَ مَعَهُمَا. لَمْ يَبْـذُلْ نائِلٌ جَهْدًا فِي إِثـارَةِ مَوْضوعِ المَبيتِ:

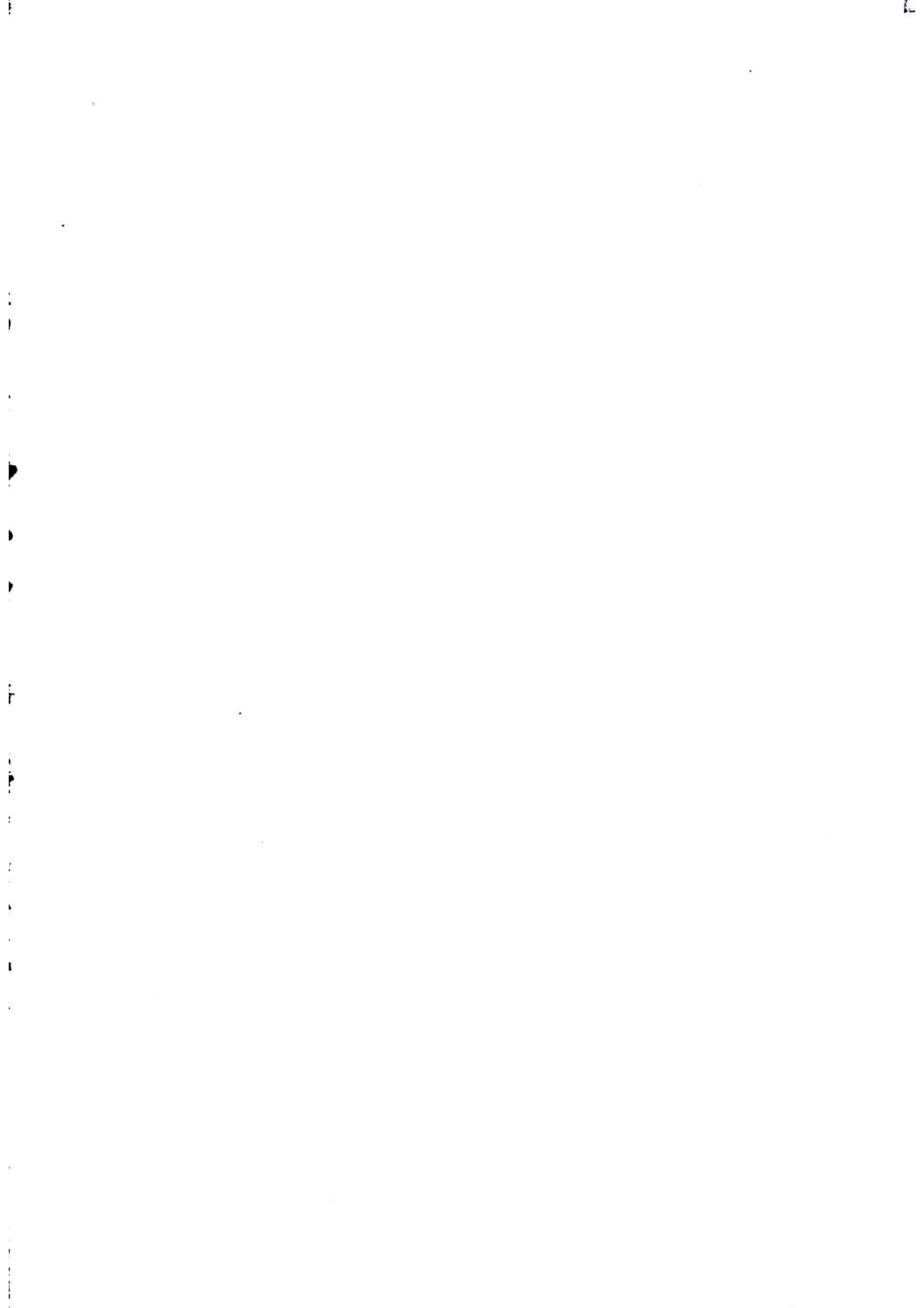
- إنَّكَ تَغْمُرُنِي يَا ياسِـرُ بِدَماثَةِ خُلُقِكَ، وَحُسْـنِ اسْتِقْبالِكَ، لَكِنَّنِي سَأَذْهَبُ غَدًا لإيجَادِ فُنْدُقٍ قَريبٍ، إجازَتِي طَويلَةٌ، وَلَيْسَ مِن المَعْقولِ قَضاؤُهَا كُلِّها هُنَا.

- هَذَا غَيْرُ مَقْبولٍ فِي تَقاليدِنا، إِنَّكَ ضَيْفُنا، وَهَذَا يَسْـتَوْجِبُ إكْرامَكَ.

- مَبيتي فِي الخَارِجِ لَا يَتَنافَى مَعَ إكْرَامِي، إلَّا أَنَّني لَنْ أُضَيِّعَ عَلَيْكَ لَذَّةَ اتِّباعِ التَّقاليدِ، سَأَبيتُ هُنَا اللَّيْلَةَ، وَسَأَزُورُكَ بِاسْتِمْرارٍ لِنَتَجَوَّلَ فِي الحَيِّ مَعًا، وَبِهَذَا تَكونُ قَدْ أَكْرَمْتَني.

دَخَلَ نَائِـلٌ حُجْرَتَـهُ، وَكَتَبَ رِسـالَةً نَصِّيَّةً عَلَـى هَاتِفِهِ:

(حَبِيبَتِي صَافِي، لَقَدْ وَصَلْتُ، كُلُّ شَيْءٍ بِخَيْر، سَأُحَادِثُكِ لَاحِقًا، نامِـــي قَرِيرَةَ العَيْنِ). ثُمَّ أَطَلَّ مِن الشُّـبَّاكِ الَّذِي يَكْشِــفُ البَيْتَ مِن الخَلْفِ، فَرَأَى شَــجَرَةَ مَانجُو وَراءَ بَقَايَا سُــورٍ طينيٍّ قَدِيم، وَالْبَحْــرُ يَتَوَدَّدُ إِلَيْهَا، فَيَتَقَدَّمُ بِمَوْجِهِ تَارَةً، وَيَرْجِعُ تَارَةً، كَأَنَّهُ عاشِقٌ مُبْتَدِئٌ، يَظُنُّ أَنْ هَكَذَا تُبْنَى جُسورُ الهَوَى.



الفَصْلُ السَّادِسُ

الـمِلكيّة: حَقُّ الأقْوى

نَامَ نائِلٌ فِي غُرْفَتِهِ مُضْنًى مِنْ أَثَرِ الرِّحْلَةِ، وَجلَسَ أَفْرادُ البَيْتِ فِي غُرْفَةِ المَعِيشَــةِ يَتَسَامَرُونَ. قَامَ ياسِرٌ يُذْكِي الْوَميضَ البُرْتُقاليَّ لِلْمَدْفَأَةِ بِمَزيدٍ مِن الحطَبِ بَعْدَ أَنْ أَخَذَتْ نَسَماتُ أُكْتُوبَرَ البَارِدَةُ تَتَجَوَّلُ فِي البَيْتِ، وَفَتَحَ الرَّادْيُو، فانْطَلَقَتْ مِنْهُ جُمَلٌ موســيقِيَّةٌ مُنْتَظَمَــةٌ مِن «النَّهَاوَنْدِ»، قَطَعَها سَــرِيعًا قَــرْعُ الْبَابِ، فَنَهَضَ شَادِي لِيَفْتَحَ:

- أَهْلًا يَا سَيِّدي.

- أَيْــنَ أَبوكَ أَيُّهَــا الصَّبيُّ؟ قُلْ لَهُ إِنَّ مَوْعِــدَ دَفْعِ الْإِيجَارِ قَدْ حَانَ.

جَاءَ ياسِرٌ حِينَ سَمِعَ صَوْتَ نَاجِي يَاسِينَ الْمُرَخَّمَ، وَقَالَ:

- أَمْهِلْنِي لِلْغَدِ يَا سَيِّدي.

تَبَرَّمَ نَاجِي رَافِعًا رَأْسَــهُ إِلَى الأَعْلَى، وَعُيونُهُ الزَّرْقاءُ تَفيضُ بِالْغَطْرَسَةِ:

- الغَدِ! وَهَلْ سَتَتَحَمَّلُ تَكاليفَ ذَهَابِي اليَوْمَ، وَعَوْدَتِي غَدًا!

- أَرْجوكَ أَلَّا تُحْرِجَنِي أَمَامَ ضَيْفِي.

- ضَيْفِكَ! وَتَسْــتَقْبِلُ الضُّيوفَ أَيْضًا! حَسَنًا، حَسَنًا، لِحُسْنِ حَظِّكَ أَنِّي أَبِيتُ لَيْلَتِي هُنَا، سَأَنْتَظِرُكَ غَدًا.

مَضَى نَاجِي، وَيَاسِرٌ يَتَجَرَّعُ كَلامَهُ صامِتًا كالْعَادَةِ، فَقَدِ اعْتَقَدَ مُنْــذُ زَمَنٍ أَنَّ النَّاسَ مُوَزَّعُونَ عَلَى طَبَقاتٍ غَيْرِ مُتَسـاوِيَةٍ، كَأَنَّهَا تَوْصِيفاتٌ وَظِيفِيَّةٌ فِي شَـرِكَةٍ هَرَمِيَّةٍ اسْمُهــا الدُّنْيَا، تَتَفاوَتُ فِي مَنْحِ الحُقوقِ لِمُنْتَسِبِيها، وَتَوْزِيعِ الوَاجِبَاتِ عَلَيْهِمْ، وَسَلَّمَ خَاضِعًا أَنَّـــهُ يَقْبَعُ فِي آخِرِ ذَلِكَ التَّصْنِيــفِ، حَيْثُ لا تَعْدُو الحُقوقُ مَأْكَلًا مُتَواضِعًا، بَيْنَمَــا تَكْثُرُ الوَاجِبَاتُ المُحاطَةُ بِالطَّاعَةِ العَمْيَاءَ لِكُلِّ مَنْ يَتَقَدَّمُهُ فِي التَّصْنِيفِ.

* * *

أَطَلَّتْ شَمْسُ يَوْمٍ جَدِيدٍ عَلَى الحَيِّ. اسْتَيْقَظَ نائِلٌ، وَبَدَأَ بِحَزْمِ أَمْتِعَتِــهِ لِمُغــادَرَةِ البَيْتِ، ثُمَّ نَزَلَ مَعَ شَـادِي لِيَبْحَثَـا عَنْ فُنْدُقٍ قَرِيبٍ، وَبَيْنَمَا يَعْبُرَانِ الطُّرُقَ المَلِيئَةَ بِأَشْـجارِ المَوْزِ الشَّاهِقَةِ، إِذْ تَدَاعَى إِلَى مَسْـمَعَيْهِما صَهِيلُ خَيْلٍ، ثُـمَّ ظَهَرَ نَاجِي وَقَدْ امْتَطَى فَرَسًا أَبْيَضَ يُقْبِلُ عَلَيْهِمَا، حَتَّى وَقَفَ أَمَامَهُمَا، وَنَظَرَ نَحْوَ نائِلٍ بِعَنْجَهِيَّةٍ:

- لا بُدَّ أَنَّكَ أَنْتَ الضَّيْفُ.

ثُمَّ أَكْمَلَ -حِينَ لَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ- رَافِعًا رَأْسَهُ إِلَى الأَعْلَى، يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا مُتَكَبِّرًا مِنْ فَوْقِ حِصانِهِ:

- لِمَاذَا لا تَأْتُونَ وَتَأْكُلُونَ عِنْدِي اليَوْمَ؟

قَرَصَ شَادِي ذَقَنَهُ بِيَدِهِ صامِتًا، بَيْنَمَا نَظَرَ نائِلٌ إِلَى نَاجِي الَّذِي ضَمَّ فَمَهُ، لِيُحَافِظَ عَلَى وَجْهِهِ مُحَايِدًا فِي تَعْبِيراتِهِ، فَيَمْنَحَهُ مَنْظَرًا مُخْتالًا. أَرَادَ نائِلٌ إِنْزالَهُ عَنِ الحِصانِ لِيُكَلِّمَهُ بِنِدِّيَّةٍ، فَدارَ حَوْلَ الحِصانِ، ثُمَّ رَبَتَ عَلَى خاصِرَتِهِ، وَهَزَّ رَأْسَهُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ:

- حِصانٌ أَصِيلٌ، وَلَكِنْ مَا هَذَا الجُرْحُ أَسْفَلَ قَدَمِهِ؟

ارْتَعَبَ نَاجِي، وَهَمَّ بِالنُّزُولِ لِيَرَى الجُرْحَ، وَمَا إِنْ وَضَعَ قَدَمَهُ عَلَى الأَرْضِ حَتَّى تَقَدَّمَ نائِلٌ خَطْوَةً نَحْوَهُ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ المَفْتوحَتَيْنِ عَلَى خَاصِرَتِهِ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى الأَعْلَى قَلِيلًا يَنْظُرُ إِلَى نَاجِي مِنْ خَلْفِ ظَهْرِهِ:

- إِنَّهُ لَيْسَ جُرْحًا، يَبْدُو أَنَّهَا بَعْضُ الفَضَلاتِ.

تَجَهَّمَ نَاجِي، وَالْتَفَتَ إِلَى نائِلٍ، فَوَجَدَهُ قَرِيبًا مِنْهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنَ الأَعْلَى، فَرَجَعَ خَطْوَةً لِلْخَلْفِ وَعَيْنَاهُ تَطْرُفانِ. قَالَ نائِلٌ:

- لِمَاذَا لَا تَأْتِي وَتَأْكُلُ عِنْدَنَا اليَوْمَ؟

زَمْجَرَ نَاجِي، وَاصْطَدَمَ بِالْحِصانِ حِينَ هَمَّ بِامْتِطَائِهِ، فَتَحَرَّكَ الحِصانُ قَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يُتِمَّ نَاجِي جُلوسَهُ، مِمَّا جَعَلَهُ يَسْقُطُ عَلَى الأَرْضِ الطِّينيَّةِ بَعْدَ بِضْعِ خُطُواتٍ. التَفَتَ شَادِي نَحْوَهُ، وَعُيونُهُ تَسْأَلُ عَمَّا يَتَوَجَّبُ فِعْلُهُ، فَقَالَ نائِلٌ:

- سَيَنْهَضُ وَحْدَهُ.

- هَذَا أَفْضَلُ، لَا أُحِبُّ هَذَا الرَّجُلَ، وَلَا حَتَّى إِخْوَتَهُ.

- وَمَنْ هَذَا الرَّجُلُ؟

- هَذَا نَاجِي يَاسِينَ، عائِلَتُهُ تَمْلِكُ بَيْتَنا والمَزارِعَ المُجاوِرَةَ.

- وَلِمَاذَا لَا تُحِبُّهُ؟

- إِنَّهُ مُتَكَبِّرٌ وَمَغْرورٌ، كَأَهْلِهِ الَّذِينَ اسْتَوْلَوْا قَدِيمًا عَلَى بَيْتِنا وَالْبُيوتِ المُجاوِرَةِ. رَوَتْ لِي الحاجَّةُ آمِنَةُ سَلامَةَ قِصَصًا شائِنَةً عَنْ آلِ يَاسِينَ.

- وَمَنْ هِيَ الْحاجَّةُ آمِنَةُ؟

- امْرَأَةٌ طاعِنَةٌ فِي السِّنِّ، تَسْكُنُ الحارَةَ الشَّرْقيَّةَ مُنْذُ مَوْلِدِها، وَتَعْرِفُ الْكَثيرَ عَنْ أَهْلِ الحَيِّ.

- أَوَدُّ سَماعَ تِلْكَ القِصَصِ، مَا رَأْيُكَ لَو التَقَيْنا لَيْلًا بَعْدَ أَنْ نَعْثُرَ عَلَى الفُنْدُقِ، وَنَرْتاحَ قَلِيلًا؟

أَعْجِبَ شَادِي بِالاقْتِراحِ، وَأَحَسَّ أَنَّهُ يَوَدُّ قَضاءَ وَقْتٍ أَطْوَلَ مَعَ نائِلٍ، لِما يَشْعُرُ بِهِ مَعَهُ مِنَ الاحْترامِ الَّذي لَمْ يَعْتَدْ عَلَيْهِ، والَّذي يُسَاعِدُهُ عَلَى نَزْعِ نَفْسِهِ مِنْ تِلْكَ الطَّبَقَةِ الَّتي أَلْقَاهُ بِهَا أَبُوهُ، وَلِما لِكَلَامِ نائِلٍ مِنْ تَشابُهٍ مَعَ مَا يَقْرَأُهُ فِي الكُتُبِ، وَلَا يَسْمَعُهُ فِي الواقِعِ، حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ كَلامٌ غَيْرُ مَوْجودٍ فِي الدُّنْيَا الَّتي اعْتادَ الهَرَبَ مِنْهَا.

الفَصْلُ السَّابِعُ

مَنْ قَتَلَ عِمَادًا؟

نَهَضَ نائِلٌ مِنْ غَفْوَتِهِ القَصِيرَةِ مَعَ إقْبالِ اللَّيْلِ، وَأَمْسَكَ الهاتِفَ لِيُحادِثَ صَفيَّةَ، وَلَكِن انْتَهَى الاتِّصالُ دُونَ أَنْ تَرُدَّ:

– تُرَى أيْنَ أنْتِ يا صَفيَّةُ؟

أَغْمَضَ نائِلٌ عَيْنَيْهِ، فانْتَقَلَ إلَى عالَمٍ غَيْرِ حَقيقيٍّ؛ كَمْ يُعَذَّبُ المَرْءُ لَوْلا قُدْرَتُهُ عَلَى صُنْعِ عالَمٍ يَبْتَكِرُ زَمَانَهُ وَمَكانَهُ وَشُخوصَهُ وَأَحْداثَهُ، دُونَ اسْتِئْذانِ أَحَدٍ! وَهَا هِيَ صَفيَّةُ تَخْتَالُ بِكامِلِ رَوْنَقِها، وَتَلْهو ماكِرَةً بِفُسْتانٍ أَبْيَضَ، كَأَنَّهَا مَلاكٌ صَغيرٌ. عادَ نائِلٌ إلَى عالَمِهِ الحَقيقيِّ سَرِيعًا عَلَى صَوْتِ كِلابٍ تَصيحُ قُرْبَ الفُنْدُقِ، وَلَمْ يَتَبَقَّ مِنْ أَطْلالِ خَيالِهِ إلَّا ابْتِسامَتُهُ الصَّافيَةُ، تَحْكِي حُبَّهُ وَاشْتياقَهُ، وَدَيْنَهُ لَهَا بالمَعْرُوفِ؛ لَطالَمَا قالَ لَها: لَوْ تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً غَيْرَكِ، مَا كَانَ هَذَا النَّجاحُ لِيَكُونَ.

قَامَ نائِلٌ لِيُبَدِّلَ مَلابِسَ النَّوْمِ بِثِيابٍ أَكْثَرَ مُلائَمَةٍ لِاسْتِقْبالِ شَادِي. اتَّجَهَ نَحْوَ الحَقائِبِ، الَّتي لَمْ يُخْرِجْ مِنْهَا مَلابِسَهُ بَعْدُ، بَلْ إنَّهُ لَمْ يَنْوِ إخْراجَها، فَلَيْسَ ثَمَّةَ دُولابٌ يَضَعُها فِيهِ، إذْ

بِالْكَادِ عَثَرَ عَلَى غُرْفَةٍ صَغيرَةٍ مِن الطّوبِ الأَحْمَرِ، يَشْغَلُ الحَمّامُ جُـزْءًا مِنْهَا. قَالَ فِي نَفْسِـهِ حِينَهَا: «سَأَسْـتَخْدِمُهَا حَتَّى أَجِدَ غُرْفَةً أُخْرَى». تَأَخَّرَ شَـادِي، فَاسْـتَلْقَى نائِلٌ والْقَمَرُ يُطِلُّ عَلَيْهِ مِن الشُّـبّاكِ الكَبيرِ شـاحِبًا، وَقَدْ أَحَاطَتْهُ سَماءٌ سَـوْداءُ تَمامًا، الْتَهَمَتْ غُيُومُها نُجومَها، فَتَلاشَـت كَأَنَّهَـا لَمْ تُقِمْ فِيهَا يَوْمًا. قَطَعَتْ تَأَمُّلاتِهِ طَرْقاتُ شَـادِي الخَجولَةُ عَلَى الْبَابِ، فَاسْـتَقْبَلَهُ مُرَحِّبًا، وَتَوَجَّهَ إلَى زاوِيَةِ الغُرْفَةِ لِيُعِدَّ الشّـايَ، حَيْثُ السَّخّانُ ذُو العَـيْنِ الواحِدَةِ، الَّذِي قَدْ أَلِفَ الإقامَـةَ عَلَى طاولَةٍ صَغيرَةٍ، يَتَنَفَّسُ مِنْ خُرْطومٍ رَثٍّ مُنْتَنٍ بِأُسْـطوانَةِ الْغازِ. احْتَسَى الرّفيقانِ الشّايَ، وَوَجَّهَ نائِلٌ حَديثَهُ مُباشَرَةً نَحْوَ آلِ يَاسِينَ مُسْتَفْهِمًا:

– مَا حِكايَةُ آلِ يَاسِينَ؟ كَيْفَ اسْتَوْلَوْا عَلَى بَيْتِكُمْ؟

– إنَّهُمْ لُصوصٌ، وَتُجّارُ مُخَدِّرَاتٍ وَبَشَرٍ.

دَأَبَ شَـادِي مُنْذُ الصِّبا عَلَى سَمـاعِ الحِكاياتِ عَنْ أَهْلِ الحَيِّ مِن الحاجّةِ آمِنَةَ، الَّتي لَمْ تَعْتَدْ رِوايَةَ القِصَصِ قَبْلَ خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًـا، وَلَكِنَّها أَصْبَحَتْ مَصْـدَرًا مَوْثُوقًا لِدِقَّـةِ رِوايَتِها، وَتَقَدُّمِ سِنِّها، الَّذِي أَتَاحَ لَهَا الْمَزِيدَ مِن الاطِّلاعِ عَلَى مَاضِي الحَيِّ. وَلَطالَمَا كَانَ آلُ يَاسِـينَ مَوْضُوعًا خِصْبًـا لِحِكاياتِها، لِتَشَـعُّبِ أَيادِيهِمْ خُفْيَـةً فِي الحَيِّ كَمَا يَتَشَـعَّبُ جِذْرُ الشَّـجَرَةِ تَحْتَ التُّرابِ دُونَ

مَـرْأًى مِنْ أَحَدٍ، وَلِقِـدَمِ صِراعاتِهِمْ مَعَ أَبْناءِ الحارَةِ الشَّـرْقيَّةِ.
قَبْـلَ مِائَةٍ وَثَمانِـينَ عامًا، جاءَ رَجُلٌ مِنْ آلِ يَاسِـينَ إلى الحارَةِ الشَّـرْقيَّةِ في تجارَةٍ، كَانَ يَجْلِبُ البورْسِـلينَ مِنْ بَيْتِهِ في الْحارَةِ الشَّـماليَّةِ لِيَبيعَـهُ، وَقَبْلَ أَنْ يُغادِرَ أَعْطى رَجُـلًا مِنْ آلِ مَرْزُوقٍ أَفْيونًـا لِيُجَرِّبَهُ. تَكَرَّرَتْ زِيَارَاتُ التّاجِـرِ إلى الحَيِّ حَتَّى أَدْمَنَ عَلَى إثْرِهَا أَبْناءُ مَرْزُوقٍ كُلُّهُم الأَفْيونَ، وَدَفَعوا في سَـبيلِ شِراءِهِ أَثْمانًا باهِظَةً. وَبِمُرُورِ الأَيّامِ؛ تَفَشَّتِ الأَمْرَاضُ، وخَمَلَ الرِّجالُ، وَازْدَادَ النَّوْمُ وَالكَسَـلُ، وَقَلَّ الإنْجازُ وَالْعَمَلُ، مِمَّا دَعَا شَـيْخَ آلِ مَرْزُوقٍ أَنْ يَمْنَعَ دُخُـولَ الأَفْيونِ إلى البَيْتِ. اضْطَرَبَتْ مَصالحُ آلِ يَاسِينَ، وَقَرَّرُوا إنْقَاذَهَا بِأَيَّةِ طَرِيقَةٍ كَانَتْ، فَتَهَجَّموا عَلَى بَيْتِ المَرْزوقِ، وَحَطَّمُوا مُحْتَوَيَاتِهِ، وَاسْـتَمَرُّوا بِبَيْـعِ الأَفْيونِ لِأَهْلِهِ المُدْمِنِينَ رَغْمًا عَنْ شَيْخِهِمْ.

وَبَعْدَ عِشْرِينَ عَامًا مِنْ تِلْكَ التِّجارَةِ القَسْرِيَّةِ، أَفَاقَ الحَيُّ عَلَى أَبْناءِ يَاسِـينَ وَأَصْدِقائِهِمْ مِنْ أَبْناءِ غَرِيبٍ وَقَد اسْتَوْلَوْا عَلَى بَيْتِ وَمَزارِعِ الحاجِّ زَيْدٍ بِالْكَامِلِ تَسْهيلًا لِنَقْلِ الأَفْيونِ إلى آلِ المَرْزوقِ، حَيْثُ إنَّ البَيْتَيْنِ مُتَجَاوِرَانِ، وَمَا لَبِثُوا أَنْ أَعْجَبَهُم المُقامُ، فَقَرَّرُوا البَقاءَ، وَسَـيْطَرُوا عَلَى مَعامِلِ القُطْنِ وَالمَنْسُـوجَاتِ الخاصَّةِ بِآلِ زَيْـدٍ، وَنَقَلُوهَـا إلى مِلْكِيَّتِهِمْ؛ حَتَّى أَمْسَـى أَصْحابُها الأَصْلِيُّونَ

عُمَّالًا لَدَيْهِمْ. وَلَمْ يَتْرُكْ آلُ يَاسِين البَيْتَ إِلَّا بَعْدَ تِسْعِينَ عَامًا، وَقَدْ قَسَّمُوهُ إِلَى أَرْبَعَةٍ، أَحَدُهُم البَيْتُ الَّذِي يَعيشُ فِيهِ ياسِرٌ.

أَغْمَضَ نائِلٌ عَيْنَيْهِ مُسْتَنْكِرًا على الرَّغْمِ من أَنَّ القِصَصَ الشَّائِنَةَ لَمْ تَعُدْ تُثيرُ اسْتِغْرابَهُ، فَقَدْ عَلِمَ أَنَّ هَذَا العالَمَ مَكانٌ قَذِرٌ، وَأَنَّ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ ظَلّامَةٌ جَهولَةٌ، وَلَكِنَّ القَاضِيَ فِي نَفْسِهِ مَا زَالَ يُنَاشِدُ العَدْلَ، وَيَرْفُضُ تَطْبيعَ الوَحْشيَّةِ. فالْعالَمُ لَنْ يُصْبِحَ مَكانًا مِثالِيًّا، لَكِنَّهُ سَيَزْدادُ قَذارَةً إِذَا سَكَتَ النّاسُ عَن الظُّلْمِ.

فَتَحَ نائِلٌ عَيْنَيْهِ عَلَى شَادِي -الَّذِي كَانَ يَجْهَشُ بِالْبُكَاءِ- قَائِلًا:

- أُريدُ أَنْ أَرَى الحاجّةَ آمِنَةَ.

- حَسَنًا، لَكِنَّ أَبِي حَذَّرَنِي مِن الذَّهَابِ إِلَى تِلْكَ المِنْطَقَةِ فِي اللَّيْلِ؛ لِأَنَّ المُشاجَراتِ فِيهَا كَثيرَةٌ.

- نَعَمْ، لَا شَكَّ أَنَّ الوَقْتَ قَدْ تَأَخَّرَ، لِنَذْهَبْ غَدًا.

غَفَا نائِلٌ، وَلَمْ يَنْجَحْ ذَلِكَ الصَّوْتُ الَّذِي انْطَلَقَ مِنْ هَاتِفِهِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ فِي إيقاظِهِ.

* * *

تَوَجَّهَ شَادِي نَحْوَ البَيْتِ مُتَثاقِلًا، مُطَأْطِئَ الرَّأْسِ، يَسْحَبُ قَدَمَيْهِ مِن الخَلْفِ وَيَرْميهِما إِلَى الأَمَامِ، كَأَنَّهُ يُقْنِعُهُمَا بِالْحَرَكَةِ

فَتَسْتَعْصِيَان. مَرَّ عَلَى ذَلِكَ البَيْتِ البُرْتُقاليِّ الكَبير، بَيْتِ تَحْسين زَيْـدٍ، كَانَ بَيْتُــهُ في المَاضِــي البَعيدِ جُزْءًا مِنْ هَــذَا البَيْتِ، لَكِنَّ الأَحْوَالَ تَتَغَيَّرُ، والزَّمانُ يُفرِّقُ وَيُجَمِّعُ، وَالدَّهْرُ يُهْدِرُ البُنْيانَ، فَلَا يُبْقي شَيْئًا كَمَا كَانَ. وَفي نَوْبَةِ حُزْنِهِ جَلَبَتْ أَجْنِحَةُ الرِّيح إلَى مَسامِعِهِ إيقَاعَاتِ عُودٍ ساحِرَةً، رَفَعَ رَأْسَهُ، لِيَرَى نُورًا خافِتًا في إحْدَى غُرَفِ البَيْتِ، وَطَيْفًا يَتَمايَلُ هَادِئًا، وَشَيْئًا فَشَيْئًا؛ تَسارَعَ الْإيقَاعُ، وَتَحَوَّلَ «النُّوار»[1] إلَى «كوَادريبل كروش»[2]، وَالطَّيْفُ يَهْتَزُّ وَيَدُورُ، وَشــادي مُتَسَــمِّرٌ بِالْكَامِلِ عَــدَا عَيْنَيهِ، اللَّتَيْنِ لَمْ تَتَوَقَّفَا عَن الحَرَكَةِ، إلَّا بَعْــدَ أَن اخْتَفَى الطَّيْفُ، وَانْطَفَأَ النّورُ، فَدَخَلَ شَادِي بَيْتَهُ، وَنَامَ.

* * *

اسْــتَيْقَظَ شَادِي ظُهْرَ اليَوْمِ التَّالِي فَزِعًا مِنْ صَوْتِ حَميدَةَ الَّتي كَانَــتْ تَلْعَنُ بائِعَ اللَّبَنِ لِتَأَخُّرِهِ، عَلَى الرَّغْــمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ في مَوْعِدِهِ يَوْمًا. نَهَضَ شَادِي مُسْرِعًا، ثُمَّ خَرَجَ مِن البَيْتِ وَهُوَ يَلْتَهِمُ شَــطِيرَةً صَغيرَةً مِن الجُبْنِ، دُونَ أَنْ يُعْطــيَ فُرْصَةً لِحَميدَةَ لِتَرُدَّ

---

(١) النُّوار هوَ وَحْدَةٌ زَمَنيَّةٌ لِتَحْدِيدِ مُدَّةِ النَّغْمَةِ الْموسيقيَّةِ.

(٢) هوَ أداءُ النَّغْمَةِ الْـمُوسيقيَّةِ الواحِدَةِ في زَمَنِ ١٦/١ مِن النُّوار.

عَلَيْهِ سَــلامَهُ الصَّبَاحِيَّ، وَوَصَلَ الفُنْــدُقَ حَيْثُ يُقيمُ نائِلُ، الَّذِي كَانَ مُتَأَهِّبًا لِزِيَارَةِ الحاجّةِ آمِنَةَ:

- مَرْحَبًا بِكَ يَا شَادِي.

- أَهْلًا يَا سَــيِّدي، أَعْتَذِرُ عَن التَّأْخير، لَكِــن لَا تَقْلَقْ فَبَيْتُ الحاجّةِ آمِنَةَ قريبٌ، هُنَا في الحارَةِ الشَّرْقيَّةِ أَيْضًا.

- حَسَــنًا، وَلَكِنْ أَلَنْ تَكُفَّ عَنْ مَنَادَاتِي «سَيِّدي»؟ إِذَا لَمْ تَشَأْ أَنْ تَقولَ «صَدِيقِي»، فَقُلْ «نائِلُ».

تَدَفَّقَــتِ الدِّماءُ في خَدَّيْ شَــادِي، وَهَزَّ رَأْسَــهُ بِالْمُوافَقَةِ وَهُوَ يَبْتَسِمُ. انْطَلَقَ الرَّفيقانِ شمالًا، نَحْوَ بدايَةِ الطَّريقِ الَّتي عَبَرُوهَا حِينَ جَاؤُوا مِن المَطارِ، ثُمَّ اتَّجَهَا يَسَــارًا عَبْرَ عِدَّةِ بُيوتٍ بائِسَــةٍ إِلَى أَنْ وَصَلا بَيْتًا تَتَقَدَّمُهُ شَجَرَةُ أَرْزٍ، فَصَاحَ شَادِي حِينَ تَغَلْغَلَتْ رائِحَةُ الهَوَاءِ المُعَبَّقِ بِبَخورِ «الكلْمنْتان» إِلَى أَنْفِهِ:

- حَمْدًا للهِ، إِنَّهَا بِالْبَيْتِ الآنَ.

لَمْ يَنْتَظِــرَا طَوِيلًا أَمَامَ الْبَــابِ حَتَّى أَقْبَلَتِ امْــرَأَةٌ ثَمَانِينِيَّةٌ تَتَوَشَّحُ ثَوْبًا أَسْــوَدَ يُغَطِّي رَأْسَها وَبَدَنَها، وَرَحَّبَتْ بِهِمَا بِصَوْتٍ دَافِئٍ، فَقَدَّمَ شَادِي نَفْسَهُ:

- هَذَا أَنَا، شَادِي ياسِر زَيْدٍ، وَمَعِي ضَيْفٌ.

- أَهْلًا بِالضُّيوفِ، تَفَضَّلُوا.

دَخَلَ الثَّلاثَةُ غُرْفَةً مُخَصَّصَةً لِلضُّيُوفِ، وَجَلَبَتِ الحاجّةُ تَمْرًا وَقَهْوَةً:

- كَيْفَ حالُكَ يَا شَادِي؟ وَكَيْفَ أُمُّكَ وَأَبُوكَ؟

- بِأَفْضَلِ حَالٍ.

غَابَ عَنْ ذِهْنِ شَادِي أَنْ يُقَدِّمَ نائِلًا لِلْحَاجّةِ آمِنَةَ، فَاسْتَدْرَكَ نائِلٌ مَا غَابَ عَنْهُ:

- أَنَا نائِلُ اليَمانيِّ، جِئْنَاكِ دُونَ مَوْعِدٍ مُسْبَقٍ، نَتَعَلَّلُ بِأَنَّ الكِرامَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْمَوَاعِيدِ.

- مَرْحَبًا بِكَ يَا بُنَيّ.

التَقَطَتْ عَيْنُ شَادِي - أَثْنَاءَ تَناوُلِهِ بَعْضَ التَّمْرِ - صورَةً مُعَلَّقَةً عَلَى الحائِطِ، إطارُها أَبْيَضُ اللَّوْنِ، وَفِيهَا رَجُلٌ يَرْتَدِي نَظَّارَةً مُسْتَديرَةً، وَذُو لِحْيَةٍ كَثيفَةٍ، تَخْتَلِطُ خُيوطُها السَّوْداءُ بِالْبَيْضاءِ:

- رَحِمَهُ اللهُ.

هَزَّتِ الحاجّةُ آمِنَةَ رَأْسَها تُؤَكِّدُ عَلَى كَلامِ شَادِي:

- فَلْيَرْحَمْهُ اللهُ، وَيَنْتَقِمْ مِنْ قاتِليهِ.

فِي المَاضِي البَعيدِ، افْتَرَشَ المُتَسَوِّلُونَ طُرُقاتِ الحَيِّ وَأَزِقَّتِهِ، كَانُوا قِلَّةً، لَكِنْ بِمَا يَكْفِي لِيُثيرَ الشُّعورَ الْعَامَّ بِالِاشْمِئْزَازِ. وَكَمَا

يَفْعَلُ الأَقَلِّيَّاتُ؛ قَرَّرُوا إنْشاءَ جَمْعيَّةٍ تُعْنَى بِشُؤونِهِمْ، وَتَتَبَنَّى قَضاياهُم، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يَشْتَركُوا بِعِرْقٍ أَوْ لَوْنٍ، بَلْ لَمْ يَجْمَعْهُمْ شَيْءٌ سِوَى رائِحَةِ الفَضَلاتِ والْعَرَقِ، وَنُفورِ النّاسِ مِنْهُمْ. قَامَتْ سِياسَةُ الجَمْعيَّةِ عَلَى اسْتِخْدامِ خِبْرَةِ أَفْرادِها الطَّويلَةِ في النَّحيبِ لابْتِداعِ بُؤْسٍ يُحيطُهُمْ مِنْ لا شَيْءَ، فَمَا إنْ يُصْفَعَ مُتَسَوِّلٌ مِنْهُمْ حَتَّى تَضِجَّ صُحُفٌ بِاسْتِفْحالِ الظُّلْمِ في الحَيِّ، وَتَعْلُوَ أَصْواتٌ في المُؤْتَمَراتِ لِتوصيَ بِتَجَمُّعِ المُتَسَوِّلينَ في بَيْتٍ يَأْويهِم، لِيَسْتَطيعوا حِمايَةَ أَنْفُسِهِمْ، إلَى أَنْ ضاقَ شُيوخُ الحَيِّ بِهِمْ ذَرْعًا، فَوَعَدَهُمْ شَيْخُ آلِ يَاسِينَ قَبْلَ مِائَةِ عامٍ بِمَنْزِلٍ بِعَيْنِهِ في الحارَةِ الشَّرْقيَّةِ، وَلَكِنَّهُ تَمَهَّلَ في تَنْفيذِ وَعْدِهِ، يَبْحَثُ عَنْ حُجَّةٍ مُناسِبَةٍ لِيُخاطِبَ بِهَا الحَيَّ عِنْدَ طَرْدِ أَهْلِ ذَلِكَ البَيْتِ العَامِرِ. وَبِمُرُورِ السَّنَوَاتِ، ازْدادَتْ ضُغوطُ الجَمْعِيَّةِ عَلَى آلِ يَاسِينَ لِتَنْفيذِ وَعْدِهِمْ، فَالْمُتَسَوِّلُ يَتَعَلَّمُ النَّحيبَ وَلَكِنْ لا يَتَعَلَّمُ الصَّبْرَ. أَصْبَحَتِ الجَمْعِيَّةُ نَفْسُها تُرْسِلُ مَنْ يُؤْذِي المُتَسَوِّلينَ، وَمَنْ يَنْشُرُ الخَبَرَ أَيْضًا، لِتَحْصُلَ عَلَى تَعاطُفِ أَهْلِ الحَيِّ، وَلِتُقْنِعَ المُتَسَوِّلينَ أَلّا شَيْءَ سَيُخَلِّصُهُمْ مِنْ مُعاناتِهِمْ المَزْعومَةِ سِوَى بَيْتٍ مُشْتَرَكٍ يَتَجَمَّعُونَ فِيهِ، وَلَكِنْ تَبَقَّتِ الحُجَّةُ الَّتي سَيُمْلونَها عَلَى أَوْغادِ الحَيِّ لِيَصبُّوها في آذانِ بُسَطائِهِ، فادَّعَوْا أَنَّهُمْ مِنْ

سُلالَةِ واحدَةٍ امْتلكت البيْتَ في زمان غابر. وَأذاعُوا تلْكَ الحُجَّةَ في الحيِّ، فاحْتلَّ آلُ ياسين البيْتَ قبْلَ سَبْعِينَ عامًا، وَطرَدُوا أهْلَهُ، وَجلبُوا المُتَسوِّلين إليْه، وأهْلُهُ -الَّذين لجأوا إلى البُيوت المُجاورة- لمْ ينْسوْا حُقوقَهُمْ، فما زالُوا إلى الآن يُردِّدُون بأنَّهُمْ «عائدُونَ»، لكنَّهم اخْتلفوا على كيْفيَّة تلْك العوْدة، فمنْهُمْ منْ يُقاتِلُ، ومنْهُمْ منْ يُهادنْ. وقدْ أقْلقتْ قضيَّتهُمْ بعْض الجيرانِ - خُصوصًا في ظلِّ تنامي أطْماع المُتَسوِّلين بالبُيوتِ المُجاورة - وَمِنْهُمْ عِمادٌ، الَّذي اخْتارَ القتال، فقتلَ المِئات حتَّى اغْتيل قَبْلَ خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا. تَجرَّأ كَثِيرُون عَلى الشَّماتَة بمَوْته، وَلكِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى قَدْرٍ كَافٍ مِن الجُرْأَةِ لِيُعْلِنَ مَسْؤوليَّتَهُ عَنْ قَتْلِه.

عَلا شَأْنُ المُتَسوِّلينَ خِلالَ هَذِهِ الأَعْوَام السَّبْعِينَ، وَكَوَّنُوا صَدَاقَاتٍ كَثيرَةً في الحَيِّ، إِذْ أَصْبَحُوا أَصْدِقاءَ مُقَرَّبِينَ لآلِ غريب، وَآلِ الرَّيَّانِ الَّذِينَ تَعاظَمَ شَأْنُهُمْ في الحَيِّ مُؤَخَّرًا، فَأَصْبَحُوا المُتَبَنِّيَ الأَوَّلَ لِبَيْتِ المُتَسوِّلينَ، والدَّاعِمَ الأَهَمَّ لَهُمْ بَعْدَ تَراجُعِ قُوَّةِ أَبْناءِ يَاسِينَ.

لَمْ يُصْدَمْ نائِلٌ مِمَّا سَمِعَهُ، فَقَدْ تَبحَّرَ في طَبائِعِ الْبَشَرِ، وَأَدْرَكَ عَكَرَها، أَمَّا شَادِي الَّذِي مَا زَالَ يَظُنُّ أَنَّ العالَمَ جَميلٌ وَرَحْبٌ،

وَأَنَّ الشَّرَّ عَرَضيٌّ وَزائِلٌ، فَسَأَلَ مُتَنَهِّدًا:

- لِمَاذَا يُساعِدُ آلُ الرَّيّانِ المُتَسَوِّلينَ؟

أَجَابَتِ الحاجّةُ آمِنَةُ:

- يَسْتَخْدِمُونَهُمْ لِلْعَبَثِ فِي أَجْزاءٍ مِنْ الحارَّةِ الشَّرقيَّةِ، في مُقابِلِ الحِمايَةِ والدَّعْمِ.

وَتَنَهَّدَتْ، ثُمَّ أَكْمَلَتْ:

- وَلَكِنْ لَيْسَ دَعْمُ آلِ الرَّيّانِ لَهُمْ هوَ الَّذي أَخْشاهُ.

رَدَّ نائِلٌ:

- وَمَاذَا تَخْشَيْنَ؟

- أَخْشَى أَنْ يَعْتادَ أَصْحابُ الحَقِّ عَلَى وُجودِهِمْ بَيْنَهُمْ، حَتَّى يُصْبِحَ طَبِيعِيًّا، فَيَسْتَحِيلَ طَرْدُهُمْ عُدْوَانًا عَلَيْهِمْ.

شَرِبَ نائِلٌ بَعْضَ القَهْوَةِ، ثُمَّ قالَ:

- عَلاقاتُ المَجْموعاتِ تَقومُ أَسَاسًا عَلَى الصِّراعِ، وَلَيْسَ عَلَى التَّكامُلِ، حَتَّى فِي الأَوْقَاتِ الَّتي تَتَطَلَّبُ تَغْليبَ المَصْلَحَةِ المُشْتَركَةِ، يَبْقَى هُنَاكَ أَطْرافٌ أَقْوَى وَأَطْرافٌ أَضْعَفُ، وَالْقَوِيُّ يَبْحَثُ عَنْ حُلَفاءَ يَزِيدُونَ أَمَدَ سَطْوَتِهِ مُقابِلَ حِمايَتِهِمْ وَدَعْمِ قَضاياهُم، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ آلُ الرَّيّانِ -وَقَبْلَهُمْ آلُ ياسِينَ- مَعَ المُتَسَوِّلينَ.

رَدَّ شَادِي مُسْتَغْرِبًا:

- وَلَكِنَّ آلَ الرَّيَّانِ يَقُولُونَ إِنَّ لَهُمْ دَوافِعَ إِنْسانِيَّةً لِمُساعَدَةِ المُتَسَوِّلِينَ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَ أَبْنَائِهِمْ قالَ: «عَوْدَةُ آلِ يَعْقوبَ هِيَ أَعْظَمُ حَدَثٍ في تَارِيخِ الحَيِّ.»

رَدَّ نائِلٌ:

- تَغْلِيفُ الخِطابِ بِعِباراتٍ إِنْسانِيَّةٍ مُنَمَّقَةٍ ضَروريٌّ لِاسْتِقْطابِ فِئَةٍ كَبيرَةٍ مِنْ النّاسِ، فَرِضَى النّاسِ - حَتَّى لَوْ كَانُوا قَلِيلِي التَّأْثِيرِ - مُهِمٌّ في تَسْريعِ العَمَلِ عَلَى الأَهْدافِ.

شُدِهَ شَادِي لِما يَسْمَعُ مِنْ عِباراتٍ جَدِيدَةٍ عَلَيْهِ، لَمْ تُسْعِفْهُ أَعْوَامُهُ الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ عَلَى فَهْمِها، وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ يَنْظُرُ إِلى النّاسِ بِمَفْهومٍ آخَرَ: الصِّراعِ.

الفَصْلُ الثَّامِنُ

بُيوتٌ مَنْكوبَةٌ

غادَرَ نائِلٌ وَشادي بَيْتَ آمِنَةَ مُمْتَنَّيْن لِكَرَمِ الضِّيافَةِ، وَلَكِنْ سَاخِطَيْنِ عَلَى وَضْعِ الحَيِّ، فَاتَّجَهَا شَرْقًا عائِدَيْنِ إلى مَسْكَنَيْهِما. وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ عَلى مُغادَرَتِهِمَا حَتَّى تَسَارَعَتْ ضَرَباتُ قَلْبَيْهِما، وَاضْطَرَبَتْ رِئَاتُهُمْ تَبْذُلُ مَجْهُودًا أَكْبَرَ لِتَمْتَلِئَ بِالأُكْسُجِينِ، وَبَدَأَتْ سُحُبٌ مِن الدُّخانِ تَنْتَشِرُ في الأَنْحاءِ، فَابْتَعَدَا سَريعًا عَنِ المَكانِ، وَنَظَرا إلَيْهِ مِنْ بَعيدٍ، لِيَسْتَطْلِعَا مَصْدَرَ الدُّخانِ، حَتَّى عَرَفَاهُ بِالتَّحْدِيدِ، إِذْ يَنْبَعِثُ مِنْ بَيْتٍ كَبيرٍ شَرْقَ بَيْتِ الحاجّةِ آمِنَةَ، كَانَا قَدْ مَرَّا بِهِ عِنْدَ مَجيئِهِمَا، دُونَ أَنْ يَنْتَبِهَا لَهُ، لِشَغَفِهِمَا بِلقاءِ الحاجّةِ آمِنَةَ، وَرُبَّ شَغَفٍ يُعَطِّلُ الحَوَاسَّ، فَيَفْصِلُ الإِنْسانَ عَنْ مُحيطِهِ. اسْتَعْجَلَ شَادِي نائِلًا:

- عَلَيْنا أَنْ نُسْرِعَ، يَبْدُو أَنَّ هُنَاكَ مُشاجَرَةً قائِمَةً.

أَسْرَعَ نائِلٌ خُطَاهُ يَنْظُرُ إلى البَيْتِ الَّذي دُمِّرَتْ أَجْزاؤُهُ الشَّرْقيَّةُ، وَتَبايَنَتْ أَلْوانُ مَا تَبَقَّى مِنْ غُرَفِهِ؛ حَمْراءُ، وَخَضْراءُ، وَسَوْداءُ، وَبَيْضاءُ، وَأَلْوانٌ كَثيرَةٌ غَيْرُ مُتَناسِقَةٍ، كَأَنَّ كُلَّ غُرْفَةٍ

مِنْهَا لِبَيْتٍ. لَمَحَ سَيّارَتَيْنِ ناحيَةَ غَرْبِ البَيْتِ تَتَحَرَّكَانِ فِي مِساحاتٍ صَغيرَةٍ لا تَخْرُجانِ عَنْهَا، فَأَشَارَ لِشادي مُتَسَائِلًا عَنْ أَمْرِ البَيْتِ وَالسَّيَّارَتَيْنِ، فَدَقَّقَ شَادِي، ثُمَّ أَجابَ وَيَدُهُ تَقْرُصَ عَلَى ذَقْنِهِ:

– هَذَا بَيْتُ آلِ نَجيبٍ، وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ فِي السَّيّارَةِ الشَّماليَّةِ هُمْ أَبْناءُ الرَّيّانِ وَأَبْناءُ يَاسِين وَأَبْناءُ غريبٍ، وَفِي السَّيّارَةِ الجَنوبيَّةِ أَبْناءُ الجَاسِمِ.

– مَاذَا يَفْعَلُونَ هُنَا؟ وَمَا الَّذِي جَمَعَ أَبْناءَ الرَّيّانِ وَيَاسِينَ وَغَرِيبٍ مَعًا؟

فِي يَوْمٍ رَبيعيٍّ مَرَّ عَلَيْهِ ثَماني سَنَوَاتٍ، أَبْدَى أَبْناءُ نَجيبٍ لِشَيْخِهِم اسْتِياءَهُمْ مِنْ بَعْضِ الأُمورِ داخِلَ البَيْتِ، وَلَمْ يُثْمِرْ نِقاشُهُمْ إِلَّا عَداءً، اسْتَحَالَ مواجَهَةً مُباشِرَةً بَيْنَ الأَبْناءِ، فَتَدَخَّلَ بَيْنَهُمْ شُيوخُ الحَيِّ، مَا بَيْنَ طامِعٍ فِي البَيْتِ وَطامِحٍ فِي الإِصْلاحِ، وَمِنْهُمْ آلُ الرَّيّانِ، الَّذِينَ أَبْدَوْا تَعاطُفَهُمْ مَعَ مَطالِبِ أَهْلِ البَيْتِ، لِمَا يُقَدِّمونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ رُعاةُ الحُقوقِ فِي الحَيِّ، ثُمَّ اسْتَخْدَمُوا قُوَّتَهُمْ وَسَطْوَتَهُمْ، وَأَوْشَكوا أَنْ يَحْجُروا عَلَى الشَّيْخِ، وَأَنْ يُسَلِّموا إِدارَةَ البَيْتِ لِغَيْرِهِ مِن الأَبْناءِ، فاسْتَنْصَروا حُلَفاءَهُمْ القُدَماءَ مِنْ آلِ يَاسِينَ وَآلِ غريبٍ لِتَنْفيذِ قَرارِهِمْ، حَتَّى تَدَخَّلَ

آلُ الجَاسِمِ، وَهُمْ أَصْدِقاءُ مُقَرَّبُونَ لِلشَّيْخِ، وَكَانَ تَدخُّلُهُمْ مُؤَثِّرًا، لِأَنَّهُمْ أَقْوِيَاءُ وَأَصْحابُ نُفوذٍ، يُنَازِعُونَ آلَ الرَّيَّانِ نِدًّا بِنْدٍ، فَوَقَفُوا ضِدَّ قَرارِهِمْ، حَتَّى تَقَسَّمَ البَيْتُ بَيْنَ أَهْلِهِ وَشُيوخِ الحَيِّ.

غادَرَ الرَّفيقانِ المَكانَ، وَقَالَ نائِلٌ مُتَلَفِّتًا:

– حَيٌّ مِسْكينٌ، يُقَسَّمُ فِي صِراعِ النُّفوذِ وَالقُوَّةِ.

* * *

حَلَّ الأَصيلُ، وَلَمْ يَتَبَقَّ مِن الشَّمسِ إِلَّا شُعاعٌ خافِتٌ يُعْلِنُ رَحيلَهَا، وَتَعَالَتِ الغُيومُ فِي السَّماءِ قِطَعًا سَوْداءَ، وَلَمْ يَمْضِ الكَثيرُ مِن الوَقْتِ حَتَّى جَادَتِ السَّماءُ بِمائِها، فَعَجَّلَ نائِلٌ وَشادي بِالعَوْدَةِ يَحُثَّانِ خُطاهُما شَرْقًا، وَلَمْ يَخْطُرْ بِبالِهِمَا أَنَّ شَيْئًا سَيَسْتَوْقِفُ جَسَدَيْهِمَا المُنْهَكَيْنِ، حَتَّى مَرَّا بِبَيْتِ آلِ سومَرَ، بَيْتٍ عَتيقٍ كَأَنَّهُ وُلِدَ والتّاريخَ تَوْأَمَيْنِ، وَقَد امْتَلأَتْ جُدْرانُهُ مُزْدانَةً بِبَقايا رُسومٍ أَخّاذَةٍ، لَوْ كانَتْ تُجيدُ النُّطْقَ لَقالَتْ: «هُنا بَدَأَ الفَنُّ فِي الحَيِّ»، عَلَى أَنَّها كانَتْ أَكْثَرَ إِشْراقًا قَبْلَ سِتَّةَ عَشَرَ عَامًا، فَتَصارَعَ الشَّغَفُ والتَّعَبُ فِي نَفْسَيْ نائِلٍ وَشادي، هَلْ يَجْلِسانِ وَيَسْتَمْتِعانِ بِحُسْنِ اتِّساقِ المُنْحَنَياتِ عَلَى جُدْرانِ المَبْنَى؟ أَمْ يُلَبِّيانِ نِداءاتِ عَضَلاتِهِم المُرْتَخِيَةِ؟ لَمْ يُمْهِلْهُمَا ذَلِكَ اللَّيْلُ القادِمُ فُرْصَةً لِلتَّفْكيرِ، فَهُوَ ذُو طَبْعٍ يُساوي

الجَميلَ بِالْقَبيحِ حِينَ يُغَشِّـيهِما مَعًا تَحْتَ غِطاءٍ واحِدٍ، حَتَّى لَا يَعودَ الرّائي قَادِرًا عَلَى التَّمْييزِ بَيْنَهُمَا، فَرَحَلَا آسِفَيْنِ يُواسيهما أَمَلٌ بِعَوْدَةٍ أُخْرَى ذَاتَ يَوْمٍ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ غَيْرَ مُنْصِفٍ، إِلَّا أَنَّهُ طَيِّـعُ الرَّحيلِ، وَلَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَتَلَاشَـى، حَتَّى يَأْخُذَ الجَمالُ حَقَّهُ كَامِلًا فِي نَهارٍ مَا.

* * *

اسْتَلْقَى ياسِرٌ أَمَامَ التِّلْفازِ وَقَدْ غَطَّى نَفْسَهُ بِطَبَقاتٍ مِن الأَغْطِيَةِ لِيَبْدُوَ كالشَّطيرَةِ السّاخِنَةِ، وَأَمَامَهُ كُوبٌ كَبيرٌ مِن الشّاي، تَمْنَحُهُ الأَبْخِـرَةُ المُتَصاعِدَةُ مِنْهُ إِحْسَاسًـا بِالْمَزيدِ من الـدِّفْءِ، وَكَانَتْ حَميدَةُ قَدْ أَعَدَّتْ لَهُ مُسْـبَقًا كُلَّ مَا تَحْتَاجُهُ سَهْرَةٌ هادِئَةٌ، كَيْ لَا يُضْطَرَّ لِلنُّهُوضِ، وانْتِزاعِ نَفْسِهِ مِنْ مَصْنَعِ الحَرارَةِ هَذَا، وَفَجْأَةً؛ أَصْبَحَ الْجَوُّ بَارِدًا مَعَ تَسَلُّلِ الزَّمْهَريرِ إِلَى البَيْتِ حِينَ فَتَحَ شَادِي البَابَ:

– أَيْنَ كُنْتَ يَا شَادِي؟

– كُنْتُ مَعَ نائِلٍ فِي زِيارَةٍ لِلْحَاجَّةِ آمِنَةَ.

– الحاجّةِ آمِنَةَ! نَبَّهْتُكَ أَلَّا تَذْهَبَ هُنَاكَ، خُصُوصًا فِي اللَّيْلِ.

لَمْ يَسْـمَعْ ياسِرٌ رَدَّ شَـادِي عَلَيْهِ، إِذْ صَمَتَ راحِلًا بِذِهْنِهِ إِلَى دُنْيَا أُخْرَى، وبِالْكَادِ تَمالَكَ نَفْسَهُ أَمَامَ شَادِي، وَمَنَعَ دَمْعَةً كَادَتْ

تَسْقُطُ مِنْ عَيْنَيْهِ الْمُتَلِئَتَيْنِ بِالْحُزْنِ، فَلَا شَكَّ أَنَّ شَادِيًا -في طَريقِهِ إِلَى بَيْتِ آمِنَةَ- مَرَّ بِبَيْتِ «مُنْتَظِر». أَلْقَى شَادِي جَسَدَهُ عَلَى الفِراشِ حَزِينًا تَعِبًا، فَجُرْعَةُ الهُمُوم الَّتي تَلَقَّاها اليَوْمَ أَكْبَر مِنْ تَجْرِبَتِهِ، وَأَكْثَرُ مِن احْتِمالِهِ، وَبَاتَتْ كَلِمَةُ «الصِّراع» تَتَرَدَّدُ في خاطِرِهِ، وَتَخْلُقُ ضَبابًا يَحْجُبُ وَرَاءَهُ عَددًا غَيْرَ مُتَنَاهٍ مِن الأَسْئِلَةِ، لِمَاذَا يَخوضُ الإِنْسانُ الصِّراعاتِ؟ وَكَيْفَ؟ وَمَتَى؟ حَتَّى نَامَ في أَسًى بَعْدَمَا أَحَسَّ أَنَّ الدُّنْيَا خَذَلَتْهُ.

أَطْفَأَ ياسِرٌ التِّلْفازَ، وَاسْتَلْقَى عَلَى ظَهْرِهِ وَاجِمًا، وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ، فَرَأَى طِفْلَيْنِ في العاشِرَةِ مِنْ عُمُرِهِمَا يَسيرانِ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ في شَارِعٍ يَمْتَلِئُ بِالنَّاسِ، وَيَضِجُّ بِالْحَيَاةِ، أَحَدُهُمَا هوَ ياسِرٌ نَفْسُهُ، وَلَكِنْ قَبْلَ خَمْسَةٍ وَثَلَاثِينَ عامًا، والآخَرُ هوَ صَديقُهُ المُقَرَّبُ «مُنْتَظِرٌ السّومَرِيِّ»، طِفْلٌ أَنيقٌ وَهَادِئٌ، يَتَصَرَّفُ بِوَداعَةٍ، في حِينِ تَمْتَلِئُ عُيونُهُ بَأْسًا وَقُوَّةً. اعْتادَ ياسِرٌ في ذَلِكَ الزَّمانِ العَمَلَ في الحُقُولِ صَبَاحًا، لِتَحَمُّلِ جُزْءٍ مِنْ نَفَقاتِ البَيْتِ المُتَزايِدَةِ مَعَ أَبيهِ، فَلَمْ يَتَلَقَّ حَظَّهُ مِن التَّعْليم الَّذي لَمْ يَكُنْ سَائِدًا في بَيْتِ زَيْدٍ حِينَهَا، وَبِحُلُولِ المَساءِ يُرَافِقُ مُنْتَظِرًا، الَّذي يَبْدَأُ يَوْمَهُ مُنْتَظِمًا في إِحْدَى مَدارِسِ الحارَةِ. كَبرَ الطِّفْلانِ، وَانْخَرَطَ مُنْتَظِرٌ في دِراسَتِهِ الجامِعيَّةِ، فَتَخَصَّصَ في الصَّحافَةِ الَّتي أَحَبَّها

وَاخْتَارَهَا عَمَلًا وَأَمَلًا، لِمَا وَجَدَ فِيهَا مِنْ وَسِيلَةٍ مُنَاسِبَةٍ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ غَضَبِهِ الْمُتَنَامِي مِمَّا يَحْصُلُ فِي الحَيِّ. تَخَرَّجَ الشَّابُّ الْيَافِعُ، وَبَدَأَتْ تَقَارِيرُهُ الصَّحَفِيَّةُ تُزْعِجُ بَعْضَ الجِهَاتِ، حَتَّى اخْتُطِفَ مُنْتَظِرٌ فِي أَحَدِ الأَيَّامِ بِسَبَبِهَا، ثُمَّ عَادَ سَلِيمًا. تَحَدَّثَتِ الحَارَةُ كَثِيرًا عَنْ تَقَارِيرِهِ، فَلَا يَخْفَى شَيْءٌ عَلَى أَحَدٍ فِي الحَارَةِ الشَّرْقِيَّةِ، الأَخْبَارُ تُحْمَلُ عَلَى الهَوَاءِ، وَتَصِلُ إِلَى كُلِّ مُهْتَمٍّ وَغَيْرِ مُهْتَمٍّ. لَمْ يَفْهَمْ يَاسِرٌ تَمَامًا كُنْهَ نَجَاحِ صَدِيقِهِ، إِلَّا أَنَّهُ شَارَكَهُ فِيهِ لَمَّا رَأَى احْتِفَاءَ النَّاسِ بِهِ.

وَفِي عَامِ ٢٠٠٣ ادَّعَى آلُ الرَّيَّانِ أَنَّ أَبْنَاءَ سُومَرَ قَدْ حَصَلُوا عَلَى أَسْلِحَةٍ، وَأَنَّهُمْ أَصْبَحُوا خَطَرًا عَلَى الحَيِّ، كَمَا احْتَجُّوا عَلَى تَعَامُلِ شَيْخِ آلِ سُومَرَ مَعَ أَبْنَائِهِ. لَمْ يَكُنْ هَذَا أَوَّلَ احْتِجَاجٍ مِنْ نَوْعِهِ، بَلْ طَالَمَا صَرَّحَ آلُ الرَّيَّانِ أَنَّ سِيَاسَاتِ إِدَارَةِ البُيُوتِ فِي الحَارَةِ الشَّرْقِيَّةِ -وَحَارَاتٍ أُخْرَى- تُزْعِجُهُمْ، وَكَثِيرًا مَا أَبْدَوْا قَلَقَهُمْ مِنْ بَعْضِ الإِجْرَاءَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ فِي العَدِيدِ مِنَ البُيُوتِ، مُرَدِّدِينَ دَائِمًا كَلِمَةَ «الحُرِّيَّةِ»، الَّتِي تَتَقَافَزُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ بِاسْتِمْرَارٍ بِاعْتِبَارِهَا حَاجَةً إِنْسَانِيَّةً ضَرُورِيَّةً يَفْتَقِدُهَا أَهَالِي الحَيِّ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى اخْتِلَافِ الظُّرُوفِ الثَّقَافِيَّةِ وَالاقْتِصَادِيَّةِ وَالدِّيمُوغْرَافِيَّةِ بَيْنَ البُيُوتِ، فَكَانُوا -وَمَا زَالُوا- هُمْ مَنْ يَضَعُ

المَفاهيمَ العامَّةَ، وَيُلْحِقُ بِهَا الشُّـروحَ والْمُلاحَظـاتِ، ثُمَّ يُحاكِمُ أَهْـلَ الحَيِّ عَلَيْهَا. وَبَعْدَ أَشْـهُرٍ مَعْدودَةٍ، اتَّخَـذَ آلُ الرَّيّانِ مِن انْزعاجِهِـمْ ذَريعَةً لِلْهُجُـومِ عَلَى بَيْتِ آلِ سـومَرَ، فَدَخَلوهُ مَعَ أَصْدِقَائِهِمْ مِنْ آلِ يَاسِينَ بِالْقُوَّةِ بَعْدَ اسْتِبْسالِ أَهْلِهِ وَدِفاعِهِمْ عَنْهُ بِشَرَاسَـةٍ، فَقَتَلُوا الكَثيرَ مِنْ أَفْرادِ البَيْتِ، وَدَمَّروا أَجْزاءً مِنْهُ، بَيْنَمَا لَمْ يَمْلِكْ أَبْناءُ الحارَةِ أَكْثَرَ مِن الاعْتِراضِ، وَلَمْ يَكْفِ شَجْبُ الْجِيرَانِ وَتَنْديدُهِمْ لإِنْهَاءِ الاعْتِداءِ، فَاسْـتَمَرَّ حَتَّى مَقْتَلِ شَـيْخِ سومَرَ، وَتَعْيينِ شَيْخٍ جَديدٍ، قَدَّمَ فُرُوضَ الطَّاعَةِ لِشَيْخِ الرَّيّانِ.

لَمْ يَجِدِ المُعْتَدُونَ أَيَّةَ أَسْلِحَةٍ، وَبَعْدَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، اعْتَذَرَ شَيْخُ آلِ يَاسِينَ عَن الاعْتِداءِ. هَكَذا بِبَسَاطَةٍ!

عَاشَ مُنْتَظِـرٌ وَأَهْلُهُ والْحَيُّ بِأَكْمَلِهِ أَيَّامًـا عَصيبَةً، وَرَأى مَا حَـلَّ مِن الخَرابِ، وَعايَنَ أَضْرَارًا أَكْثَـرَ مِنَ احْتِمالِهِ، وَلأَنَّهُ كَانَ شُجَاعًا شَـرِيفًا؛ فَقَدْ خَطَّطَ لأَمْرٍ غَيْرِ مَسْـبُوقٍ، يَتَعَدَّى تَقاريرَهُ الصَّحَفيَّـةَ، فَانْتَظَرَ -عَلَى أَحَرِّ مِن الجَمْرِ- يَوْمًا جَاءَ فِيهِ شَـيْخُ آلِ الرَّيّانِ إِلَى بَيْتِهِمْ لِتَنْفيذِهِ، وَبَعْدَمَا جَلَسَ الشَّيْخُ وَبَدَأَ كَلامَهُ، خَلَعَ مُنْتَظِرٌ زَوْجَيْ حِذائِهِ، وَأَلْقَاهُما عَلَيْهِ مُهينًا وَغاضِبًا وَرافِضًا وَطـارِدًا. وَقَـدْ كَانَ أَكْثَرَ مَا يَبْعَثُ عَلَـى الأَلَمِ، وَيَعْصِرُ الوِجْدانَ عَصْـرًا -فِي أَمْرِ حادِثَةِ الحِذاءِ هَذِهِ- أَنَّ شَـيْخَ الرَّيّانِ لَمْ يَشْـعُرْ

بالْإهَانَةِ قَدْرَ شُعورِ شَيْخ سومَرَ الجَديدِ بِهَا، وَالَّذي أَمَرَ بِضَرْب مُنْتَظِرٍ وَسَحْلِهِ، وَأَجْبَرَهُ عَلَى الاعْتِذارِ، ثُمَّ حَبَسَهُ في غُرْفَةٍ مِنْ غُرَفِ البَيْتِ سَنَةً كامِلَةً، غادَرَ بَعْدَهَا مُنْتَظِرٌ بَيْتَهُ إلى الأَبَدِ، وَلَمْ يَتَسَنَّ لِياسِرٍ رُؤْيَتُهُ مَرَّةً أُخْرَى.

فَتَحَ ياسِرٌ عَيْنَيْهِ عَلَى صَوْتِ الرَّعْدِ يُجَلْجِلُ البَيْتَ، وَنَظَرَ إلَى كُوبِ الشّاي البارِدِ:

- هَنيَّةُ، أَخْبِري حَميدَةَ أَنْ تُعِدَّ كُوبًا آخَرَ مِن الشّاي.

الفَصْلُ التَّاسِعُ

فَلْنَسْتَمْتِعْ قليلا

أُكْتُوبَرُ مُراهِقٌ غَيْرُ مُتَّزِنٍ عَاطِفِيًّا، يَسْـُهلُ اخْتِلاطُ مَشاعِرِهِ فِي السّاعَةِ نَفْسِها، فَبَيْنَ بُكائِهِ وَفَيْضِهِ بِالطَّاقَةِ طَرْفَةُ عَيْنٍ، وَهَا هوَ اليَـوْمَ قَدْ أَصْبَحَ حَزِينًا يَصُبُّ دُموعَهُ عَلَى الحَيِّ أَمْطارًا، وَيُتَرْجِمُ اهْتِياجَـهُ رِيَاحًا عَصَفَتْ بِحُقُولِ القَمْـحِ المُحْتَضِنَةِ لِلْفُنْدُقِ الَّذِي يَنْـزِلُ فِيهِ نائِلٌ، فَتَكَفَّلَ حَفيفُها بِإيقاظِـهِ، فَنَهَضَ. وَقَفَ عَلَى الشُّـباكِ يَتَأَمَّلُ السَّـنابِلَ الَّتِي تَحْني رُؤوسَـها حِينَ تَمُرُّ الرّياحُ مُحَدِّثًا نَفْسَـهُ: «لَوْ لَمْ تَفْعَـلْ ذَلِكَ لَمَا عَاشَـتْ وَلَا أَثْمَرَتْ، فَهَل انْحِنـاءُ الرُّؤُوسِ عِنْدَ مُـرورِ الرّياحِ حِكْمَـةٌ؟ أَمْ أَنَّ بَعْضَ المَوْتِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضِ الحَياةِ؟» رَنَّ الهاتِفُ قَاطِعًا أَفْكارَ نائِلٍ، فَتَمْتَمَ: «الإجابَـةُ صَفيَّـةُ، بَعْـضُ الحَياةِ مَـعَ صَفيَّةَ هِـيَ الأَفْضَلُ عَلَى الإِطْلَاقِ». انْطَلَقَ صَوْتُ صَفيَّةَ العَذْبُ:

– نائِلُ، اشْتَقْتُ إِلَيْكَ، كَيْفَ حالُكَ؟

– بِخَيْرٍ يَا صَافِي، سَـعيدٌ هُنَا، أَسْـتَمْتِعُ بِتَجْرِبَةٍ إِنْسـانيَّةٍ فَريدَةٍ. طَمْئِنِيني عَلَيْكِ يَا عَزِيزَتِي.

- تَجْرِبَــةٍ إنْســانيَّةٍ! في الإجازَةِ! رَفِّهْ عَنْ نَفْسِــكَ يَا نائِلُ، اذْهَبْ إلَى أيِّ شَاطِئٍ، أَو اسْتَمْتِعْ بِمَنْظَرٍ طَبيعيٍّ.

رَدَّ نائِلُ -بشَكْلٍ عَفويٍّ- وَقَدْ حَجَزَتْ جُمْلَةُ صَفيَّةَ مَكانَها في نَفْسِهِ، فَاسْتَمَرَّ صَدَاهَا يَتَرَدَّدُ في أُذُنِهِ:

- حَسَنًا يَا عَزيزَتِي.

صَمَتَ قَلِيلًا، ثُمَّ سَأَلَ:

- كَيْفَ حَالُ مَحْمودٍ؟

- بخَيْرٍ، دائِمُ السُّؤالِ عَنْكَ.

- أُريدُ أَنْ أُكَلِّمَهُ.

- لَا أَرَاهُ أَمَامِي، أَظُنُّهُ يَلْعَبُ فِي الخَارِجِ.

انْتَهَى الاتِّصالُ بَعْدَ ســاعَةٍ مِن الحَديثِ الفائِضِ بالشَّوْقِ، لَمْ تُفْلِحْ عَشْرُ سَنَوَاتٍ مِن الزَّواجِ في إنْقاصِهِ، وَمَا زَالَتْ كَلِماتُ صَفيَّةَ تَتَرَدَّدُ فِي ذِهْنِ نائِلٍ لِمَا لَمَسْــتَ مِنْ جِراحاتِ نَفْسِهِ المُرْهَقَةِ، فَقَالَ لِنَفْسِــهِ: أَنْتِ بارِعَةٌ يَــا صَافي في مَلْئِي نَشَــاطًا حَتَّى فِي غيابِكِ، حَسَنًا، سَأَسْتَمْتِعُ.

* * *

قَرَّرَ نائِلٌ الذَّهابَ إلَى مَنْزِلِ ياسِــرٍ لَيْلًا، بَعْدَ أَنْ يَعودَ الرَّجُلُ مِنْ عَمَلِهِ وَيَرْتاحَ قَلِيلًا، وَفَكَّرَ فِيمَا يُمْكِنُ فِعْلُهُ حَتَّى حُلولِ المَساءِ،

وَلَمّا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْخِيَارَاتُ المُتاحَةُ، ارْتَأى النُّزولَ إلى الشّارِعِ لَعَلَّهُ يُشْعِلُ فَتيلَها. وَصَلَ سَريعًا إلَى السّوقِ، حَيْثُ انْتَشَرَ النّاسُ بَيْنَ مَحَلاتٍ مُتَواضِعَةٍ لا تَبيعُ إلّا مَا يَحْتَاجُهُ المَرْءُ لِيَعِيشَ، وَتَجَوَّلَ بَيْنَ عِدَّةِ مَطاعِمَ، وَمَقْهًى شَعْبِيٍّ، وَمَرْكَزٍ صِحّيٍّ، والْكَثيرِ مِنْ مَحَلّاتِ الخِيَاطَةِ، وَبَعْضِ المحَلاتِ المُغْلَقَةِ الَّتي قَدَّمَتْ أَبْوابَها لِأَوْلادِ الحَيِّ مَرْمًى يُسَدِّدُونَ كُرَاتِهِمْ نَحْوَهُ. تَوَجَّهَ إلى أحَدِ المَطاعِمِ لِيَتَناوَلَ الغَدَاءَ، وَعِنْدَ اقْترابِ المَغيبِ تَأَهَّبَ لِلْعَوْدَةِ إلى البَيْتِ لِتَبْديلِ مَلابِسِهِ قَبْلَ الذَّهابِ إلَى ياسِرٍ، فَعَرَّجَ في طَريقِهِ عَلَى مَحَلٍّ يَبيعُ الحلْوَى، وَأَخَذَ طَبَقًا مِن الشُّوكُولاتَةِ يُعَبِّرُ بِهِ عَنْ شُكْرِهِ لِمُضيفِهِ، وَعِنْدَ نُزولِهِ سُلَّمَ المحَلِّ خارِجًا تَسَلَّلَتْ إلَى أَنْفِهِ رائِحَةٌ زَكيَّةٌ، وَمَا إنْ تَقَدَّمَ أَكْثَرَ حَتَّى رَأى أكْوازًا مِن الذُّرَةِ تَتَقَلَّبُ في النّارِ، فَتَتَّشِحُ بالْقَليلِ مِن السَّوادِ كَأَنَّها شَمْسُ المَغيبِ تَتَراءَى لِناظِرٍ مِنْ خَلْفِ خُيوطِ الدُّخانِ:

- أعْطِني واحِدَةً مِنْ فَضْلِكَ.

- سَأُعْطيكَ واحِدَةً وَأَلُفُّهَا لَكَ بِقِطْعَتَيْنِ مِن الجَرائِدِ، لِأَنَّكَ قُلْتَ لِي «مِنْ فَضْلِكَ.»

ابْتَسَمَ نائِلٌ لِلْبَائِعِ الوَدُودِ، وَمَضَى نَحْوَ البَيْتِ، ثُمَّ فَتَحَ الجَريدَةَ هَامًّا بِأَكْلِ الذُّرَةِ، فَسَقَطَتْ عَيْنَاهُ عَلَى عُنْوانٍ عَريضٍ لِخَبَرٍ فِيهَا:

«الحَـــيُّ ... إلَى أيْــنَ؟ بَعْدَ أكْثَرَ مِنْ أرْبَعِــينَ عَامًا عَلَى صَدْمَةِ الشَّيْخِ رَشادٍ نِزارٍ الرَّيّانِ»

أرَادَ نائِــلٌ إكْمــالَ قِــراءَةِ الخَــبَرِ، وَلَكِنْ لَمْ تُسْــعِفْهُ أجْزاءُ الجَريدَةِ المُقَطَّعَةِ، وَالَّتي فَقَدَتْ حَتَّى عُنْوانَها وَتاريخَها، فَأكْمَلَ أكْلَ الذُّرَةِ مُتَمْتِمًا: صَدْمَةُ الشَّيْخِ رَشادٍ نِزارٍ الرَّيّانِ.

* * *

تَجَمَّعَ ياسِــرُ وَشَــادي مَــعَ نائِلٍ حَــوْلَ مَدْفَأَةٍ قَديمَــةٍ تَعْمَلُ بِالْكيروسِــين، حافَظَ عَلَيْهَــا في حالَةٍ جَيِّدَةٍ عَــدَمُ خُروجِها إلَّا لِلضُّيُوفِ، وَقَد اسْــتَقَرَّ فَوْقَهَا إبْريقُ الشّــاي، تُخالِــطُ أبْخِرَتُهُ المُنْبَعِثَةُ الأبْخِــرَةَ المُتَصاعِدَةَ مِنْ أفْوَاهِهِمْ، فَتُشَــكِّلُ ضَبابًا دافِئًا يَمْلأُ الغُرْفَةَ. لَمْ يَتَرَدَّدْ نائِلٌ في تَوْجيهِ الحِوارِ نَحْوَ شُؤونِ الحَيِّ، إذْ مَا زَالَ ذِهْنُهُ مَشْــغُولًا بِأمْرِ الشَّــيْخِ رَشــادٍ، فَارْتَأى أنْ يُقَدِّمَ لِلْحَديثِ عَنْ آلِ الرَّيّانِ مُسْتَفْهِمًا:

- مَنْ هُمْ آلُ الرَّيّانِ؟
- عائِلَةٌ تَسْكُنُ بَيْتًا في أقْصَى غَرْبِ الحَيِّ.
- وَهَلْ شَيْخُهُمْ يُدْعَى رَشادَ نِزارٍ؟
- لَا، بَلْ عَسّافًا.

صَمَتَ ياسِـرٌ يُعْمِلُ ذاكِرَتَـهُ عَلَّهُ يَعْثُرُ بَـيْنَ طَيَّاتِهَا عَلَى مَا يُذَكِّرُهُ بِالشَّـيْخِ رَشـادٍ، فَقَدْ سَمِعَ هَذَا الاسْـمَ، وَلَكِنَّهُ لا يَتَذَكَّرُ الرَّجُلَ جَيِّدًا، فَتابَعَ كَلامَهُ:

- الشَّـيْخُ رَشادٌ هوَ أَحَدُ الشُّـيُوخِ القُدامَى فِي الحَيِّ، لَكِنِّي لَا أَتَذَكَّرُ عَنْهُ شَيْئًا، كُنْتُ صَغِيرًا عِنْدَمَا مَاتَ.

- رُبَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نَزُورَ الحاجَّةَ آمِنَةَ مَرَّةً أُخْرَى لِنَسْتَعْلِمَ عَنْ أَمْرِهِ.

اسْتَطْرَدَ نائِلٌ بَعْدَ أَن ارْتَشَفَ الشّايَ:

- أُرِيـدُ أَنْ أَقْضِيَ بَعْـضَ الوَقْـتِ المُمْتِعِ، أَيْـنَ تَنْصَحُونَنِي بِالذَّهَابِ؟

- رُبَّمَا كَانَتِ الْحارَةُ الشَّماليَّةُ مَقْصَدَكَ.

- الحارَةُ الشَّماليَّةُ، فَلْنَذْهَبْ وَنَقْضِ بَعْضَ الوَقْتِ هُنَاكَ إِذًا.

صَمَتَ ياسِرٌ حِينَ لَمْ يَجِدْ مَا يَقُولُهُ، فَلَا يَسْتَطِيعُ الرَّفْضَ؛ لِأَنَّ الواجِبَ يُمْلي عَلَيْهِ إِكْرامَ نائِلٍ، وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَطيعُ القَبولَ أَيْضًا؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ تَكاليفَ لَا يُطيقُها. وَلَمْ تَكُنْ حَيْرَةُ ياسِـرٍ هَذِهِ لِتَخْفَى عَلَى نائِلٍ، الَّذِي تَدارَكَ الأَمْرَ سَريعًا بِقَوْلِهِ:

- سَمِعْـتُ أَنَّ الحارَةَ الشَّـماليَّةَ بَعيدَةٌ، وَأَنَـا أُفَكِّرُ فِي إِيجَادِ فُنْـدُقٍ هُنَاكَ لِقَضَـاءِ عِدَّةِ أَيّامٍ بَدَلًا مِنْ تَكْـرارِ الذَّهابِ وَالْعَوْدَةِ، رُبَّمَا لَا تَسْتَطيعُ تَرْكَ عَمَلِكَ فَتْرَةً طَويلَةً.

لَمْ يَنْطِقْ ياسِرٌ بكَلِمَةٍ بَعْدُ، إذْ مَا زَالَ يُخْضِعُ الحَلَّ الَّذِي قَدَّمَهُ نائِلٌ لِمِيزَانِ الْعَادَاتِ والتَّقاليدِ، وَإنْ كَانَتِ الرَّاحَةُ بَدَتْ عَلَى مَلامِحِهِ، فَعَلَى الأَقَلِّ هُنَاكَ بَوادِرُ لِمَخْرَجٍ مَا، وَأَقْدَمَ نائِلٌ عَلَى طَرْحِ المَزيدِ مِنْ الحُلولِ حِينَ رَأَى تِلْكَ الرَّاحَةَ تُسَيْطِرُ عَلَى وَجْهِ ياسِر:

– وَلَكِنَّ هَذَا لَنْ يُعْفِيَ شَادِيًا، اسْمَحْ لِي بِدَعْوَتِهِ.

نَظَرَ شَادِي نَحْوَ ياسِر، والرَّغْبَةُ فِي الذَّهابِ تَقْفِزُ مِنْ عَيْنَيْهِ، وَلَكِنَّ لِسانَهُ يَكْبَحُهَا، فَقَالَ ياسِرٌ مُرْتَبِكًا:

– حَسَنًا، وَاعْذِرْنِي لِعَدَمِ قُدْرَتِي عَلَى المَجِيءِ، فَلَيْسَ بِمَقْدُورِي تَرْكُ الأَرْضِ لِمُدَّةٍ طَويلَةٍ.

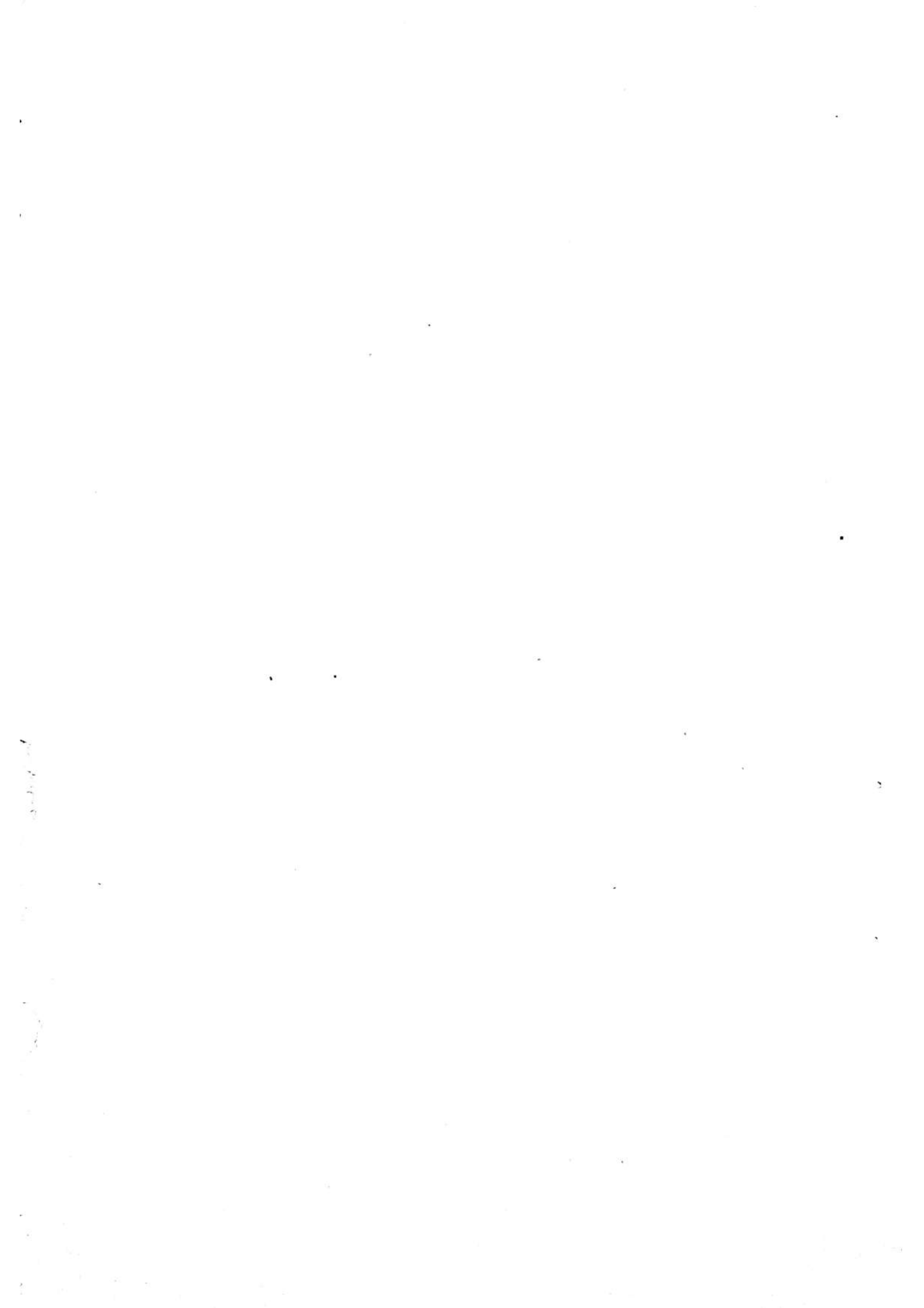
* * *

تَحَرَّكَ نائِلٌ وَشادي نَحْوَ وِجْهَتِهِمَا صَباحَ اليَوْمِ التَّالِي. انْطَلَقَا شَمالًا عَبْرَ الطَّريقِ الرَّئيسيِّ الَّذِي أَلِفَهُ نائِلٌ بِمُرورِهِ عَبْرَهُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، أَوَّلُهَا قَادِمًا مِن المَطارِ، وَلَكِنْ مَا لَمْ يَعْهَدْهُ هَذِهِ المَرَّةَ هُوَ الزِّحامَ، إذْ كَانَتِ السَّيَّارَاتُ تَقِفُ لِأَوْقَاتٍ طَويلَةٍ، حَتَّى إِنَّهُمَا قَضَيَا أَرْبَعَ سَاعَاتٍ كامِلَةٍ لِلْوُصُولِ إِلَى بَيْتِ تَحْسِين زَيْدٍ المُجَاوِرِ، وَحِينَ تَعَدّياه وَجَدَا بَاقِيَ الطَّريقِ مُغْلَقًا تَمامًا بِوَاسِطَةِ سَيّاراتِ الشُّرْطَةِ والْمرورِ، وَقَدْ امْتَلَأَ بِشَاخِصَاتٍ مُروريَّةٍ تُلْزِمُ

السّـائِقينَ اتِّخاذَ الطَّريـقِ الفَرْعيِّ غَرْبًا كَطَريـقٍ بَديلٍ، وَتُوصِي باتِّبَاعِ الشَّاخِصَاتِ المُنْتَشِرَةِ في الطَّريقِ الجَديدِ مِنْ أَجْلِ السَّلامَةِ، وَتَسْـهيلِ الوُصولِ إلى الوجْهَاتِ المُخْتَلِفَةِ. اسْتَغْرَقَ عُبورُ الطَّريقِ وَقْتًا طَويلًا، وَمِن شَـأْنِ الفُضولِ إِذا تَمَلَّكَ النَّفْسَ أَنْ يُطيلَ الوَقْتَ أَكْثَرَ. قَالَ شَادِي -وَهُوَ يَقْرُصُ شَعْرَةً عَلَى ذَقْنِهِ -:

- أَوَّلُ مَرَّةٍ أَرَى الطَّريقَ بِهَذِهِ الحالَةِ، مَاذَا يَجْري؟

- رُبَّمَا وَقَعَ حادِثٌ مُروريٌّ، لَا تُفْسِدْ تَفْكيرَكَ في الإِجازَةِ.



الفَصْلُ الْعَاشِرُ

أَوْهامٌ عَلى أَطْلالِ العَظَمَةِ

اسْتَيْقَظَ نائِلٌ صَباحًا، وَاسْتَمْتَعَ بِحَمّامٍ مِن البُخارِ، ثُمَّ قَرَّرَ أَنْ يَتَناوَلَ الإفْطَارَ، فَاتَّصَلَ بِخِدْمَةِ الغُرَفِ لِيَطْلُبَ (فِرِيتَاتَا الْبيضِ، ووافِلَ البَطاطِس، وَتوستْ بريوش)، دُونَ سُؤالِ شَادِي عَمَّا يُفَضِّلُهُ، فَقَدْ رَآهُ يَنْظُرُ إلى كُلِّ شَيْءٍ بِذُهولٍ كَأَنَّهُ طِفْلٌ حَديثُ الولادَةِ، جَاءَ إلى العالَمِ مُنْذُ بِضْعَةِ أَسَابيعَ فَقَطْ. وَسُرْعَانَ مَا جَلَبَتْ مُضيفَةٌ شَقْراءُ في عَقْدِها الثّالِثِ الأَطْباقَ السّاخِنَةَ، وَحِينَ فَرَغا مِن الأَكْلِ، ضَغَطَ نائِلٌ زِرًّا تَحْتَ الْكُرْسِيِّ، فَاسْتَجَابَ فَوْرًا بِأَن اسْتَحَالَ سَريرًا، أَلْقَى عَلَيْهِ نائِلٌ جَسَدَهُ الْمُسْتَرْخِيَ، وَعُيونُهُ تَعْبُرُ جِدارَ الغُرْفَةِ الزُّجاجيَّ نَحْوَ الشّارِعِ. لَمْ تَتَوَقَّفِ الثُّلوجُ مُنْذُ الصَّباحِ عَن التّساقُطِ كُتَلًا في الحارَةِ الشَّماليَّةِ، وَبَدَأَتْ تَتَجَمَّعُ حَوْلَ الأَرْصِفَةِ وَأَطْرافِ الشَّوارِعِ، وَتَزْحَفُ بِبُطْءٍ نَحْوَ وَسَطِها، حَيْثُ كَوَّنَ الجَليدُ طَبَقَةً رَفيعَةً يَنْسابُ خِلالَها الْماءُ، وَإِذَا اسْتَمَرَّتِ الثُّلوجُ تَتَساقَطُ بِالْوَتيرَةِ نَفْسِها، فَإِنَّها سَتَتَراكَمُ لارْتِفاعٍ يَزيدُ عَن المِتْرِ في سَاعَاتٍ مَعْدودَةٍ، وَبِمَا أَنَّهُ مِن الصَّعْبِ الرِّهانُ عَلَى اسْتِمْرارِها مِنْ عَدَمِهِ، فَالْتَنَقُّلُ في السَّيّارَةِ خَيارٌ مُسْتَبْعَدٌ، أَشْبَهُ

بِمُقامَرَةٍ في يَوْمِ نَحْسٍ، لِهَذَا آثَرَ نائِلٌ وَشادي المَشْيَ، فَخَرَجا مِن الجَناحِ، وَعَبَرَا السَّـجادَ الأَحْمَرَ الَّذِي يُغَطِّي المَرَّاتِ العَريضَةَ، وَيَمُرُّ عَبْرَ الأبوابِ العَسَليَّةِ لِلْغُرَفِ، وَالَّتي تَنْتَشِرُ بَيْنَها طاولاتٌ بُنِّيَّةٌ مُسْتَطيلَةٌ تَتَناثَرُ فَوْقَها أَوْراقُ الوُرودِ، وَفَوْقَ كُلِّ طاولَةٍ مِرْآةٌ بَيْضاويَّـةٌ مُعَلَّقَةٌ عَلَى الجِـدارِ. وَبِنِهَايَةِ المَمَـرِّ قابَلَتْهُمَا لَوْحَةٌ فُسَيْفِسَـائِيَّةٌ تَشَكَّلَتْ مِنْ آلافِ الْمُكَعَّباتِ الصَّغيرَةِ الَّتي لا يَتَعَدَّى حَجْمُها خَمْسِـينَ ملم، وَيَظْهَرُ فِيهَا عَـدَدٌ لا يُحْصَى مِن الأَلْوانِ المُتَداخِلَةِ، والأَشْـكالِ الهَنْدَسِـيَّةِ المُتَقاطِعَةِ مُتَفاوِتَةِ الأَحْجامِ.
أَطَالَ شَـادِي النَّظَرَ فِيهَا، وَلَمْ يَكْـتَرِثْ نائِلٌ لِذَلِكَ، فَقَدْ كانَ هَذا دَأْبُ شَادِي مُنْذُ دُخولِهِ الْحارَةَ الشَّماليَّةَ، وَلَكِنَّهُ هَذِهِ المَرَّةَ اسْتَمَرَّ في النَّظَرِ أَكْثَرَ، ثُمَّ قَالَ:
- لَوْحَةٌ جَميلَةٌ.
- وَهَلْ جَمالُها وَحْدَهُ كَافٍ لإِعْجابِكَ بِهَا؟
- مَاذَا تَعْني؟
- أَعْني مَاذَا فَهِمْتَ مِنْهَا؟
هَزَّ شَادِي رَأْسَهُ بِالْعَدَمِ، فَتابَعَ نائِلٌ:
- إِذَا رَأَيْـتَ لَوْحَةً، ثُمَّ قَدَّرْتَ أَنَّهَـا غَيْرُ مَفْهومَةٍ، فَأَنَّى لَكَ الحُكْـمُ بِأَنَّهَا جَميلَةٌ؟ أَلا يَتَطَلَّبُ حُكْمٌ كَهَذَا فَهْمَها قَبْلًا؟ أَمْ أَنَّكَ قَصَدْتَ أَنَّهَا غامِضَةٌ، فَوَجَّهَكَ غُموضُها لِلْقَوْلِ بِجَمالِها؟

صَمَتَ نائِلٌ قَلِيلًا يَسْتَشِــفُّ مَدَى تَفاعُلِ شَادِي مَعَ كَلامِهِ، ثُمَّ سَأَلَ:

- لَــو اخْتَرْنــا عَشْــوَائِيًّا مُكَعَّبَيْنِ مِــن اللَّوْحَةِ، وَاسْــتَبْدَلْنا مَكانَيْهِما، فَهَلْ سَتُغَيِّرُ رَأْيَكَ فِي جَمالِها؟

- لَا أَظُــنُّ، فَلَيْسَ هُناكَ عَلاقَةٌ واضِحَةٌ بَيْنَ الْمُنْحَنَياتِ، حَتَّى أَفْقِدَ الاتِّصالَ بَيْنَها لَوْ تَغَيَّرَتْ.

- هَذَا النَّوْعُ مِن الفُنُونِ يَسْــتَهْوِي الْمُتَحَذْلِقِينَ، الَّذِينَ يُحِبُّونَ الظُّهورَ بِمَظْهَرِ الْمُثَقَّفِينَ القَادِرِينَ عَلَى تَفْكِيكِ شِــفْرَةِ الْمُنْحَنَياتِ والأَلْــوانِ، والْحَدِيثَ أَمَــامَ «العامَّةِ» عَــنْ تَداعياتِها النَّفْســيَّةِ والاجْتِماعيَّــةِ، بِتَحْمِيلِهــا مَــا لَا تَحْتَمِلُهُ، ثُمَّ إِتْبــاعَ كَلامِهِمْ بِمُحَاضَرَةٍ عَن الحاجَةِ الماسَّةِ لِلْحُرِّيَّةِ، والانْطِلاقِ الفَرْدِيِّ عَنْ أَيِّ قَيْدٍ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ قَيْدَ لُغَةِ التَّواصُلِ مَعَ الْمُتَلَقِّي.

أَخَذَ نائِلٌ خَطْوَةً لِلْأَمَامِ لِيَسْتَكْمِلَ طَرِيقَهُ، وَهُوَ يَقُولُ:

- تَسْتَطِيعُ أَنْ تَدْعُوَ هَذَا «جُنونًا».

انْعَطَفَا يَمِينًــا مَعَ المَرِّ الْمُتَّجِهِ نَحْوَ الْمِصْعَــدِ، الَّذِي فُتِحَ بابُهُ القادِمُ مِــنَ القَاعِ لِيَلْفِظَ فَتاةً عِشْــرِينِيَّةً ثَمِلَــةً، صُبِغَتْ خُصُلَاتُ شَعْرِها القَصِيرِ بِالأَحْمَرِ القَانِي، فَخَرَجَتْ تَتَأَرْجَحُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ، يَتَّجِهــانِ بِهَا إِلَى إِحْدَى الغُرَفِ فِي المَرِّ. خَرَجَ نائِلٌ وَشــادِي مِن

المِصْعَدِ إلَى بَهْوٍ مُرَبَّعٍ واسِعٍ، وَمَشَيَا عَلَى أَرْضيَّتِهِ الزُّجاجيَّةِ - الَّتي تُبْدي مِنْ تَحْتِها خُيُوطًا ذَهَبيَّةً - عَبْرَ أَعْمِدَةٍ دائِريَّةٍ بَيْضاءَ، أَجْزاؤُها العُلْويَّةُ بلوْنِ القَهْوَةِ، حَتَّى اسْتَوْقَفَتْهُمَا في وَسَطِ البَهْوِ فَراشَةٌ مُرَقَّطَةٌ كَبيرَةٌ، تَضُخُّ المَاءَ مِنْ جَنَاحَيْهَا إلَى دائِرَةٍ تُحيطُهَا، وَفَوْقَهَا تَمامًا - عَلَى السَّقْفِ - بُقْعَةٌ زَرْقاءُ قاتِمَةٌ، تَتَدَلَّى مِنْهَا ثُرَيَّا ضَخْمَةٌ تَحْوي مِئاتِ اللَّمْبَاتِ الذَّهَبيَّةِ. اسْتَكْمَلَ الرِّفيقانِ مَسيرَهُمَا نَحْوَ المَخْرَجِ الرَّئيسيِّ الَّذي يَعْلُوهُ قَوْسٌ ضَخْمٌ مِن الرُّخام الأَبْيَضِ المُنْطَفِئِ، المُزَخْرَفِ بِنُتوءاتٍ كَأَنَّهَا بَقَايَا شَمعٍ مُحْتَرقٍ، مَحْفورٌ فِيهِ الكَلِمَةُ اللاتينيَّةُ «□r□b□li»[1]، وَعَلَى جانِبَيِّ المَخْرَجِ يَقِفُ تِمْثَالَانِ مُتَطابِقانِ لِكائِنٍ غَيْرِ واقِعيٍّ، تَتَكَوَّنُ أَعْضَاؤُهُ مِن الإِنْسانِ والدُّولْفينَ والدِّيكِ.

* * *

تَمَشَّيا عَبْرَ الشَّوارِعِ النَّظيفَةِ، أَقَلَّ شَادِي الكَلامَ، وَأَكْثَرَ التَّأَمُّلَ، كَأَنَّهُ لا يُريدُ أَنْ يَفْصِلَ أَيًّا مِنْ حَواسِّهِ عَن المَشاهِدِ غَيْرِ المَأْلُوفَةِ الَّتي يَرَاهَا. عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قُرْبِ الحارَةِ الشَّماليَّةِ مِن الشَّرْقيَّةِ جُغْرافيًّا، إلَّا أَنَّهَا تَخْتَلِفُ عَنْهَا في التَّنْظيمِ، فَبُيوتُ

---

(١) بالعَرَبيَّةِ: ليبر، وَهُوَ إلَهُ الحُرِّيَّةِ وَالخُصوبَةِ وَالنَّبيذِ وَزِراعَةِ الكُرومِ، في الميثولوجيا الرّومانيَّةِ.

الْحارَةِ الشَّــماليَّةِ أَقَلُّ ارْتِفاعًا، وَأَكْثَرُ بُعْدًا عَنْ بَعْضِها، وَيَمْتَازُ كُلُّ بَيْــتٍ فِيهَا بِهُوِيَّةٍ خاصَّةٍ مِنْ حَيْثُ اللَّوْنِ والشَّــكلِ، حَتَّى لَا يُمْكِــنَ لِراءٍ تُعْرَضَ عَلَيْهِ البُيوتُ بِشَــكْلٍ مُنْفَصِــلٍ افْتِراضُ أَنَّهَا تَنْتَمِي لِحارَةٍ واحِدَةٍ. قَالَ شَادِي:

– النَّاسُ هُنَا يَمْشُونَ بِشَكْلٍ مُخْتَلِفٍ عَنْ مِشْيَتِنا.

ضَحِكَ نائِلٌ:

– هَلْ تَسْتَطيعُ أَنْ تُوَضِّحَ؟

– يَمْشُــونَ هُنَا مُحَرِّكينَ عُيونَهُمْ فِي مِســاحاتٍ مَحْدودَةٍ، أَمَّا نَحْنُ فَنَنْظُرُ إلَى الآخَرينَ كَثِيرًا.

أَكْمَلَا السَّــيْر عَبْرَ مَبانٍ حَديثَةٍ، أَوْ مُحَدَّثَةٍ! فَظَهَرَ لَهُمْ مَبْنًى يَسْتَعْرِضُ فِيهِ الأَزْرَقُ كُلَّ دَرَجاتِهِ، وَتَمْلأُ جُدْرانَهُ رُسومٌ ثُلاثيَّةُ الأَبْعــادِ لِحَيَواناتٍ بَحْريَّــةٍ. تَجَمَّعَتْ أَمَامَ مَدْخَلِــهِ أَنابيبُ مَاءٍ شَفَّافَةٌ ضَخْمَةٌ لِتُشَكِّلَ جُمْلَةَ «حَديقَةِ الكَائِنَاتِ البَحْرِيَّةِ»، لَمَّا رَآهَا نائِلٌ اقْــتَرحَ الدُّخولَ، لِأَنَّها ذَكَّرَتْهُ بِحَديقَةٍ بَحْرِيَّةٍ زَارَهَا يَوْمًا مَعَ صَفيَّةَ، فَإِنْ لَمْ يَسْــتَطِعْ مُرافَقَةَ صَفيَّةَ فِي هَذِهِ الإجازَةِ الطَّويلَةِ فَلْيُرافِقْ ذِكْرَى جَمَعَتْهُ مَعَهَا. أُعْجِبَ شَــادِي بِالْفِكْرَةِ، فَلَمْ يَكُنْ لِيَمْنَــعَ أَيَّ اقْتِراحٍ يُعْطيهِ الفُرْصَةَ لاخْتِبَــارِ مَا هوَ غَيْرُ مَألوفٍ، وَمَا أَكْثَرَهُ فِي الْحارَةِ الشَّــماليَّةِ! دَخَلَا عَــبر المَمَرَّاتِ الزُّجاجيَّةِ

الشَّــفَّافَةِ الَّتي يُحيطُها البَحْرُ لِيَرَيَــا الكَائِنَاتِ البَحْرِيَّةَ تَتَجَوَّلُ أَمَامَهُمْ: (الحدّوق، وَالْجَــادُوس، وَعِفْريتَ البَحْرِ، وَالأُخْطُبوطِ الشّــائِع)، فَرَافَقَاهَا قَلِيلًا داخِلَ البَحْرِ، ثُمَّ خَرَجَا نَحْوَ الحَديقَةِ الخارجيَّةِ، حَيْثُ انْتَشَرَتْ يافِطاتٌ تَدْعُو الزُّوّارَ لِحُضُورِ العَرْضِ المائيِّ، اشْــترى نائِلٌ تَذْكِرَتَيْنِ، وَسُرْعَانَ مَا دَخَلَا باحَةً كَبيرَةً، مَليئَــةً بِالْمُدَرَّجــاتِ كَأَنَّهَا مَلْعَبٌ لِكُرَةِ القَدَمِ، يَتَوَسَّــطُها حَوْضُ سِباحَةٍ، وَجَلَسَــا عَلَى المُدَرّجِ يَسْــتَمْتِعَانِ بِرُؤْيَةِ ثَلاثِ فَقْمَاتٍ، أَخَذْنَ يَسْتَعِرِضْنَ مَهاراتِهِنَّ مَعَ المُدَرِّبينَ، بَيْنَ اللَّعِبِ بِالْكُراتِ، وَالْقَفْزِ خِلالَ الحَلَقاتِ. وَفي نِهايَةِ العَرْضِ قَامَتِ الْفَقْمَاتُ بِحَمْلِ المُدَرِّبينَ، وَالدَّوَرَانِ بِهِمْ داخِلَ الْمَاءِ.

خَرَجَــا مِــن المَبْنَى، وَعَــبرَا شَــارِعًا جُدْرانُهُ تَكْتَــظُّ بِأَلْوانٍ عَشْــوائيَّةٍ، وَبِأَشْياءَ غَيْرِ مُكْتَمِلَةٍ وَلَا مُتَرابِطَةٍ: (أُذْنِ فِيلٍ، جُزْءٍ مِنْ ذَيْلِ كَلْبٍ، نِصْفِ بَيْضَةٍ خارِجٍ مِنْهَا مَرْكَبَةٌ فَضائِيَّةٌ، إِنْسَــانٍ حاضِنٍ لِسَــمَكَةٍ)، كَمَا امْتَلأَتِ الجُدْرانُ بِالرُّمُوزِ غَيْرِ المَفْهومَةِ: أَقْواسٍ وَمُنْحَنَياتٍ، لَيْسَتْ ذَاتَ دَلالَةٍ عَلَى أَشْياءَ مَعْروفَةٍ لِلنَّاسِ، أَوْ لِأَيٍّ مِن الأَقَلِّيّاتِ الدّينيَّةِ أَوْ العِرْقيَّةِ، وَفي وَسَــطِ الشّارِعِ لَوْحَةٌ صَغيرَةٌ مَكْتوبٌ عَلَيْهَا: شارِعُ الحُرّيَّةِ، فَابْتَسَمَ نائِلٌ مُسْتَهْزِءًا:

– مَا هَكَذَا تَكونُ الحُرّيَّةُ!

رَدَّ شَادِي حَائِرًا:

- لِمَاذَا؟

- قَبْلَ أَنْ أَجِيبَكَ لِمَاذَا، هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُقَدِّمَ تَعْرِيفًا لِلْحُرِّيَّةِ؟

- أَظُنُّها أَنْ يَفْعَلَ الإِنْسَانُ مَا يَشَاءُ دُونَ الإِضْرَارِ بِالآخَرِينَ.

- عَلَى الرَّغْمِ مِنْ شُيوعِ هَذَا التَّعْرِيفِ، إِلَّا أَنَّهُ سَخِيفٌ.

- لِمَاذَا تَعْتَبِرُهُ سَخِيفًا؟ وَلِمَاذَا يَنْتَشِرُ إِذَا كَانَ سَخِيفًا؟

- لا يَعْتَمِدُ انْتِشارُ فِكْرَةٍ مَا عَلَى جَوْدَتِها، بَلْ عَلَى قُوَّةِ نَاشِرِها وَنُفوذِهِ، فَالأَقْوَى يَنْشُرُ، وَيَسِيرُ خَلْفَهُ الضَّعِيفُ كَمَا يَسِيرُ تِلْمِيذٌ نَاشِئٌ عَلَى خُطَى أُسْتَاذِهِ. أَمَّا لِمَاذَا أَعْتَبِرُهُ سَخِيفًا، فَلِأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَفْعَلَهُ دُونَ أَنْ يَرْتَبِطَ فِعْلُكَ بِالآخَرِينَ، هَلْ تَضُرُّ أَحَدًا إِذَا اسْتَهْلَكْتَ المُخَدِّرَاتِ وَحْدَكَ، وَفِي بَيْتِكَ؟ طَبْعًا، لِإِنَّنا فِي النِّهَايَةِ سَنَصِلُ إِلَى أَنَّ الدَّوْلَةَ تَدْفَعُ أَمْوَالًا طَائِلَةً لِعِلَاجِ الإِدْمانِ، أَلَيْسَتْ هَذِهِ أَمْوَالَ الآخَرِينَ! ذَلِكَ الَّذِي يَجْلِسُ فِي بَيْتِهِ ظَانًّا أَنَّهُ يَتَمَتَّعُ بِحُرِّيَّةِ اسْتِهْلاكِ المُخَدِّرَاتِ، وَأَنَّهُ لَا يُؤْذِي أَحَدًا، فِي النِّهَايَةِ سَيُكَلِّفُكَ مَادِّيًّا لِعِلاجِهِ دُونَ أَنْ يَعْرِفَكَ، إِمَّا لِأَنَّهُ جَهِلَ مَا يَفْعَلُ، أَوْ لِأَنَّهُ عَرَفَهُ وَلَكِنْ أَسَاءَ اسْتِخْدَامَهُ، لِذَلِكَ لَا بُدَّ لِمَفْهُومِ الحُرِّيَّةِ أَنْ يَرْتَبِطَ بِالْمَعْرِفَةِ وَبِالأَخْلاقِ.

- هَلْ لِي بِالْمَزِيدِ مِن التَّوْضِيحِ؟

- مَثَلًا؛ إنَّ إعْطاءَ رَجُلٍ بَسـيطٍ - لَا يَعْرِفُ مَتَاهَاتِ السِّياسَةِ - فُرْصَةً لِاخْتِيَارِ أَصْحـابِ القَرارِ، عَبَثٌ وَلَيْسَ حُرِّيَّةً، لِإنَّهُ لَا يَمْلِكُ المَعْرِفَةَ، فَلَنْ يَخْتارَ بِشَكْلٍ صائِبٍ، وَسَيُودي بِمُجْتَمَعٍ كامِلٍ إلَى التَّهْلُكَةِ، فَلا حُرِّيَّةَ دُونَ مَعْرِفَةٍ. وَإذَا كَانَ يَمْلِكُ المَعْرِفَةَ وَلَكِنَّ مَسـاعِيَهُ غَيْرُ أَخْلاقِيَّةٍ، فَسـتَكُونُ عَواقِبُ اخْتِيارِهِ وَخيمَةً عَلَى المُجْتَمَعِ أَيْضًا، فَلَا حُرِّيَّةَ دُونَ ضَوابِطَ أَخْلاقِيَّةٍ.

- وَمَاذَا عَن المُساواةِ؟ أَلَيْسَتْ مِنْ حُقوقِ ذَلِكَ الرَّجُلِ البَسيطِ؟

- أَجَلْ، مِنْ حُقوقِهِ، وَلَكِنَّ المُساواةَ الَّتي يَمْتَلِكُهَا هِيَ التَّمَتُّعُ بِالْحَقِّ نَفْسِـهِ الَّـذي يَتَمَتَّعُ بِهِ غَيْرُهُ في الحُصـولِ عَلَى المَعْرِفَةِ، وَلَيْسَ في اسْـتِخْدامِ جَهْلِهِ، فَإنْ حَصَلَ عَلَـى المَعْرِفَةِ أَصْبَحَ حُرًّا قَادِرًا عَلَى اتِّخاذِ القَرارِ، وَإلَّا فَقَدَ حُرِّيَّتَهُ.

- وَمَا هِيَ الأَخْلاقُ في رَأْيِكَ؟

- الأَخْلاقُ هِيَ الكَفُّ عَن ادِّعاءِ الحُرِّيَّةِ إذَا تَمَّ التَّسْليمُ بِقُصُورِ المَعْرِفَـةِ، أَيْ إنَّهَـا القُـدْرَةُ عَلَى اتِّخاذِ قَرارٍ أَلَّا تَكـونَ حُرًّا إذَا أَدْرَكْتَ أَنَّكَ لَا تَمْلِكُ المَعْرِفَةَ.

- إنَّ الأَخْلاقَ بِهَذَا التَّعْريفِ أَمْرٌ داخِلِيٌّ؟ أَيْنَ دَوْرُ المُجْتَمَعِ إذًا؟

- تَبْـدَأُ الأَخْلاقُ أَمْـرًا دَاخِلِيًّا، وَلَكِنَّ صَداهَـا يَنْعَكِسُ عَلَى المُجْتَمَـعِ، فَإذَا أَيْقَنْتَ أَنَّـكَ لَا تَمْلِكُ المَعْرِفَـةَ لِأَنْ تَكونَ حُرًّا،

وَصَمَتَ، فَهَـذَا يَعْني أنَّكَ كَبَحْتَ جِماحَ الكِـبر، مَا يَنْعَكِسُ في النِّهَايَةِ عَلَى اتِّزانِ مُجْتَمعِكَ، وَهُنَا تَتَجَلَّى أَخْلاقُكَ. أمَّا إذَا كَانَ مَا يَمْنَعُكَ مِنْ مُمارَسَـةِ الحُرِّيَّةِ خَارِجيًا، فَهَـذا يُدْعَى «قُيُودًا» اجْتِماعيَّةً، أَوْ «قوانينَ»، وَلَيْسَ أَخْلَاقًا.

– فالأَخْلاقُ تَتْبَعُ عَدَمَ المَعْرفَةِ إذًا؟

– بَلْ تَتْبَعُ المَعْرِفَةَ بِعَدَمِ المَعْرِفَةِ.

طَالَ الكَلامُ بِالرَّفيقَيْنِ حَتَّى وَصَلَا إلَى ناصيَةِ الشَّارِعِ، وَظَهَرَتْ يافِطَةٌ خَلْفِيَّتُها بَيْضاءُ، بَدَتْ لِلْوَهْلَةِ الأُولَى غَريبَةً عَن الشَّـارِعِ، إذْ لَمْ تَحْتَوِ عَلَى تِلْكَ الرُّموزِ وَلَا الأَلْوانِ المُنْتَشِرَةِ فِيهِ، بَلْ مَلَأَتْها عِباراتٌ قَصيرَةٌ باللَّوْنِ الأَسْوَدِ:

«الحُرِّيَّةُ لِآلِ الأَدْهَم»

«نَحْلُمُ بِأَنْ يَعيشَ آلُ الأَدْهَم بِسَلَام»

«أَيْنَ آلُ الأَدْهَم مِنْ دَعواتِكُمْ لِلْحُرِّيَّةِ!»

«مِنْ قَلْبِ شارِعِ الحُرِّيَّةِ . . . اتْرُكوا لِآلِ الأَدْهَم حُرِيَّةَ اتِّخاذِ قَرَارَاتِهِمْ»

وَجَّهَ نائِلٌ سُؤالَهُ لِشادي:

– مَنْ هُمْ آلُ الأَدْهَم؟

– لَيْسُوا بَيْتًا وَاحِدًا فَقَطْ، بَلْ هُمْ أَهْلُ الحارَةِ الجَنوبيَّةِ كُلِّها.

- مَا هِيَ حِكايَتُهُمْ؟ وَلِمَاذَا يُطَالِبُونَ بِالْحُرِّيَّةِ؟ وَمِنْ هُنَا؟
- لَا أَدْرِي بِالضَّبْطِ.

اشْتَعَلَ ذِهْنُ نائِلٍ بِالأَسْئِلَةِ، وَتَأَهَّبَ لإِعْلَانِ رَغْبَتِهِ فِي الْحُصُولِ عَلَى المَعْلُومَاتِ عَنْهُمْ كَمَا يَتَأَهَّبُ صَيَّادٌ نَهِمٌ لِالْتِهامِ فَرِيسَتِهِ، فَقَالَ:

- مَا رَأْيُكَ بِزِيَارَتِهِمْ؟

أَجَابَ شَادِي مُبْتَسِمًا:

- حَسَنًا.
- فَلْنَذْهَبْ صَبَاحًا إِذًا، لِيَكُونَ أَمَامَنَا اليَوْمُ بِطولِهِ.

الفَصْلُ الحَادِيْ عَشَرَ

آلُ الأَدْهَم

التّاريخُ طِفلٌ سَاذَجٌ، يُرَدِّدُ مَا يُمْلِيهِ عَلَيْهِ الكِبارُ دُونَ تَفْكيرٍ، فَيَـتْرُكُ صَفَحاتِهِ طَوْعًا لِهَوَى نُفوسِـهِمْ، وَالمَـرْءُ إذَا تُرِكَ لِهَوَى نَفْسِـهِ فَجَرَ حَتَّى لَمْ تَعُدْ تُحْصَى جَرائِمُـهُ. وَلَمْ يَعْرِفِ التّاريخُ جَريمَةً كَتِلْكَ الَّتي ابْتَدَعَهَا الإنْسانُ المُعاصِرُ، حِينَ تَبَنَّى الدَّوافِعَ القَدِيمَةَ لِسُـلوكِ أَسْـلافِهِ، وَغَلَّفَها مُخاتِلًا بِمُسَمَّياتٍ جَديدَةٍ مَلأَ بِهَا خِطاباتِهِ، ثُمَّ أَقَامَ لَهُمْ مُحاكَمَةً غَدَا بِهَا كَقاضٍ مُراوِغٍ يُصْدِرُ حُكْمَهُ بِمَشْـروعيَّةِ الجَريمَةِ، وَيُقِرُّ بِإعْدامِ الكَلِماتِ الوَحْشـيَّةِ الَّتي رَافَقَتْهَـا، لِنَجِدَ العالَمَ المُعاصِرَ قَدِ امْتَلأَ بِمُسَـمَّياتٍ بَرّاقَةٍ لِدَوافِعَ قَذِرَةٍ، «فَحُبُّ السَّيْطَرَةِ» وَجَدَ مَكْمَنًا لَهُ خَلْفَ «الطُّموحِ»، «وَاسْتِعْبادُ» آلِ الأَدْهَمِ أَصْبَحَ غايَةً ساميَةً -يُثْنى عَلَيْهَا المُسْتَعْبَدُ- إذَا سُمِّـيَ «تَنْميَـةً»، وَلَمْ يَسْـلَمِ «الإكْراهُ» مِنْ حُمَّى التَّسْـمِيَاتِ المُعاصِرَةِ حِينَ تَسَلَّلَ في مَسَامِّ «المُفَاوَضاتِ». فَهَلْ مَلَكَ شاكِرٌ فُرْصَةَ الرَّفْضِ حِينَ تَناوَلَ تِلْكَ الأَوْراقَ لِيوَقِّعَها!

أَمْسَكَ شاكِرٌ قَلَمًا ذَهَبيًّا مِنْ عَلَى مَكْتَبٍ أَسْوَدَ مَصْنوعٍ مِنْ خَشَبِ «المَاهِجُونِي»، وَفَتَحَ الصَّفْحَةَ الأَخيرَةَ مِنَ الأَوْراقِ هَامًّا بِالتَّوْقيعِ،

وَلَكِنَّهُ تَوَقَّفَ وارْتَشَفَ الشُّوكُولاتَةَ السّاخِنَةَ عَلَى مَهْلٍ، لِيُعْطِيَ نَفْسَــهُ مُهْلَةً يُرَتِّبُ فِيهَا مَا يَجولُ في خاطِرِهِ، فَسَــرَحَ بِأَفْكارِهِ، وَتَذَكَّرَ شُيوخَ الأَدْهَم الَّذِينَ اجْتَمَعُوا قَبْلَ بِضْعَةِ سَنَوَاتٍ لِلتَّصْويتِ عَلَى قَرارِ إِنْشــاءِ فُروعٍ أُخْرَى لِشَــرِكَةِ «أ.أ.ب.ل.س» في الحارَةِ الجَنوبيَّةِ، وَقَدْ تَمَّ إِنْشــاءُ فَرْعَيْنِ جَديدَيْنِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ عَدَدَ الشُّــيُوخِ الَّذِينَ أَبْدَوْا مُعارَضَتَهُمْ يَوْمَها لَمْ يَكُنْ قَلِيلًا. رَنَّ هاتِفُ ســائِدٍ، فَانْتَبَهَ شاكِرٌ، وَمَا زَالَتِ المِســاحَةُ المُخَصَّصَةُ لِلتَّوْقِيعِ - أَسْــفَلَ الكَلِماتِ: الطَّرَفُ الثّانِي/ شــاكِرُ الأَدْهَم - بَيْضاءَ. شَرِبَ شــاكِرٌ مَزِيدًا مِن الشُّوكُولاتَةِ، وَعادَ بِخَيالِهِ خَمْسِينَ عَامًا، حِينَ أَسَّسَ آلُ غَرِيبٍ شَرِكَةَ «أ.أ.ب.ل.س» مِنْ أَجْلِ اسْتِخْراجِ المَعادِنِ مِن الحارَةِ الجَنوبِيَّةِ، ثُمَّ شَــارَكَهُمْ فِيهَا لاحِقًا آلُ ياسِــيْن، وَآلُ الرَّيّانِ. ارْتَشَــفَ آخِرَ رَشْفَةٍ مِنْ كُوبِ الشُّوكُولاتَةِ، وَحَضَرَتْ إِلَى ذِهْنِهِ صورَةُ شُيوخِ الأَدْهَم مُجْتَمِعِينَ مَعَ خالِدِ المَرْزوقِ في بَيْتِهِ في الحارَةِ الشَّرْقِيَّةِ مُنْذُ سَنَةٍ، عَرَضَ حِينَهَا خالِدٌ تَسْخِيرَ إِمْكانيّاتِ أَبْنَائِهِ في مُســاعَدَةِ آلِ الأَدْهَم عَلى إِنْشَــاءِ الشَّــرِكاتِ في الحارَةِ الجَنوبِيَّةِ، والتَّنازُلَ عَن الدُّيونِ المُتَراكِمَةِ عَلَيْهِمْ. وَلَكِنَّ مِثْلَ هَذِهِ العُروضِ تَحْتَاجُ إِلَى الوَقْتِ الطَّويلِ لِتَدارُسِــها، وَإِلَى امْتِلاكِ حَقِّ اتِّخاذِ القَرارِ المُناسِبِ، وَهُمَا أَمْرَانِ لَا يَمْلِكُهُمَا شاكِرٌ الآنَ.

تَسَاقَطَتْ أَنْظارُ سائِدِ يَاسِينَ عَلَى شاكِرٍ:

- وَقِّعْ بِسُرْعَةٍ، فَلَيْسَ لَدَيَّ وَقْتٌ.

لَمْ يَبْقَ فِي كُوبِ شــاكِرٍ مَا يَسْمَحُ لَهُ بِالْمَزِيدِ مِن التَّفْكِيرِ، فَوَقَّعَ عَلَى الاتِّفاقِ.

* * *

فَاضَ مَوْقِفُ السَّــيَّارَاتِ بِالرُّكابِ الَّذِينَ يَتحَرَّكُونَ عَشْــوائِيًّا، وَيَتَهَافَتُــونَ عَلَى السَّــيَّارَاتِ القادِمَةِ نَحْوَهُمْ، حِــينَ وَقَفَ نائِلٌ وَشــادي يَبْحَثَانِ عَنْ سَــيّارَةٍ تُقِلُّهُمَا إِلَى أَيِّ مَكانٍ فِي أَعْماقِ الحارَةِ الجَنوبيَّةِ، وَبَعْضُ السَّــيَّارَاتِ في المَوْقِفِ هِيَ الَّــتي كانَتْ تَنْتَظِرُ الرُّكّابَ، اسْتَقَلَّ نائِلٌ وَشادي إِحْدَاهَا حِفْظًا لِلْوَقْتِ. شَقَّتِ السَّيّارَةُ طَرِيقَهــا جَنُوبًا عَــبْرَ الطُّرُقِ الضَّيِّقَةِ بَيْنَ البُيــوتِ الطّينيّةِ، الَّتي يُغَطّي سَــعَفُ النَّخِيلِ جُدْرانَها المُشَــقَّقَةَ، والْكَثــيرِ مِن البُيوتِ المُدَمَّــرَةِ، أَوْ غَيْرِ المُكْتَمِلِ بِناؤُهَا. لَا تُوحِي تِلْكَ البُيوتُ بِأَيَّةِ حَياةٍ بَيْنَ جَنَباتِها، فَلَوْلَا الأَطْفالُ الَّذِيــنَ يَلْهُونَ فِي أَطْرافِها لَظَنَّ المارَّةُ أَنَّهَا مَهْجورَةٌ مُنْذُ عُقودٍ. صَفَعَ السَّــيارَةَ غُبــارٌ يَتَطايَرُ مِنْ كُثْبانٍ رَمْليَّةٍ مَلَأَتْ جانِبَي الطَّرِيقِ، تَجَاوَزَتْهُ السَّــيارَةُ لِتَشُــقَّ طَرِيقَهَا عَبْرَ هَضْبَةٍ فِي مُنْتَصَفِ الحارَةِ تَقْرِيبًا، حَتَّى ضَاقَ الطَّرِيقُ بِأَسْرابِ العَابِرِينَ الَّذِيــنَ يَتحَرَّكُونَ فِي مَجْموعاتٍ كَبيرَةٍ، مُتَعَمِّدِينَ إِظْهارَ

الأَسْلِحَةِ البَيْضاءِ عَلَى جَنَباتِهِمْ، وَقَدْ تَنَاثَرَتْ حَوْلَهُم العِصِيُّ والْحِبالُ، والإِطَاراتُ المُحْتَرِقَةُ الَّتي تَنْفُثُ دُخانَها سُحبًا، فَتَتَرَاءَى مِنْ خَلْفِها مَحَلَّاتٌ مُغْلَقَةٌ. اخْتَلَطَ إيقَاعُ الجُمَلِ الموسيقيَّةِ الخارِجَةِ مِنْ مُسَجِّلِ السَّيَّارَةِ باللَّغَطِ المُتَدَاعِي إِلَى مَسامِعِ الرُّكَّابِ، ثُمَّ ظَهَرَ رِجالٌ يُطَارِدُونَ بَعْضَهُمْ بِالْعِصِيِّ والْحِجارَةِ والأَسْلِحَةِ البَيْضاءِ. أَكْمَلَ السَّائِقُ مَسيرَهُ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ، حَتَّى عَبَرَتِ السَّيَّارَةُ الطَّريقَ بِسَلامٍ، وَوَصَلَتْ إِلَى ناصيَةِ الشَّارِعِ، وَلَمَّا لاحَظَ نائِلٌ أَنَّ التَّوَغُّلَ في الحارَةِ أَكْثَرَ مُثيرٌ لِلْقَلَقِ، قَرَّرَ النُّزولَ مِنَ السَّيَّارَةِ فَوْرًا، والْبَحْثَ عَنْ مَكانٍ آمِنٍ يَلْجأُ إِلَيْهِ حَتَّى تَتَّضِحَ لَهُ الأُمورُ أَكْثَرَ.

تَقَدَّمَ نائِلٌ وَشادي بِضْعَ خَطَواتٍ إِلَى ناصيَةِ الشَّارِعِ، فَصادَفَهُمَا فَتًى -في مُنْتَصَفِ عَقْدِهِ الثَّانِي- هَزيلٌ لِدَرَجَةٍ أَصْبَحَ فِيهَا جِسْمُهُ غَيْرَ مُتَناسِقٍ مَعَ رَأْسِهِ، الَّذي بَدَا كَبِيرًا، وَدُموعُهُ تَقْطُرُ عَلَى العِظامِ البارِزَةِ مِنْ صَدْرِهِ العَارِي، قَالَ لَهُ نائِلٌ:

- مَا الخَطْبُ؟ لِمَاذَا تَبْكِي؟

- ضَرَبُوا أَبِي وَعَمِّي.

- مَنْ؟

رَدَّ مُشِيرًا -بِيَدَيْهِ النَّحِيلَتَيْنِ كَأَنَّهُمَا أَعْوَادُ قَصَبٍ- إِلَى مُنْتَصَفِ الشَّارِعِ:

- أُولَئِكَ الرِّجالُ.

أَخَذَ نائِلُ الوَلَدَ إلَى الشّارِعِ المُجَاوِرِ لِيُبْعِدَهُ عَنِ المُشاجَرَةِ، وَهَدَّأَ مِنْ رَوْعِهِ، وَلَمّا رَآهُ بَطِيئًا فِي مِشْيَتِهِ، أَشارَ لِشادي بِالْبَقاءِ مَعَهُ، وَتَقَدَّمَهُمَا نَحْوَ بِقالَةٍ قَرِيبَةٍ لِيَجْلِبَ بَعْضَ الطَّعامِ لِلْفَتَى. نَظَرَ الوَلَدُ إلَى الطَّعامِ لِبُرْهَةٍ، ثُمَّ انْقَضَّ عَلَيْهِ يَهْدِمُ أَرْكانَ الْجُوعِ الضّارِبَةَ فِي أَعْماقِ نَفْسِهِ، وَمَا إنْ أَعْلَنَ الشِّبَعُ عَنْ وُصُولِهِ حَتَّى اسْتَقْبَلَتْهُ عَيْنا الوَلَدِ بِالدُّمُوعِ اسْتِقْبالَ أَهْلِ البادِيَةِ لِلْمَطَرِ، كَانَ شُعُورًا غَرِيبًا عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَحضُرَ الطَّعامُ أَمامَهُ وَيَكُفَّ عَنْهُ، فَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ يَشْبَعُ، وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ يَعْرِفُ أَنَّهُ قَضَى حَياتَهُ جائِعًا.

جَلَسَ نائِلُ أَمامَ الفَتَى الْمُنْهَمِكِ فِي الأَكْلِ، وَلَمْ يُكَلِّمْهُ حَتَّى انْتَهَى، عَلَى الرَّغْمِ أَنَّهُ مُتَعَجِّلٌ لِلذَّهَابِ، وَلَكِنْ مَا كَانَ لَهُ أَنْ يَذْهَبَ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ الخَطْبَ، لِذَلِكَ تَوَجَّهَ بِسُؤالِهِ مُباشَرَةً لِلْفَتَى بَعْدَ أَن انْتَهَى مِنْ أَكْلِهِ:

- لِمَاذا يُطارِدُ أُولَئِكَ الرِّجالُ بَعْضَهُمْ؟

رَدَّ الغُلامُ بِصَوْتٍ غَيْرِ مَسْموعٍ، تَبْذُلُ عَضَلاتُهُ الضَّعِيفَةُ جَهْدًا لِتُخْرِجَهُ:

- هَؤُلَاءِ أَبْناءُ عُمومَةٍ، كَانُوا يَسْكُنُونَ بَيْتًا وَاحِدًا، ثُمَّ تَشاجَرُوا قَبْلَ سَبْعِ سَنَوَاتٍ.

صَمَتَ الفَتَى يُجَمِّعُ أَنْفاسَهُ، ثُمَّ تابَعَ:

- تَنازَعوا عَلَى البَيْتِ، وَقَسَّموهُ، وَمُنْذُ ذَلِكَ الوَقْتِ يَتَرَبَّصُونَ لِبَعْضِهِمْ، وَلَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا إِلَّا الشِّجارَ، وَحِمايَةَ المُمْتَلَكاتِ.

- وَلِماذا تَشاجَروا؟

- طِفْلٌ مِن العائِلَةِ شَتَمَ الذّاتَ الإِلَهِيَّةَ، فَضَرَبَهُ رَجُلٌ مُتَدَيِّنٌ مِنْ أَبْناءِ عَمِّهِ، فَقامَ أَبُو الطِّفْلِ بِضَرْبِ ذَلِكَ الرَّجُلِ، ثُمَّ أَصْبَحَتِ المُشاجَرَةُ بَيْنَ رِجالِ العائِلَةِ.

- لَو اسْتَغْفَرَ ذَلِكَ الطِّفْلُ اللّهَ لَسامَحَهُ.

خَفَتَتِ الأَصْواتُ القادِمَةُ مِن الشّارِعِ الَّذِي انْدَلَعَتْ فِيهِ المُشاجَرَةُ، فَقَدَّروا أَنَّها انْتَهَتْ، وَاتَّجَهُوا نَحْوَهُ. مَرَّ رَجُلٌ أَنيقٌ يُعْطِي مَجْموعَةً مِن الرِّجالِ الأَكْلَ وَالمالَ والسُّيوفَ وَالبَلْطاتِ، وَيَخْرُجُ مِن الشّارِعِ نَحْوَ سَيّارَةِ سِيتْروينَ فارِهَةٍ فِي الشّارِعِ المُجاوِرِ، فَقالَ الوَلَدُ:

- هَذا لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الحارَةِ!

اسْتَدْرَكَ شادِي:

- أَنَا أَعْرِفُهُ، هوَ أَحَدُ أَبْناءِ غَريبٍ.

* * *

انْتَشَرَ العُمّالُ بِالآلاتِ الثَّقيلَةِ قُرْبَ المَكْتَبِ الرَّئيسيِّ لِشَرِكَةِ

التَّعْدِينِ، جَنوبَ الحارَةِ الجَنوبيَّةِ، وَتَكَفَّلَتِ الرِّياحُ بِنَثْرِ ذَرَّاتِ التُّرابِ - الَّتي تَضُخُّها الأَرْضُ - عَلى وُجوهِ العُمَّالِ، فَأَخْفَتْ مَلامِحَهُمْ، وَتَكَبَّدُوا مَشَقَّةً في مَعْرِفَةِ بَعْضِهِمْ، فَارْتَأَتِ الإدارَةُ أَنْ يَخيطَ كُلٌّ مِنْهُمْ رَقْمًا ضَخْمًا عَلى قَميصِهِ يُعْرَفُ بِهِ. جَلَسَ «١٧» الَّذي يَتَصَبَّبُ عَرَقًا لِيَرْتاحَ قَليلًا، وَيَشْرَبَ بَعْضَ الْماءِ، فَنَكَزَهُ «٤٠» بِعَصاهُ:

- انْهَضْ أَيُّهَا الوَغْدُ، هَلْ نُعْطِيكَ الأَمْوالَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَسْتَريحَ!

قَامَ الرَّجُلُ دُونَ أَنْ يَتَلَفَّظَ بِكَلِمَةٍ، فَاقْتَرَبَ مِنْهُ نائِلٌ يُواسِيهِ:

- لَا عَلَيْكَ.

قَالَ الرَّجُلُ غاضِبًا:

- نَحْنُ أَوَّلُ مَن اسْتَقَرَّ في هَذَا الحَيِّ، ثُمَّ جاءَ هَؤُلاءِ الْحُثالَةُ مِن الْحَارَاتِ الأُخْرَى لِيَسْتَعْبِدُونَا، وَبِأَيْدي أَبْنَائِنَا، لَا أَدْري مَن الوَغْدُ، نَحْنُ أَمْ هُمْ!

صَمَتَ قَليلًا، ثُمَّ أَكْمَلَ:

- عَلَيَّ أَنْ أَعودَ إِلَى العَمَلِ الآنَ، لَا أُريدُ المَزيدَ مِن الإهَانَاتِ.

جَذَبَ كَلامُ الرَّجُلِ انْتِباهَ نائِلٍ حِينَ اشْتَمَّ الصِّراعَ فِيهِ؛ «نَحْنُ، وَهُمْ، وَاسْتِعْبادٌ»، ثُلاثيَّةٌ مُغْرِيَةٌ لِلْبَحْثِ، فَقَالَ شَغِفًا:

- حَسَنًا، لَا تُحَلُّ المَشاكِلُ بالْغَضَب. وَلَكِنْ هَلْ لَنَا بِلِقائِكَ مَرَّةً أُخْرَى بَعِيدًا عَن العَمَلِ؟ حَتَّى لا نُحْرِجَكَ.

أَجَابَ الرَّجُلُ بِحَذَرٍ:

- حَسَنًا، مَسَاءً، فِي المَقْهَى الشَّرْقِيِّ لِلْحَارَةِ، اسْمِي حَسَنُ يامِن الأَدْهَم.

ثُمَّ اسْتَدْرَكَ مُحَذِّرًا:

- إِيَّاكَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى المَقْهَى الغَرْبِيِّ.

* * *

وَصَلَ نائِلٌ وَشَادي إِلَى المَقْهَى في السّادِسَةِ، عِنْدَمَا بَدَأَ اللَّيْلُ يَنْفُثُ خُيوطَهُ السَّوْداءَ في كَبِدِ السَّماءِ تُعْلِمُ الأَرْضَ أَنَّ زائِرَها اليَوْمِيَّ قادِمٌ. أَخْرَجَ نائِلٌ مِنْديلًا مِنْ جَيْبِهِ، وَمَسَحَ الطّاوِلَةَ المُغَطّاةَ بِالرِّمَالِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَا. طَلَبَا الشّايَ تَحْتَ سِهامٍ مِن النَّظَراتِ المُتَجَهِّمَةِ المُوَجَّهَةِ نَحْوَهُمَا، وَجَلَبَ النَّادِلُ الضَّخْمُ كُوبَيِ الشّاي في أَكْوابٍ مَكْسورَةِ الأَطْرافِ، بَدَتْ ضَئيلَةً في يَدِهِ المَليئَةِ بِخَواتِمِ الفِضَّةِ الكَبيرَةِ، وَقَالَ بِصَوْتِهِ العَريضِ:

- مَنْ أَنْتُمَا؟

اسْتَغْرَبَ شَادِي السُّؤالَ، وَصَمَتَ نائِلٌ يَقْرَأُ مَا يُخْفيه، مُسْتَعِينًا بِالْمَشاهِدِ الَّتي رَآهَا مُنْذُ دُخولِهِ الْحارَةَ، لا يُمْكِنُ فَهْمُ نَبْرَةِ النَّادِلِ

دُونَ المُـرورِ عَلَى كُلِّ الوُجوهِ العَابِسَـةِ الَّتي تَمْلأُ الْحـارَةَ، وَالَّتي تَسْتَشْـعِرُ التَّهْديدَ حَتَّى في نَوْمِها. وَالتَّهْدِيدُ طِفْلٌ أَرْعَنٌ، مَعْذورٌ في كُلِّ أَفْعالِـهِ، فَلَا يُطْلَبُ مِنْهُ تَبْريرٌ. لَمْ تَكُـنْ نَبْرَةُ النَّادِلِ وَمُحْتَوَى كَلامِهِ إلَّا حيلَةً دِفاعيَّةً لِرَدْعِ تَهْديدٍ مُفْتَرَضٍ. فَرَدَّ نائِلٌ مُبْتَسِمًا:

– نَنْتَظِرُ حَسَنَ يامِنِ الأَدْهَم.

لَمْ يَطْمَئِنَّ النَّادِلُ، وَاسْـتَمَرَّتْ نَظراتُـهُ المُرْتابَةُ موَجَّهَةً نَحْوَ نائِلٍ وَشادي، وَلَمْ يَهْدَأْ وَقْعُها إلَّا بِقُدُوم حَسَنٍ، وَتَرْحيبِهِ بِهِمَا:

– اجْلِبْ لَنَا ثَلاثَةَ أَكْوابٍ مِن الشّاي المَخْلوطِ بِالْحَليب.

بِالْكَادِ التَفَتَ إِلَيْهِ النَّادِلُ، وَنَادَى بِصَوْتِهِ الجَهْوَرِيِّ:

– حَضِّرْ ثَلاثَةَ أَكْوابٍ مِن الشّاي مَعَ الحَليب.

كَانَ حَسَـنٌ أَيْضًا مُرْتابًا، يُفَكِّرُ في سِرِّ نائِلٍ وَشادي بِقَلَق، فَقَد اعْتـادَ عَلَى الغُرَباءِ أَعْداءً، إِمَّـا مُقَاتِلِينَ أَوْ تُجَّارًا، وَلَمْ يَبْدُ نائِلٌ وَشـادي مِن النَّوْعِ الأَوَّلِ، وَلَيْسَ عِنْدَ حَسَـنٍ شَـيْئًا يُغْري النَّوْعَ الثَّانِيَ بِالْقُـدوم، فَهَلْ هُنَاكَ نَوْعٌ ثالِثٌ مِـن الغُرَباءِ؟ أَرَادَ نائِلٌ طَمْأَنَةَ حَسَنٍ حِينَ أَحَسَّ بِالرِّيبَةِ عَلَى وَجْهِـهِ، فَقَالَ:

– الأُمورُ مُتَوَتِّرَةٌ هُنَا، وَلَا شَـكَّ أَنَّ الغُرَباءَ مُثيرونَ لِلرِّيبَةِ، هُنَاكَ الكَثيرُ مِن الأَعْداءِ، لَكِنَّا لَسْـنا مِنْهُمْ، وَلَا نُريدُ شَـيْئًا إِلَّا مَعْرِفَةَ إِذَا كُنْتُمْ أَوَّلَ مَنْ سَكَنَ الحَيَّ.

لَمْ يَتَناقَصِ اسْتِغْرابُ حَسَنٍ، بَلْ أَضافَ سُؤالُ نائِلٍ المَزيدَ مِن الأَسْئِلَةِ في ذِهْنِهِ، لِماذا يُريدُ هَذَا الغَريبُ أَنْ يَعْرِفَ تَاريخَ الحَيِّ؟ وَلِماذا عَلَيَّ أَنْ أُجيبَ؟ صَمَتَ حَسَنٌ مُتَرَدِّدًا، فَتابَعَ نائِلٌ:

- لَكَ كُلُّ الحَقِّ أَنْ تَمْتَنِعَ عَنِ الإِجابَةِ.

ابْتَسَمَ حَسَنٌ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُذْ رَآهُ نائِلٌ، حَتَّى وَإِنْ كانَتِ ابْتِسامَةً ساخِرَةً، فَهَذا الغَريبُ يَقُولُ إِنَّ حَسَنَ يَمْتَلِكُ حَقَّ الإِجابَةِ، إِنَّهُ غَريبٌ فِعْلًا، هَلْ يُفَكِّرُ مَنْ يَصِلُ لَيْلَهُ بِنَهارِهِ لِتَأْمينِ قُوتِ يَوْمِهِ في حَقِّهِ بِالْإِجَابَةِ. فَكَّرَ حَسَنٌ في كَلِماتِ نائِلٍ، وَبَدَأَ يُفاضِلُ بَيْنَ الإِجابَةِ والامْتِناعِ، الإِجابَةُ تَجْلُبُ الفَخْرَ، والنّاسُ في الحارَةِ الجَنوبيَّةِ يُحِبُّونَ الفَخْرَ حَتَّى دُونَ أَمْجادٍ، وَهَذا مَجْدٌ حَقيقيٌّ قادِمٌ خَليقٌ بِالْاسْتِغْلالِ، أَمَّا الامْتِناعُ فَلا دَاعِيَ لَهُ سِوَى الرِّيبَةِ، وَهِيَ شُعورٌ يَوْمِيٌّ أَتَى حَسَنٌ إِلَى الدُّنْيا فَوَجَدَهُ مُقيمًا في الحارَةِ الجَنوبيَّةِ، وَهَذانِ الغَريبانِ يَبْدُوانِ طَيِّبَين. ارْتَبَكَ حَسَنٌ، فَالْمَرّاتُ الَّتي مَلَكَ فِيهَا القُدْرَةَ عَلَى التَّفْكيرِ والاخْتيارِ قَليلَةٌ، ثُمَّ رَدَّ بِزَهْوٍ:

- نَعَمْ، نَحْنُ أَوَّلُ مَنْ جاءَ إِلَى هَذَا الحَيِّ، ثُمَّ عُمِّرَتِ الْحارَاتُ المُجاوِرَةُ. وَتَعاقَبَتِ العُقودُ حَتَّى جاءَ هَؤُلاءِ الأَوْغادُ بِثَرَواتِهِمْ، وَأَنْشَؤوا شَرِكاتٍ لَدَيْنَا، لِيَنْتَهِيَ بِنَا المَطافُ مُوَظَّفِينَ لَدَيْهِمْ.

قَبْلَ مِائَةٍ وَسَبْعِينَ عَامًا، غَزَا أَحَدُ شُيوخِ الْحارَةِ الشَّماليَّةِ الحارَةَ الجَنوبيَّةَ، إذْ جَلَبَ رجالَهُ وَاعْتَدَى عَلَى البُيوتِ والْمزارِعِ. وَلَمْ يَكُنْ رِجالُهُ أَشَدَّ بَأْسًا مِنْ أَهْلِ الْحارَةِ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا أَكْثَرَ تَنْظِيمًا، فَسَرَقوا البُيوتَ، وَنَهَبُوا الخَيْرَاتِ الَّتي جَذَبَتْ شُيوخَ الْحارَةِ الشَّماليَّةِ كُلَّهُمْ بِمُجَرَّدِ أَنْ عَلِموا بِهَا، فَأَضْحَتِ الحارَةُ الجَنوبيَّةُ بِكُلِّ مَا فِيهَا مِلْكًا لِشُيوخِ الشَّمالِ. ثُمَّ تَوَالَتْ سُنونٌ حَاوَلَ الحَيُّ فِيهَا أَنْ يُصْبِحَ أَكْثَرَ تَحَضُّرًا، فَتَغَيَّرَتِ النَّظْرَةُ لِلْغَزْوِ، وَأَصْبَحَ غَيْرَ مَقْبُولٍ، وَلَكِنْ مَا غَنِمَهُ الْمُتَحَضِّرُونَ يُطارِدُهُمْ في كَوابيسِ اليَقَظَةِ، فَأَنَّى لَهُم ادِّعاءُ الحُرِّيَّةِ وَدِماءُ أَبْناءِ الحارَةِ الجَنوبيَّةِ - وَغَيْرِها مِن الْحَارَاتِ - تُلَطِّخُ أَثْوابَهُمْ! لَمْ يَكُنِ التَّخَلِّي عَنْ تِلْكَ الغَنائِمِ مَطْرُوحًا، فَفَكَّروا في اسْتِمْرارِ الاسْتيلاءِ عَلَيْهَا وَلَكِنْ بِشَكْلٍ إنْسانيٍّ، فَخَلَعَ شُيوخُ الشَّمالِ ثَوْبَ البَاغي اللِّصِّ وَبَدَّلوهُ بِثَوْبِ المُعَلِّمِ المُحْسِنِ، الَّذي يُعَلِّمُ النّاسَ الْحُرِّيَّةَ والْعَدالَةَ والْحُقوقَ، وَيَبْني الشَّرِكاتِ، وَيُوَفِّرُ العَمَلَ لِلنَّاسِ، في حِينِ كَانُوا يَتَدَخَّلونَ في أَدَقِّ التَّفاصيلِ الخاصَّةِ بِأَهْلِ الجَنوبِ: التَّعْليمِ والصِّحَّةِ وَعَلاقاتِ النّاسِ بِبَعْضِهِمْ، حَتَّى أَصْبَحَ الكَثيرُ مِنْ عامَّةِ الجَنوبِ يُقَلِّدُونَهُمْ باعْتِبَارِهِمْ قُدْوَةً وَرَمْزًا لِلإنْسَانِ الْمُتَحَضِّرِ، وَفي الْمُقَابِلِ لَمْ يَرُقْ هَذَا لِلنُّخَبِ والْقادَةِ في الجَنوبِ، فَثاروا عَلَى تِلْكَ

التَّدَخُّلَاتِ، وَطَرَدُوا أَهْلَ الشَّمالِ القَاطِنِينَ عِنْدَهُمْ، وَلَكِنْ بَقِيَتِ الشَّركاتُ؛ لِأَنَّهَا مَصْدَرُ رِزْقِ الكَثِيرِينَ في الجَنوبِ، وَلِأَنَّ لَيْسَ لَهَا بَديلٌ، وَلَكِنَّها بَقِيَتْ بِنُفوذِها وَاسْتِغْلَالِهَا وَفِتَنِها، حَتَّى مَلَأَتِ المَشاكِلُ وَالشِّجاراتُ والنِّزاعاتُ الحارَةَ الجَنوبيَّةَ.

دَقَّتِ السّاعَةُ الثّانيَةَ عَشْرَةَ، والرَّعْدُ المُنْبَثِقُ مِنْ وَسَطِ الْغُيومِ السَّوْداءِ أَذَابَ الجَليدَ المُغَلِّفَ لِحَواسِّ نائِلٍ وَشادي، لَا بُدَّ أَنَّ السَّماءَ سَتُمْطِرُ قَريبًا. سَلَّمَ نائِلٌ وَشادي عَلَى حَسَنٍ مُوَدِّعَيْنِ، وَلَمْ يَكُنْ بِنِيَّتِهِمَا البَقاءُ لِلْيَوْمِ التَّالِي، وَلَكِنْ سَرَقَهُمَا الوَقْتُ، فَقَرَّرَا المَبيتَ والرّاحَةَ، وَدَخَلَا أَقْرَبَ فُنْدُقٍ عَثَرَا عَلَيْهِ.

* * *

اسْتَيْقَظَ نائِلٌ وَحَضَّرَ فَطورًا سَريعًا، وَجَهَّزَ بَعْضَ الشَّطائِرِ وَعُلَبَ المَاءِ لِيَتَزَوَّدَ بِهَا مَعَ شَادِي فِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِمَا. مَا يَزَالُ شَادِي نَائِمًا، وَقَدْ أَثَارَتْ هَيْئَتُهُ الَّتِي تُشْبِهُ عُودًا جَافًّا مُلْقًى عَلَى أَطْرافِ الطَّريقِ الرَّحْمَةَ فِي قَلْبِ نائِلٍ، فَلَمْ يُحَاوِلْ إيقاظَهُ، وَتَرَكَهُ حَتَّى اسْتَيْقَظَ وَحْدَهُ وَاجِمًا، فَلَمْ يَبْقَ فِي النَّفْسِ مُتَّسَعٌ مِنْ جَلَدٍ، إِذْ اسْتَنْزَفَتْ مَخْزونَها مِنَ الصَّبْرِ عَلَى فِراقِ الأَهْلِ، وَأَجْهَزَ التَّفْكيرُ فِي الصِّراعِ عَلَيْهَا، فَانْبَغَى لَهَا الرَّحيلُ، أَمَّا نائِلٌ فَقَدْ عَرَفَ مَا جَاءَ لِأَجْلِهِ، وَانْتَهَتْ غايَتُهُ. وَكُلُّ شَيْءٍ يَسْتَدْعِي المُغادَرَةَ. قَالَ نائِلٌ:

- هَيّا بنَا؟

صَمَتَ شَادِي مُوَافِقًا، فَتَابَعَ نائِلٌ:

- سَنَمُرُّ فِي طَرِيقِنا عَلَى المَنَاجِمِ، مَا رَأْيُكَ أَنْ نُسَلِّمَ عَلَى حَسَنٍ سَرِيعًا؟

- حَسَنًا.

نَزَلا لِدَقيقَــةٍ واحِدَةٍ يُودِّعَانِ الرَّجُلَ، ثُــمَّ هَمَّا بِالرَّحِيلِ، إِذْ لَمْ يَشَــاءَا إِحْراجَهُ أَثْنَــاءَ عَمَلِه. وَعِنْدَ مُغادَرَتِهِمَا مَرَّتْ سَــيَّارَةُ مِرْسِــيدِس، نَزَلَ مِنْهَا رَجُلٌ يَرْتَدِي مِعْطَفًــا طَويلًا مِن الصّوفِ وَيَحْمِلُ حَقيبَةً سَــوْداءَ، سَرَقَ نَظَراتِ شَــادِي الَّذِي كَانَ يُتَابِعُهُ حَتَّــى دَخَــلَ المَبْنَى الرَّئيسِــيَّ لِلشَّــرِكَةِ، وَخَرَجَ سَــرِيعًا تَارِكًا الْحَقِيبَةَ، فَقَالَ نائِلٌ:

- مَا بَالُ الرَّجُلِ يَا شَادِي؟ لِمَاذَا تُلاحِقُهُ بِنَظَرَاتِكَ؟

أَجابَ شَادِي مَشْدُوهًا:

- إِنَّهُ حامِدُ قَابِيلَ، أَعْرِفُهُ، هوَ مِنْ سُكّانِ حَارَتِنَا، مَاذَا يَفْعَلُ هُنَا!

الفَصْلُ الثَّاني عَشَرَ

كَلامٌ وَكَلْمَى

تَابَعَـتِ السَّـيّارَةُ طَرِيقَها شَمالًا. أَخْرَجَ نائِلٌ الشَّـطائِرَ الَّتي حَضَّرَها مُسْبَقًا، لَمّا يَجُعْ بَعْدُ، وَلَكِنَّ المَشاهِدَ في الحارَةِ الجَنوبيَّةِ تَسْـتَدْعِي النُّفورَ المَصْحوبَ بِبَعْضِ الفُضولِ، فَلَا تَرْغَبُ النَّفْسُ في رُؤْيَتِها لِمَرَّةٍ ثانيَةٍ، لِذَلِكَ آثَرَ نائِلٌ إِشْغالَ نَفْسِهِ بِالطَّعَامِ، مُشْفِقًا عَلَى سـائِقي التّاكْسـي الَّذِينَ يَرَوْنَهَا كُلَّ يَوْمٍ، وَلَا يَرَوْنَ غَيْرَها. قَدَّمَ الأَكْلَ لِشـادي، فَهَزَّ رَأْسَهُ رَافِضًا. وَأَخَذَ نائِلٌ يُراقِبُ راحَةَ يَدِ شَادي اليُمْنَى وَهِيَ تَسْـتَقِرُّ عَلَى بَطْنِهِ، وَأَصابِعَ يَدِهِ اليُسْرَى تَقْرُصُ شَعْرَةً نابِتَةً عَلَى حُدودِ ذَقَنِهِ، فَقَالَ لَهُ:

- نَحْنُ عَلَى مَشارِفِ الخُروجِ مِنْ هَذِهِ الحارَةِ البائِسَةِ.

ثُمَّ ضَحِكَ وَتابَعَ:

- هَيّا تَناوَلْ فَطورَكَ لِتَدْخُلَ الْحارَةَ الشَّماليَّةَ بِكامِلِ تَرْكيزِكَ.

أَكَلَ شَـادِي، وَشَـرِبَ الشّـايَ، ثُمَّ بَدَأَ بِالْحَدِيثِ، والسَّيّارَةُ تَمْضي في الْحارَةِ الشَّـماليَّةِ، حَتَّى وَصَلَتْ مَبْنَى حَديقَةِ الأَسْماكِ الَّذي عَرَّجَا عَلَيْهِ قادِمَيْنِ، فَقالَ نائِلٌ:

- سَتَذْكُرُ ذَلِكَ الدُّولفينَ اللَّطيفَ عُمُرَكَ كُلَّهُ.

ابْتَسَمْ شَادِي، وَقَالَ:

- نَعَمْ، لَقَدْ قَضَيْنَا أَوْقَاتًا لَطيفَةً هُنَا.

وَلَمَّا رَأَى نائِلُ أَنَّ شَادِيًا قَدْ أَصْبَحَ فِي حالَةٍ أَفْضَلَ، عَاجَلَهُ بِالسُّؤَالِ المُؤَجَّلِ الَّذِي يَشْغَلُ ذِهْنَهُ:

- مَنْ هوَ حامِدُ قَابِيلَ؟

وُلِدَ حامِدُ لِأَبٍ بَسيطِ الْحَالِ، وَحِينَ أَتَمَّ عامَهُ الأَوَّلَ، تَزَوَّجَتْ خالَتُهُ سَعْدِيَّةُ مِنْ مُحْسِنِ قَابِيلَ، المُوَظَّفِ فِي إِحْدَى أَجْهِزَةِ الدَّوْلَةِ، وَالَّذِي لَمْ يَمْلِكْ مِنْ مُقَوِّمَاتِ الزَّواجِ إِلَّا أَهَمَّها فِي أَعْرافِ الحارَةِ الشَّرْقيَّةِ: المَالَ، بَيْنَمَا لَمْ يَجِئْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ العَروسِ عَلَى ذِكْرِ سُوءِ خُلُقِهِ وَدَناءَةِ نَفْسِهِ، وَلَا حَتَّى تَرْقياتِهِ المُتَسارِعَةِ المُريبَةِ، بَلْ اعْتَبَرَها بَعْضُهُمْ نَشَاطًا زَائِدًا وَتَحَمُّلًا مُفْرِطًا لِلْمَسْؤُولِيَّةِ، فَأُعْجِبوا بِهِ مُسْتَذْكِرِينَ بِحَسْرَةٍ ضَعْفَ هِمَّةِ زَوْجِ ابْنَتِهِمْ الكُبْرَى -الَّذِي هوَ أَبُو حامِدٍ- فَالنَّاسُ فِي الحارَةِ الشَّرْقيَّةِ يَعْشَقُونَ المُقارَنَةَ، وَعَلَيْهِ فَقَدْ أَتَمّوا مَراسِمَ الزَّواجِ. وَلَمْ تَنْتَهِ السَّنَةُ الأُولَى مِن الزَّواجِ إِلَّا وَقَدْ أَنْجَبَتْ سَعْدِيَّةُ تَوْأَمًا مِن الصِّبْيانِ، أَصْبَحَا بِحُكْمِ الجِوارِ أَصْدِقاءَ لِحامِدٍ، وَكَانَ بَيْتُهُم المَليءُ بِالأَلْعَابِ مَكانَهُم المُفَضَّلَ لِإِشْباعِ رَغَباتِ الطُّفولَةِ، يَتَلَذَّذُ

فِيــهِ حامِدٌ بِتَمْضِيَةِ وَقْتِهِ، قَبْلَ أَنْ يَعودَ إِلَى بَيْتِهِ مُتَحَسِّــرًا عَلَى بُؤْسِــهِ حِينَ يَسْــتَحْضِرُ مَا لا يَمْلِكُهُ. والْغَيْرَةُ شَبَحٌ جَبانٌ، تُقَدِّمُ لَــهُ الرَّغَبَاتُ غَــيْرُ الْمُنْتَهِيَةِ عَلَى أَطْباقٍ مِن الخَيــالِ، وَكُلَّمَا أَكَلَ أَكْثَرَ جَاعَ أَكْثَر، وَإِذَا اسْتَشْــعَرَتِ النَّفْــسُ وُجودَهُ أَنْصَفَها الكِبْرُ ظَالِمًا، حِينَ يَلْجَأُ لِلْحَظِّ فَيُعَلِّقُ عَلَيْهِ أَسْبابَ فَشَلِهِ. فِي أَحَدِ الأَيّامِ، زَارَ حامِدًا ذَلِكَ الشُّــعورُ المَقيتُ مُبَكِّرًا، قَبْلَ أَنْ يَمْضِيَ إِلَى بَيْتِهِ، فَسَرَقَ لُعْبَةً وَكَسرَهَا، لَعَلَّ تِلْكَ اللُّعْبَةَ لا تَجِيءُ إِلَى خاطِرِهِ مَعَ مَا يَجِيءُ، فَتَنْقُصُ أَسْبابُ حَسْرَتِهِ وَاحِدًا، وَلَنْ يَشْعُرَ الصِبْيَةُ بِلُعْبَةٍ مَفْقــودَةٍ يَلْهُونَ بِهَا لَيْلَةً ثُمَّ يَنْسَــوْنَها. وَتَكَرَّرَ الأَمْرُ حَتَّى أَصْبَحَ دَيْدَنَ حامِدٍ، وَلَكِنَّ الحَسْرَةَ لَمْ تَتَضاءَلْ يَوْمًا.

شَــبَّ حامِــدٌ وَطَبْعُهُ الْمُخَــرِّبُ يُرَافِقُ طِباعًا أُخْــرَى تُلائِمُهُ، فَالطِّباعُ عِقْدٌ مَوْصُولٌ تَتَناسَــقُ حَبَّاتُهُ، وَتَرْتَديهِ النَّفْسُ إِلَى الأَبَدِ. فِي أَحَدِ الأَيّامِ رَأَى حامِدٌ سَيّارَةَ كَادِيلَاك تَقِفُ أَمَامَ مَطْعَمٍ فَخْمٍ فِي الحارَةِ الشَّــرْقِيَّةِ، تَرَكَهَا صاحِبُها مَفْتوحَةً، وَنَزَلَ لِيَأْخُذَ الأَكْلَ سَــرِيعًا، فَاسْــتَغَلَّ حامِدٌ هَذِهِ الدَّقائِقَ المَعْدُودَةَ، وَرَكِبَ السَّيّارَةَ لِيَتَسَــكَّعَ بِهَا، وَبَعْدَ أَن انْتَهَى تَرَكَها تَسيرُ بِاتِّجَاهِ البَحْرِ، وَلَمْ يَعُدْ أَدْرَاجَهُ إِلَّا وَقَد التَهَمَها البَحْرُ التِهامًا.

وَقَبْلَ خَمْسِ سَــنَوَاتٍ كَانَ يَمْشــي لَيْلًا بِمَلابِسِــهِ الْمُهَلْهَلَةِ،

وَشَــعْرِهِ الأَشْــعَثِ، وَفَجْأَةً، انْزَلَقَتْ قَدَمُهُ، فَانْقَلَبَ عَلَى ظَهْرِهِ يُرَفِّصُ بِقَدَمَيْهِ، كَمَا يَنْقَلِبُ صَرْصارٌ هَرَبًا مِنْ حِذاءٍ، فَقامَ ساخِطًا، وَرَكَلَ نَتْئًا بَارِزًا أَمامَهُ، فَطارَ وَسَقَطَ عَلَى بُعْدِ أَمْتَارٍ. تَسَمَّرَ حامِدٌ مَكانَهُ حِــينَ رَأَى النَّتْءَ يَبْرُقُ بِلَوْنٍ ذَهَــبِيٍّ بَيْنَ التُّرابِ، فَأَخَذَ نَفَسًــا عَمِيقًا، وَهُوَ يَتَلَفَّــتُ فِي كُلِّ الاتِّجاهاتِ، قَبْــلَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَيْهِ. نَفَضَ التُّرابَ عَنْهُ مُرْتَعِشًا، وَوَضَعَهُ تَحْتَ سُتْرَتِهِ المُقَطَّعَةِ، وَمَضَــى. كَانَتْ صُدْفَةً مِمَّــا يُخَبِّئُهُ القَدَرُ، وَهَدِيَّةً غَــيْرَ مُتَوَقَّعَةٍ دُونَ إِمْضَــاءٍ، والصُّدْفَةُ كالْمَوْتِ تَــزُورُ صاحِبَها مَرَّةً واحِدَةً فَقَطْ، فَتَتَكَفَّلُ بِتَبْدِيلِ الأَحْوَالِ، وَجَعْلِ الشَّــقِيِّ سَعِيدًا، وَالْمُعْدَمِ ثَرِيًّا، وَالْحَقِيرِ ذَا سُــلْطَةٍ. وَبَيْنَ لَيْلَةٍ وَضُحَاهَا، أَصْبَحَ حامِدٌ مُتْرَفًا بَعْدَ أَنْ بَاعَ غَنِيمَتَهُ لِأَحَدِ أَبْناءِ ياسِــين. وَمُنْذُ تِلْكَ الصَّفْقَةِ، قَامَ حامِدٌ بِالْعَدِيــدِ مِن الأَعْمالِ غَيْرِ القانونيَّةِ لَدَيْهِــمْ فِي أَماكِنَ مُخْتَلِفَةٍ فِي الحَيِّ، وَأَصْبَحَتِ الْحارَةُ الشَّماليَّةُ مَكانَهُ المُفَضَّلَ لِلتَّسَكُّعِ واللَّهْوِ -اللَّذَيْنِ لَا تُقَدِّمُهُمَا لَهُ الحارَةُ الشَّــرْقِيَّةُ بِخياراتِها المَحْدودَةِ- وَالإِحْسَــاسِ بِاحْتِرامِهِ لِنَفْســهِ، فَفِي الحارَةِ الشَّــرْقِيَّةِ يَدْعونَهُ «نَــذْلًا» وَفِي الحارَةِ الشَّــماليَّةِ «مِيكَافِيلِيًّــا»[1]، وَلَمْ يَعُدْ يَمُرُّ فِي الحارَةِ الشَّرْقِيَّةِ إِلَّا حِينَ يَقْتَنِي شَيْئًا ثَمِينًا يُبَاهِي بِهِ هُنَاكَ.

(١) الشَّــخْصِيَّةُ الْمِيكَافِيلِيَّــةُ فِي عِلْمِ النَّفْسِ هِيَ الَّتِي يَتَمَيَّــزُ صاحِبُها بِتَقْدِيمِ مَنافِعِهِ عَلَى القِيَمِ الأَخْلاقِيَّةِ والْعَواطِفِ، فَيَتَمَتَّعُ بِصِفاتٍ مِثْلِ القَسْوَةِ وَالغِشِّ.

وَصلَتِ السَّـيّارَةُ حُدودَ الحارَةِ الشَّرْقيَّةِ، فَأَطَلَّتْ مَلامِحُ بَيْتٍ عَتيقٍ شـامِخٍ بَدَا مَأْلُوفًـا لِنائِلٍ، كَأَنَّهُ رَآه قَبْـلًا، تَذَكَّرَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَ شَادِيًا عَنْهُ؛ لِأَنَّ بَيْتًا كَمِثْلِهِ لَا يُنْسَى، هوَ ذَلِكَ البَيْتُ الَّذِي يُجاوِرُ بَيْتَ الحاجّةِ آمِنَةَ. تَمْتَمَ نائِلٌ مُسْتَدْرِكًا مَا نَسِيَهُ: «صَدْمَةُ رَشادٍ نِزارِ الرَّيّانِ»، فَقَالَ لِشادي:

- مَا رَأْيُكَ فِي زِيارَةٍ خاطِفَةٍ لِلْحَاجّةِ آمِنَةَ؟ أَعْرِفُ أَنَّكَ مُرْهَقٌ، وَلَكِنَّا سَنَحْتَسِي الشّايَ وَنَخْرُجُ سَرِيعًا.

- حَسَنًا.

وَصلَا بَيْتَ آمِنَةَ، وَلَمْ تَسْتَقْبِلْهُمَا رائِحَةُ البَخورِ، بَلْ رائِحَةُ النُّفاياتِ الَّتي انْتَشَـرَ بَعْضُها فِي الباحَةِ وَسَـطَ الأَعْشابِ النابِتَةِ فِيهَـا، فَتَقَدَّمَ نائِلٌ خُطْوَتَيْنِ، وَقَرَعَ الْبَـابَ، وَلَمّا امْتَنَعَ الجَوابُ ضَغَـطَ عَلَـى مِقْبَضِ الْبَـابِ المُغَطّى بِالْغُبَـارِ لِيَفْتَحَهُ، مَـا أَفْزَعَ عَنْكَبوتًـا، فَتَرَكَ بَيْتَهُ الَّـذِي يَبْنيهِ تَحْتَهُ وَهَـرَبَ، كَانَ الْبَابُ مُغْلَقًا، وَلَا مُجيبَ سِوَى صَوْتٍ مِنْ مَكانٍ مَا: مَاتَتْ آمِنَةُ.

وَضَعَ شَـادِي يَدَهُ عَلى بَطْنِهِ يَسْـتَفْرِغُ، فَجَلَبَ لَهُ نائِلٌ بَعْضَ الْمَاءِ لِيَشْرَبَ، ثُمَّ غَسَلَ لَهُ وَجْهَهُ:

- فَلْيَدْفِقْ عَلَيْهَا اللهُ رَحَماتِهِ دَفْقًا.

* * *

رَكِـبَ نائِلٌ وَشـادي السَّـيّارَةَ واتَّجَها شَـرْقًا نَحْـوَ طَريقٍ فَرْعِـيٍّ يَتَقاطَعُ مَعَ نِهايَةِ الطَّريقِ الرَّئيسِـيِّ العَموديِّ في الحارَةِ الشَّـرْقيَّةِ، وَما زالَتِ اليافِطاتُ تَمْلأُ الطُّرُقَ الفَرْعيَّةَ مُحَذِّرَةً مِن المُرورِ عَبْرَ الطَّريقِ الرَّئيسيِّ. اتَّجَهَ نائِلٌ إلى بَيْتِ ياسِرٍ، لِيوْصِلَ شـادِيًا الَّـذي كانَ خامِلًا وَمَفاصِلُهُ مُخَـدَّرَةٌ كَأَنَّها عَلى عَداءٍ مَعَ الحَرَكَةِ، وَاعْتَذَرَ عَنِ الدُّخولِ عائِدًا إلى الفُنْدُقِ والشَّمْسُ تَغْرُبُ، وَنامَ حَتَّى الصَّباحِ.

الفَصْلُ الثَّالِثَ عَشَرَ

جَريمَةٌ في الْحَارَةِ الشَّرْقيَّةِ

جَاءَ الصَّباحُ، وَالْمَطَرُ مُنْسابَةٌ حَبَّاتُهُ عَلَى جُدْرانِ الفُنْدُقِ الَّذِي يُقيمُ فِيهِ نائِلٌ، فَتَسَــلَّلَتِ الْمِيَاهُ إِلَى داخِلِهِ حَتَّى رَآهَا نائِلٌ، الَّذِي كَانَ جَالِسًا يَنْتَظِرُ وُصولَ شَادِي دُونَ مَوْعِدٍ مُسْبَقٍ، وَلَكِنَّها طُقوسٌ اعْتَادَا عَلَيْهَا قَبْلَ زِيارَةِ الْحارَتَيْنِ -الشَّماليَّةِ وَالْجَنُوبيَّةِ- فَنَهَضَ لِيَرْفَعَ مَتاعَهُ فَوْقَ السَّرِيرِ حَتَّى لَا يَتَضَرَّرَ. اسْتَعْجَلَ نَهارُ نُوفَمْبَرَ القَصيرُ الظَّهِيرَةَ بَاكِرًا، وَلَمْ يَجِئْ شَادِي بَعْدُ، فَقَالَ نائِلٌ لِنَفْسِهِ: «رُبَّمَا مَا يَزَالُ مُتْعَبًا، سَـأَمُرُّ عَلَيْهِ مَسَاءً»، وَقَرَّرَ الخُروجَ وَحْدَهُ إِلَى مُبْتَغَــاهُ الَّذِي خَطَّطَ لَهُ، فَارْتَدَى سُـتْرَتَهُ، وَأَخَذَ مِظَلَّةً مَعَهُ، فَلَرُبَّمَا يُقَرِّرُ المَطَرُ إِطالَةَ زِيارَتِهِ، فَهُوَ ضَيْفٌ لَا تَعْنِيهِ القُيودُ.

مَضَتْ عَشْــرُ دَقَائِقَ أَوْ أَقَلَّ حَتَّى سَمِعَ نائِلٌ ســائِقَ التَّاكْســي يَقُولُ: «وَصَلْنَا»، فَنَزَلَ مِن السَّيَّارَةِ غَيْرَ مُتَأَهِّبٍ لِلنُّزُولِ، فَقَدْ ظَنَّ المَسافَةَ أَبْعَدَ مِمَّا هِيَ عَلَيْهِ، والنَّفْسُ أَسيرَةُ ظُنونِهَا، بَيْنَمَا الواقِعُ بَراءٌ مِنْ أَسْــرِها في كَثِيرٍ مِــن الأَحْيَانِ. اتَّجَهَ نَائِــلٌ نَحْوَ مَبْنًى ذِي أَرْبَعَــةِ طَوَابِقَ، أَبْيَضَ مُصْفَرٍّ كَأَنَّهُ سِــنُّ رَجُلٍ عَجوزٍ يُمارِسُ

التَّدْخِين مُنْذُ عُقودٍ، عَلَيْهِ لَوْحَةٌ كَتومَةٌ تُخْفي مِنْ حُرُوفِهَا أَكْثَرَ مِمَّا تُبْدي. قَدَّرَ بَعْدَ تَأَمُّلٍ طويلٍ أَنَّ المَكْتوبَ عَلَى اللَّوْحَةِ هوَ «صَحيفَةُ الإِنْسانِ» أَوْ «صَحيفَةُ الإِحْسانِ». دَخَلَ المَبْنَى، وَبَحَثَ عَنْ لَوْحاتٍ تُرْشِدُ لِأَماكِنِ الأَقْسامِ داخِلَهُ، وَلَكِنَّهُ لاحَظَ عَدَمَ وُجودِها، فَتَوَجَّبَ عَلَيْهِ الاسْتِفْسارُ مِن العَابِرِينَ عَنْ قِسْمِ «الأَرْشيفِ» الَّذي يَقْصِدُهُ، وَسُرْعَانَ مَا نَزَلَ عابِرٌ بِنائِلٍ طابَقَيْنِ لِيَدُلَّهُ عَلَى مَقْصِدِهِ. شَكَرَ نائِلٌ الغَريبَ، وَدَخَلَ مَكْتَبًا صَغِيرًا تَتَناثَرُ فِيهِ الأَشْياءُ حَتَّى يَكادُ جَمْعُها يَبْدُو مُسْتَحِيلًا، وَلَكِنَّ هَذا لَمْ يَكُنْ ذَنْبَ المَوَظَّفِ البَشوشِ الجالِسِ خَلْفَ شاشَةِ الكُمْبيوتَرِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ سِوَى دُولَابٍ واحِدٍ وَرَفَّيْنِ، يُناطُ بِهِا ضَمُّ آلافِ الأَوْراقِ:

- مَرْحَبًا.
- أَهْلًا بِكَ.
- أُريدُ أَنْ أَسْتَعْلِمَ عَنِ الأَخْبارِ المُتَعَلِّقَةِ بِالشَّيْخِ رَشادِ نِزارِ الرَّيّانِ مِنْ فَضْلِكَ.
- حَسَنًا.

نَظَرَ المَوَظَّفُ إِلَى الكُمْبيوتَرِ مُبْتَسِمًا، وَنائِلٌ يُحَاوِلُ فِي ذِهْنِهِ اخْتِبارَ فَرْضِيَّةٍ تَداعَتْ إِلَى خاطِرِهِ مُنْذُ دُخولِهِ الحارَةَ الشَّرْقِيَّةَ:

«هَل العَشْوائيَّةُ كَمُتَغيِّرٍ مُسْتَقِلٍّ تُؤَثِّرُ إيجَابًا عَلَى الطِّيبَةِ كَمُتَغيِّرٍ تابِعٍ؟»

قَطَعَ المَوَظَّفُ أفْكارَ نائِلٍ:

- مَاذَا تُحِبُّ أنْ تَشْرَبَ؟

- قَهْوَةٌ بِدُونِ سُكَّرٍ.

رَفَعَ المُوَظَّفُ سَمّاعَةَ الهاتِفِ بِجَانِبِهِ، وَطَلَبَ قَهْوَةً بِدُونِ سُكَّرٍ وَشَايًا، وَعَيْنُهُ عَلَى الكُمْبيوتَرِ تَنْتَظِرُ نَتائِجَ البَحْثِ. لَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ حَتَّى وَصَلَتِ المَشْرُوبَاتُ السّاخِنَةُ، تَبِعَتْها دَقَائِقُ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ المَوَظَّفُ:

- هُنَاكَ الكَثيرُ مِن الأَخْبارِ المُتَعَلِّقَةِ بِالشَّيْخِ رَشادٍ، الكَثيرُ مِنْهَا في ١٦ أُغُسْطُسَ ١٩٧١:

جَرِيدَةُ الحَياةِ: «رَشادُ نِزارِ الرَّيّانِ . . . شَيْخٌ أَمْ مُزَوِّرٌ؟»

جَرِيدَةُ الطَّريقِ: «الحَيُّ مَخْدوعٌ ومَصْدومٌ، الكَثيرُ مِن الأَمْوالِ بَيْنَ أَيْدِي أَبْنَائِهِ مُزَوَّرَةٌ.»

جَريدَةُ العالَمِ: «الشَّيْخُ رَشادُ الرَّيّانِ يَطْبَعُ الأَمْوالَ دُونَ حَسيبٍ أَوْ رَقيبٍ.»

جَريدَةُ الحَيِّ تايمْز: «الشَّيْخُ رَشادٌ طَبَعَ المَالَ بِدافِعٍ إنْسانيٍّ؛ مُساعَدَةِ الأُسَرِ الفَقيرَةِ.»

جَريدَةُ الإنْسانِ: «اعْتِرافٌ صَريحٌ بِالتَّزْوِيرِ، وَخيانَةِ العَهْدِ، وَلا أَحَدَ يَتَحَرَّكُ.»

جَريدَةُ ت.ت.ف: «الشَّيْخُ رَشادٌ يُصَرِّحُ: أَمْوَالِي فِي كُلِّ بَيْتٍ، والتَّخَلُّصُ مِنْهَا سَيَجْعَلُ الجَميعَ خَاسِرًا.»

وَاسْتَرْسَلَ المُوَظَّفُ:

- هُنَاكَ خَبَرٌ فِي يُولْيُو ١٩٧٢:

جَريدَةُ الأَنْباءِ: «فَضيحَةٌ جَديدَةٌ لِرَشادِ الرَّيّانِ، التَّجَسُّس عَلَى أَبْناءِ عَمِّهِ.»

- هوَ الخَبَرُ نَفْسُهُ فِي عِدَّةِ جَرائِدَ لَوْ عَدَدْتُهَا لانْتَهَى اليَوْمُ قَبْلَ الانْتِهاءِ مِنْهَا. وَهُنَاكَ خَبَرٌ فِي أُغُسْطُسَ ١٩٧٤ فِي عِدَّةِ جَرائِدَ أَيْضًا، يَخْلُصُ إِلَى الشَّيْءِ نَفْسِهِ:

«تَخَلّي الشَّيْخِ رَشادٍ عَنِ المَشْيَخَةِ.»

تابَعَ المُوَظَّفُ ضاحِكًا:

- آلُ الرَّيّانِ يَتَخَلَّوْنَ عَنِ المَشْيَخَةِ كَأَنَّهَا قَميصٌ يَخْلَعُونَهُ، فِي حَارَتِنَا؛ المَشْيَخَةُ والْعُمُرُ رَفيقانِ مُخْلِصانِ، تَعاهَدا أَلّا يَفْتَرِقَا مَهْما كَانَتِ الظُّروفُ.

وَأَكْمَلَ هامِسًا:

- أَو الفَضَائِحُ.

لَمْ يَـرُدَّ نائِلٌ عَلَى الموَظَّفِ، فَقَدْ كانَ ذِهْنُهُ مَشْـغُولًا بِمُحاوَلَةِ تَجْميعِ خُيوطِ قِصَّةِ الشَّيْخِ رَشادٍ، فَتابَعَ المُوَظَّفُ:

- ٢٢ إبْريل ١٩٩٤

«مَوْتُ رَشادِ الرَّيّانِ.»

رَفَعَ نائِلٌ كُوبَ القَهْوَةِ، فَوَجَدَهُ فارِغًا، شَرِبَهُ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ، فَشَـغَفُ الحُصولِ عَلَى المَعْلُومَاتِ في نَفْسِهِ يَفْضُلُ كُلَّ المُتَعِ. شَكَرَ نائِـلٌ الموَظَّفَ الـوَدُودَ، وَصَعَـدَ إلَى البابِ الرَّئيسـيِّ لِلْجَريدَةِ، وَموَظَّفٌ يُهَرْوِلُ ناحيَةَ مَكْتَبِ الأَرْشيفِ:

- مَاذا يُريدُ هَذا الرَّجُلُ؟

أَجَابَ الموَظَّفُ:

- جَاءَ لِيَسْأَلَ عَنْ رَشادِ نِزارِ الرَّيّانِ، يَا سَيِّدي.

امْتَعَضَ الرَّجُلُ، ثُمَّ قَالَ قَلِقًا بَعْدَ صَمْتٍ تَخَلَّلَهُ التَّفْكيرُ:

- وَمَاذا قُلْتَ لَهُ؟

- بَحَثْتُ عَنِ الأَخْبارِ المُتَعَلِّقَةِ بِالشَّيْخِ، وَأَخْبَرْتُهُ بِهَا.

- حَسَنًا، اذْهَبْ وَاطْلُبْ لِي القَهْوَةَ.

خَـرَجَ الموَظَّفُ، وَنَظَراتُ الرَّجُلِ تَتْبَعُـهُ لِتَطْمَئِنَّ أَنَّهُ ابْتَعَدَ، فَرَفَعَ السَّمّاعَةَ:

- هُنَاكَ شَـخْصٌ جاءَ يَسْـتَعْلِمُ عَنِ الشَّيْخِ رَشـادٍ، يَخْرُجُ مِنْ مَبْنَى الصَّحيفَةِ الآنَ.

وَقفَ نائِلٌ خَلْفَ شُبَّاكِ الفُنْدُقِ يُراقِبُ رَحيلَ النَّهارِ، وَصِبْيَةٌ في الباحَــةِ يَرْحَلون مَعَــهُ إلى بُيوتِهِمْ سَــاخِطِينَ عَلى انْقِضائِه، فَالنَّاسُ في نُوفَمْبَرَ يُحِبُّونَ النَّهارَ أَكْثَرَ مِن اللَّيْلِ، وَيَشْتَاقُونَ إِلَيْهِ شَوْقَ المَريضِ لِأَيَّامِ الصِّحَّةِ، وَهَذا دَأْبُ النَّاسِ، يُحِبُّونَ الشَّيْءَ إذا مَا اضْمَحلَّ، وَيَعْتَــادونَ عَلَيْهِ في حُضورِهِ، بَلْ رُبَّمَا يُثْقِلُ وُجودُهُ عَلَيْهِمْ إذَا طَالَ فَيَسْــتَعْجِلُونَ رَحيلَهُ. قَرَّرَ نائِلٌ الذَّهابَ لِتَمْضِيَةِ بَعْضِ اللَّيْلِ في بَيْتِ ياسِرٍ، وَالسُّؤالَ عَنْ أَحْوالِ شَادِي.

بَيْنَمَا كَانَــتِ الرِّياحُ تُغَنِّي في الخَــارِجِ، وَتُراقِصُ الأَغْصَانَ، جَلَسَ نائِلٌ وَياسِرٌ وَشادي يَتَناوَلُونَ البَطاطِسَ المَشْوِيَّةَ، وَيَشْرَبُونَ الشَّايَ، وَسُرْعَانَ مَا أَدْخَلَ المَطَرُ إيقاعَاتِهِ البَطِيئَةَ في نوتَةِ الطَّبيعَةِ البَارِدَةِ. قَالَ نائِلٌ لِشادي:

- يَبْدُو أَنَّ حَالَتَكَ تَزْدادُ سُوءًا.

اسْتَشْرَتِ الحُمَّى في جَسَدِ شَــادِي، وَوَجَدَتْ فِيهِ الفَيْرُوسَاتُ مَلْعَبًا تَــروحُ وَتَغْدو خِلالَهُ، فَارْتَفَعَتْ حَرارَتُــهُ، وَفَقَدَ صَوْتَهُ، وَتَثَاقَلَتْ مَفاصِلُهُ، فَصاحَــبَ الخُمولُ والتَّعَبُ ذُهولَهُ النَّاجِمَ عَن الصَّدَمَاتِ المُتَتالِيَةِ الَّتي تَلَقّاها في الأَيّامِ الماضِيَةِ. تَابَعَ نائِلٌ:

- مَا رَأْيُــكَ أَنْ أُعْطِيَكَ كِتَابًا تَقْضي بِهِ وَقْتَــكَ؟ فَلا يَبْدُو أَنَّكَ سَتَخْرُجُ الأَيّامَ المُقْبِلَةَ.

أَوْمَأَ شَــادِي بِرَأْسِهِ مُوَافِقًا يَهْتَزُّ مِن المَرَضِ يَمِينًا وَيَسَارًا كَأَنَّهُ صوفِيٌّ يُمارِسُ طُقوسَ الحَضْرَةِ، وَسَلَّمَ أَنَّ النَّوْمَ هُوَ الْخَيَارُ الأَفْضَلُ لَــهُ الآنَ، بَعْدَ أَنْ كَانَ يُغالِبُهُ لِيَجْلِسَ مَــعَ نائِلٍ، وَلَكِنَّ ذَخِيرَتَهُ نَفِدَتْ، فاسْتَسْلَمَ لَهُ قَسْرًا. ارْتَشَفَ ياسِرٌ الشَّايَ، وَسَأَلَ نائِلًا:

- كَيْفَ كَانَتْ رِحْلَتُكُمَا؟ وَلِمَاذَا شَادِي مُرْهَقٌ كُلَّ هَذَا الإِرْهَاقِ؟

- كَانَتْ رِحْلَةً تَتَأَرْجَحُ بَيْنَ الجَمالِ والْقُبْحِ، إِلَّا أَنَّ الشَّــغَفَ صاحَبَهــا في كُلِّ وَقْتٍ، فَبَعْــضُ القُبْحِ - كَمَا تَعْلَــمُ- مُثِيرٌ أَكْثَرَ مِن الجَمالِ، وَقَدْ شَــدَهَ شَــادِيًا غَرابَةُ المَناظِرِ، واخْتِلافُ طَبائِعِ النَّاسِ، ثُمَّ أَثَّرَ مَــوْتُ الحاجّةِ آمِنَةَ عَلَيْهِ، أَمَّا أَنَا فَقَدْ أَلِفْتُ هَذِهِ الغَرابَةَ فِي سَفَرِي، وَفِي عَمَلِي، وَلَيْسَ فِي نَفْسِي دَهْشَةٌ لِشَيْءٍ قَدْرَ تِلْكَ الَّتِي خَلَّفَها غَلْقُ الطَّرِيقِ الرَّئِيسِــيِّ طَوالَ مُدَّةِ السَّــفَرِ، رُبَّمَا سَمِعْتَ عَنْ هَذَا الأَمْرِ فَتُعْلِمَنِي، لَعَلَّ دَهْشَتِي تَقِلُّ أَوْ تَتَلَاشَى.

- نَعَمْ سَمِعْتُ بِالأَمْرِ، وَرُبَّمَا لَمْ يَتَبَقَّ أَحَدٌ لَمْ يَسْمَعْ بِهِ، حَتَّى الصِّحافَــةُ تَحَدَّثَتْ بِهَذَا الخُصُوصِ، تَبًّــا لِهَذَا الْجِيلِ، لَا أَدْرِي مَاذَا يُرِيدُ، كَأَنَّ حِكْمَتَنا لَا تُعْجِبُهُ!

- الأَمْرُ مُتَعَلِّقٌ بِالشَّبَابِ إِذًا؟

- هَذَا صَحِيحٌ، شــابٌّ طَائِشٌ -لَا أَذْكُرُ اسْمَهُ، إِلَّا أَنَّهُ مِنْ آلِ حَسّــانَ- قَتَلَ مُعْتَصِــمَ الرَّيّانِ، الَّذِي كَانَ فِي ضِيَافَةِ عَمِّهِ الشَّــيْخِ

أَسْـعَدَ حَسّـانَ، فَجاءَ أَبْناءُ الرَّيّـانِ وَأَصْدِقاؤُهُمْ مِنْ آلِ يَاسِـينَ وَغَريبٍ وَأَقْفَلوا الطَّريقَ، وَهَذا عَيْنُ الحَقِّ.

تَمْتَمَ نائِلٌ:

– هوَ الحَقُّ كَمَا يَرَاهُ أَبْناءُ الرَّيّانِ، وَيَسْتَطِيعُونَ إِجْرَاءَهُ.

– وَهَلْ تَرَى الحَقَّ في غَيْرِ هَذا؟

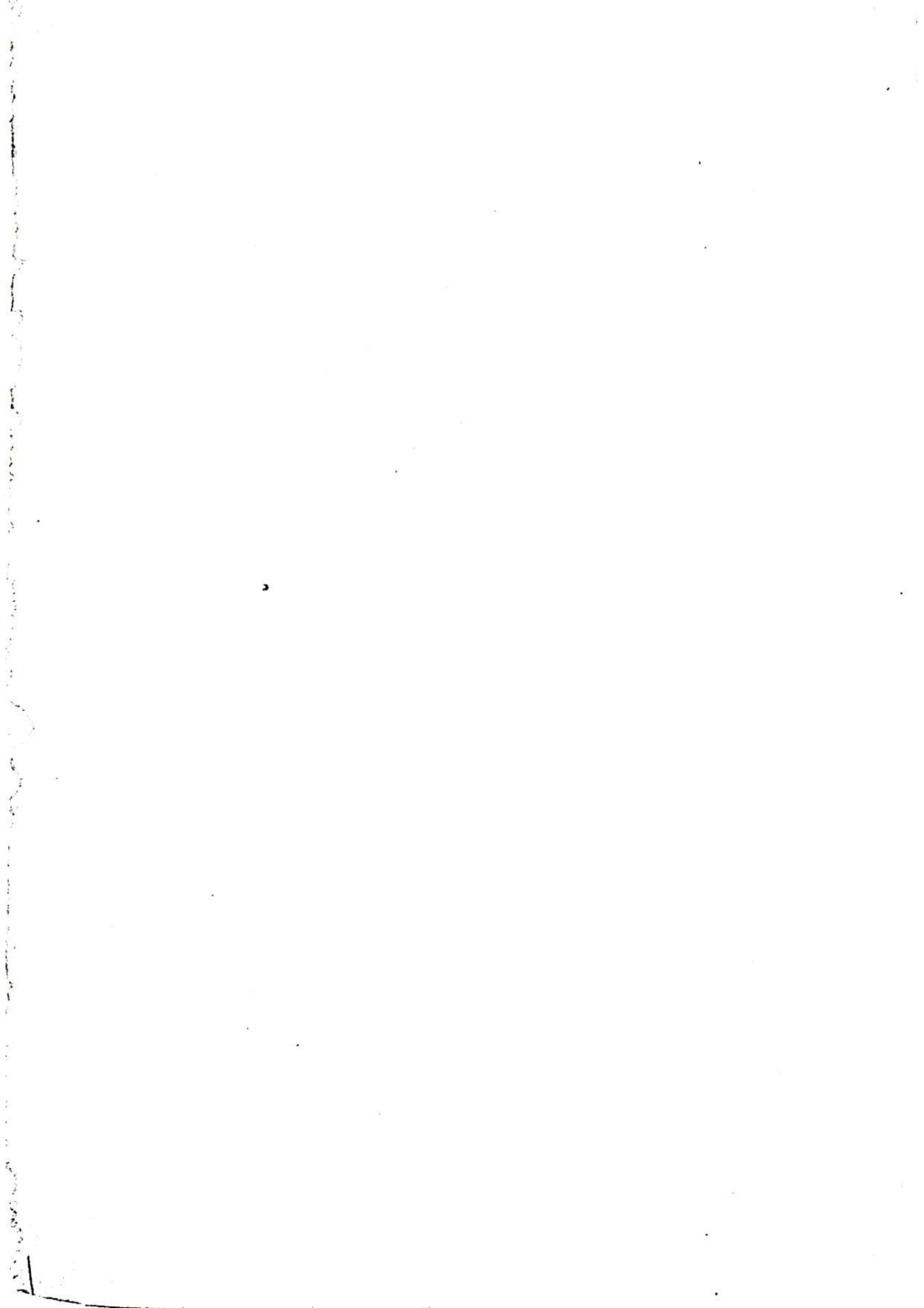
– لَيْـسَ مُهِمًّا أَيْنَ أَرَى الحَقَّ، وَلَا أَيْنَ يَـراهُ الضُّعَفاءُ أَيْضًا، فَوِجْهَــةُ النَّظَرِ في الحَقِّ تَكونُ مُهِمَّــةً حِينَ تَصْحَبُها القُدْرَةُ عَلَى فَرْضِها. وَلَكِنْ لِمَاذَا قَتَلَهُ؟

– هَذَا مَا يَخْتَلِفُ عَلَيْهِ الحَيُّ، فَبَيْنَ قائِلٍ بِأَنَّ المَسْـأَلَةَ تَتَعَلَّقُ بِالْعِـرْضِ، وَآخَرَ يَقُولُ إِنَّهَا رَفْضٌ لِما يُدْعَى تَدَخُّلًا مِنْ آلِ الرَّيّانِ في شُـؤونِ آلِ حَسّانَ، فَلِآلِ الرَّيّانِ عَادَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ عَنِ الكَثيرِ مِنْ أَهْـلِ الحَيِّ، وَلَكِنَّهُـمْ طَيِّبُونَ، وَيُحَاوِلُـونَ أَنْ يَجْعَلُوا مِنَ الحَيِّ مَكَانًا أَفْضَلَ.

سَكَتَ نائِلٌ غَيْرَ مُسْتَغْرِبٍ وُجْهَةَ نَظَرِ ياسِرٍ في آلِ الرَّيّانِ، فَأَيُّ أَمْـرٍ لَهُ عِدَّةُ جَوانِبَ، وَلِكُلِّ جانِبٍ مَـنْ يَتَبَنَّاهُ، وَتَبْقَى الحَقيقَةُ الكامِلَةُ كَنْزًا عَصِيًّا عَلَى الكَثيرِ مِنَ النّاسِ، وَلَيْسَ أَكْثَرُ نُدْرَةً مِمَّنْ يَمْلِكُها إِلَّا مَنْ يَمْلِكُها وَيَعْرِفُ أَنَّها بِحَوْزَتِهِ.

قَالَ نائِلٌ:

- نَأْمُلُ أَلّا يَبْقَى الطَّرِيقُ مُغْلَقًا لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ.
ثُمَّ أَكْمَلَ مُتَنَهِّدًا:
- أُقَدِّرُ أَنِّي لَا أَسْتَطِيعُ المُرُورَ عَلَى شَادِي والْخُرُوجَ مَعَهُ غَدًا لِسُوءِ حالَتِهِ الصِّحِّيَّةِ، هَلْ بِوُسْعِي المَجِيءُ بَعْدَ يَوْمَيْنِ؟
أَجَابَ ياسِرٌ بِتَلَعْثُمٍ:
- أَنَا آسِفٌ، وَلَكِنَّ لا أَظُنُّ، فَشادي لَنْ يَسْتَطِيعَ الخُرُوجَ قَبْلَ ثَلاثَةِ أَيّام.
- ثَلاثَةِ أَيّام! حَسَنًا، فَلْنَدَعْهُ يَرْتاحُ قَلِيلًا.
- الأَمْرُ غَيْرُ مُتَعَلِّقٍ بالرَّاحَةِ، وَلَكِنْ هَكَذَا قَالَتِ العَرّافَةُ.
أَرَادَ نائِلُ السُّؤالَ عَنْ شَأْنِ العَرّافَةِ لَوْلَا تَأَخُّرُ الوَقْتِ، فَأَجَّلَهُ إِلَى حِينٍ آخَرَ، وَاكْتَفَى بِأَنَّهُ لَنْ يَرَى شَادِيًا لِثَلَاثَةِ أَيّامٍ قادِمَةٍ، فَمَضَى يُخَطِّطُ لِقَضائِها وَحِيدًا.



الفَصْلُ الرَّابِعَ عَشَرَ

الشَّيْخُ سُلْطَانْ

فَجْرٌ جَديدٌ يَبْـزُغُ وَنائِلٌ في الحَيِّ، وَقَد انْتَهَى ذَلِكَ الشَّـهْرُ الَّذي قَرَّرَهُ مَعَ صَفيَّةَ كَمُدَّةٍ لِلْإجَازَةِ، وَمَا زَالَ مُسْتَمْتِعًا بِالتَّجْرِبَةِ الَّتي يَعِيشُـها، لَكِنَّهُ مُشْتاقٌ لِصَفيَّةَ وَمَحْمودٍ، وَبَعيدٌ عَنْ عَمَلِهِ، فَهَـلْ يُمَدِّدُ فَتْرَةَ الإجازَةِ؟ أَمْ يَعـودُ إِلَى البَيْتِ؟ لَمْ يَحْتَجِ الكَثيرَ مِن الوَقْتِ لِيَحْسِـمَ أَمْرَهُ بِالْبَقَاءِ لِفَتْرَةٍ أُخْرَى، فالْحَيُّ يَغْلي عَلَى صَفِيحٍ سـاخِنٍ، والصِّـراعُ فِيهِ مُتَأَجِّجٌ، وَهِـيَ تَجْرِبَةٌ مِن النَّادِرِ أَنْ تَتَكَـرَّرَ، أَمَّا الشَّـوْقُ فَلَيْـسَ لَهُ مِيعَادٌ، وَلَا يَعْـرِفُ نِهايَةً، فَيَسْتَطيعُ إِطْفاءَ نَارِ شَـوْقِهِ في أَيِّ حِينٍ؛ وَعَمَلُهُ الإداريُّ لَا يَعْدُو كَوْنَـهُ تَعاطيًا مَعَ مَا تُمْلِيهِ الأَنْفُسُ عَلَـى أَصْحابِها مِنْ رَغْباتٍ، فَوُجـودُهُ هُنَا يَخْدِمُ هَذَا الأَمْرَ بِلَا شَـكٍّ. لَمْ يَتَبَقَّ أَمَامَهُ مِنْ عائِقٍ سِوَى صَفيَّةَ؛ لَيْسَ إِقْناعَها، بَلْ ثَوْرَتَها العاطِفيَّةَ المُصاحِبَةَ لِهَذَا الإِقْنَاعِ، وَالَّتي بِالْكَادِ تُسْـفِرُ عَنْ كَلِماتٍ مُتَفَرِّقَةٍ لَا يَفُكُّ شِفْرَتَـها إِلَّا نائِلٌ، فَأَمْسَكَ بِهاتِفِهِ، وَأَرْسَلَ إِيمِيلًا إِلَى مُدِيرِ شُؤونِ المُوَظَّفِينَ فِي الشَّرِكَةِ الَّتي يُدِيرُهَا:

«عَزِيزِي أَحْمَدُ السّالم،

أَكْتُبُ لإِعْلامِكَ بِأَنِّي قَدْ قُمْتُ بِتَمْدِيدِ إِجازَتي ثَلاثَةَ أَسَـابِيعَ أُخْرَى، وَهَذَا لِظُروفٍ خاصَّةٍ.

تَقَبّلْ شُكْرِي وَاحْتِرامِي

المُخْلِصُ؛

نائِلُ اليَمانـيّ

المُديرُ التَّنْفيذيُّ»

* * *

هُنَاكَ في باحَةِ القَصْرِ الكَبير، جَلَسَتْ صَفيَّةُ تُلاعِبُ مَحْمودًا، افْتَرَشَا أَرْضَ الغُرْفَةِ، وَأَخَذا يُرَكِّبانِ قِطَعًا صَغيرَةً مُتَفَرِّقَةً لِيُكَوِّنَا صورَةً كَبِـيرَةً لِكَوْكَبِ الأَرْضِ. رَنَّ الهاتِفُ، فَأَمْسَـكَتْهُ صَفيَّةُ، وَهَمَّـتْ بِالرَّدِّ عَلَى نائِلٍ لَوْلَا العُبوسُ الَّذي اعْتَلَى وَجْهَ مَحْمودٍ، فَابْتَسَمْتَ قَائِلَةً:

- هَذَا أَبوكَ، لَمْ أَكُنْ لأَقْطَعَ لَعِبي مَعَكَ لَوْ كَانَ غَيْرَهُ.

اسْتَقْبَلَتِ المُكالَمَةَ والهاتِفُ مَا يَزَالُ فِي يَدِها، وَأَكْمَلَتْ كَلامَها لِمَحْمُودٍ مُبْتَسِمَةً:

- لَقَدْ تَذَكَّرَنا أَخِيرًا.

ثُمَّ وَضَعَتِ الهاتِفَ عَلَى أُذُنِها، واسْتَقْبَلَتْ صَوْتَ نائِلٍ:

- «إيَّاكِ أَعْني وَاسْمَعِي يَا جارَةْ.» كَيْفَ حالُكِ أَيَّتُهَا الْمخادِعَةُ الجَميلَةُ؟

- بخَيْرٍ يَا نائِلُ، نَفْتَقِدُكَ كَثِيرًا، أَمَا آنَ لَكَ أَنْ تَأْتِيَ؟

صَمَتَتْ قَلِيلًا، ثُمَّ أَكْمَلَتْ:

- كَيْفَ حالُكَ أَنْتَ؟

مَضَى نائِلٌ يَسْـرُدُ لَهَا مَا رَآهُ فِي الحَيِّ، مُرَكِّزًا عَلَى التَّفاصيلِ الجَميلَـةِ الَّتي تُثيرُ اهْتِمامَها، فَلَمْ يَذْكُرِ الصِّراعَ وَلَمْ يَتَطَرَّقْ لَهُ، فَصَفيَّـةُ تُحِبُّ أَنْ تَرَى جَميلًا وَتَسْـمعَ جَميـلًا، وَلَا يَعْنيها مَا تَنْغَمِسُ فِيهِ النَّفْسُ البَشَـرِيَّةُ مِنْ رَغَبـاتٍ، بَلْ وَتُنْكِرُ عَلَى نائِلٍ حُبَّهُ لِهَذِهِ الأُمورِ. أُعْجِبَتْ صَفيَّةُ بِمَا سَمِعَتْ، فَقالَتْ:

- مَتَى سَتَأْتِي؟

صَمَتَ نائِلٌ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُخْبِرَها بِرَغْبَتِهِ مُباشَرَةً، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ سُؤالٌ مُتَوَقَّعٌ لا يَمْنَعُهُ إِلَّا أَنْ يَحينَ أَوانُهُ، فَأَجابَ:

- لَا أَعْـرِفُ عَلَـى وَجْهِ التَّحْدِيدِ، وَلَكِنِّي سَـأَبْقَى مَزِيدًا مِن الوَقْتِ.

صَمَتَتْ صَفيَّةُ، ثُمَّ أَكْمَلَ نائِلٌ:

- هِيَ آخِـرُ إِجازَةٍ أَقْضيهـا وَحْدِي، والْأَيَّامُ تَمُرُّ سَـرِيعًا، سَتَنْسَيْنَ كُلَّ هَذَا الْغِيَابِ حِينَ نَتَنَعَّمُ بِإِجَازَتِنَا الكَبيرَةِ، سنُمَدِّدُها

لِتُصْبِحَ شَهْرَيْنِ كامِلَيْنِ.

أَدْرَكَتْ صَفيَّةُ أَنّ نائِلًا قَدْ قَرَّرَ الْمكوثَ، وَأَنَّ أَمْرَ البَقاءِ قُضِيَ، فَلَمْ تَشَأْ أَنْ تُجادِلَهُ:

- حَسَنًا، مَحْمودٌ يُريدُ أَنْ يُكَلِّمَكَ.

أَعْطَتْ صَفيَّةُ الهاتِفَ لِمَحْمُودٍ قَبْلَ أَنْ تَسْمَعَ جَوابَ نائِلٍ:

- أَبِي، كُنْتُ عَلَى وَشْكِ إِتْمامِ الصّورَةِ الخاصَّةِ بِالأَرْضِ.

- أوووه، رائعٌ، هَلْ قاطَعْتُكَ؟

- نَعَمْ، قَاطَعْتَني.

ضَحِكَ نائِلٌ، وَقَالَ:

- حَسَـنًا، اسْتَمْتِعْ، سَـأَطْمَئِنُّ عَلَيْكَ حِينَ يَسْمَحُ وَقْتُكَ، أَعْطِ الهاتِفَ لِصَفيَّةَ.

أَخَذَتْ صَفيَّةُ الْهاتِفَ، وَقَالَتْ:

- اهْتَمَّ بِنَفْسِكَ جَيِّدًا.

- وَأَنْتِ أَيْضًا اهْتَمِّي بِنَفْسِكِ، وَبِمَحْمودٍ.

انْطَلَقَ صَوْتٌ مُدَوٍّ إِلَى أُذُنِ نائِلٍ، فَسَأَلَ فَزِعًا:

- مَا هَذَا يَا صَفيَّةُ؟

- إِنَّهَا الدِّعامَةُ الَّتي تَسْـنِدُ التِّمْثـالَ، وَقَعَتْ عَلَى الأَرْضِ، سَأُنادي عَلَى أَحْمَدَ لِيُثَبِّتَها.

عَادَتْ صَفيَّةُ، وَقَالَتْ:

- مُنْذُ أَرْبَعَةِ أَيّـام كَانَ مَحْمودُ يَلْعَبُ في البَهْوِ، ثُمَّ تَعَثَّرَ وَفي يَدِهِ مِضْرَبُ البيسـبولِ، وَسَـقَطَ عَلَى التِّمْثَالِ، فَكَسَـرَ جُزْءًا مِنْ قاعِدَتِهِ، ثُمَّ ثَبَّتَهُ أَحْمَدُ بِشَكْلٍ مُؤَقَّتٍ حَتَّى مَجيئِكَ.

- وَهَلْ تَأَذَّى مَحْمودٌ؟

- لا تَقْلَقْ، لَمْ يَتَأَذَّ.

- حَسَـنًا، عِنْدَمَا آتي سَـنَنْظُرُ في أَمْرِ التِّمْثَالِ، وَدَاعًا أَيَّتُهَا الجَميلَةُ.

- وَدَاعًا، كِدْتُ أَنْسَى، مَديحَةُ تُبْلِغُكَ السَّلامَ.

أَغْمَضَ نائِلٌ عَيْنَيْهِ ثَوانيَ مَعْدودَةً، كَانَ في السّـابِقِ يُغْمِضُها أَكْثَرَ حِينَ يَسْـمَعُ اسْمَ مَديحَةَ، وَلَكِنَّ سَـيْرَ الأَيّام يُجْبِرُ النَّفْسَ عَلَـى تَقَبُّلِ الأَلَمِ دُونَ المَزيدِ مِن التَّفْكيرِ في مَشْـروعيَّتِهِ، فالنَّفْسُ وعاءٌ غامِضٌ، لا يَمْلِكُ الإِنْسـانُ رَفاهيَّةَ مَلْئِهِ بِمَا يَطيبُ لَهُ، بَلْ تَسْكُبُ الظُّروفُ فِيهِ عَسَلَها وَعَلْقَمَها، وَيَشْرَبُ الإِنْسانُ صاغِرًا، فَإِنْ لَمْ يَدْعُ قِلَّةَ حيلَتِهِ تَأَقْلُمًا طَرَقَ بابًا مِنْ أَبْوابِ الجُنونِ:

- أَرْسِلِي لَهَا سَلامِي.

* * *

مُنْذُ أُسْـبوعٍ والشَّـيْخُ أَسْـعَدُ حَسّـانَ يَروحُ وَيَجِيءُ في قَصْرِهِ

حَتَّى فَاقَ عَدَدًا مَا رَاحَتِ الشَّمسُ وَجَاءَتْ عَلَى الأَرْضِ مُذْ رَأَتْهَا عَيْنَاهُ، فَقَدْ أَصْبحَ المَشْيُ طَرِيقَهُ الوَحِيدُ لِلتَّخْفِيفِ مِنْ حِدَّةِ تَوَتُّرِهِ، وَلَكِنَّها مَا انْفَكَّتْ تَتَصاعَدُ، وَلَوْلَا أَخْبارٌ يَنْتَظِرُهَا لَأَرْسَلَ هَاتِفَهُ -الَّذِي لَمْ يَكُفَّ عَنِ النَّعيقِ مُنْذُ الصَّباحِ- إِلَى الجَحيمِ. أَيَّامٌ قادِمَةٌ يُغَلِّفُها الغُموضُ، وَلَا يُحيطُ بِهَا الشَّيْخُ خُبْرًا، وَالغُمُوضُ فِي الحارَةِ الشَّرقيَّةِ كَفِيلٌ وَحْدَهُ -دُونَ أَدْنَى مَظْهَرٍ أَوْ إِشارَةٍ لِأَيِّ نَتائِجَ قادِمَةٍ- بِاسْتِدْعَاءِ القَلَقِ، كَمَا يَسْتَدْعِي قَوامُ الْغَيْداءِ طَرْفَ شابٍّ غِرٍّ بِلَا أَمَلٍ لَاحِقٍ فِي وِصالٍ.

كانَ صَوْتُ أَسْعَدَ سِلاحَهُ الوَحيدَ فِي هَذِهِ الحادِثَةِ، يَشْجُبُ بِهِ تَارَةً، وَيُنَدِّدُ بِهِ أُخْرَى، وَيُريحُهُ فِي ثالِثَةٍ، وَفْقًا لِمَا يَمْلِكُهُ غَريمُهُ فِي الحِوارِ مِنْ نُفوذٍ، وَقَدْ ذَهَبَ النَّصيبُ الأَكْبَرُ مِن اللَّوْمِ والْوَعيدِ إِلَى لُطْفي، ذَلِكَ الشَّابِّ الَّذِي أَخَذَتْهُ العِزَّةُ فَقَتَلَ مُعْتَصِمَ الرَّيَّانِ، وَكَثِيرًا مَا يَرْفُضُ الشُّيُوخُ عِزَّةَ العَوامِّ، وَخُصُوصًا فِي الحارَةِ الشَّرْقيَّةِ. أَوْشَكَ صَوْتُ أَسْعَدَ عَلَى النَّفادِ كَمَا تَنْفَدُ السِّهامُ مِنْ جَعْبَةِ الرَّامِي، وَلَمَّا يُجْرِ المُكالَمَةَ الأَهَمَّ، إِذْ أَلَحَّ فِي تَأْجيلِها لَعَلَّ حَادِثًا مَا يَحْدُثُ فَيُلْغِيهَا، حَتَّى لَوْ كَانَ قِيَامَ القِيَامَةِ، وَلَكِنْ لَمْ يَحْدُثْ شَيْءٌ، وَلَمْ يَعُدْ مِن الحَديثِ مَعَ الشَّيْخِ سُلْطانِ الجَاسِمِ مِنْ مَهْرَبٍ، فَصَاحَ بِأَمْجَدَ -شَقيقِهِ الأَصْغَرِ- لِيَجِيءَ وَيُذَكِّرَهُ

بِمَا خَلُصَتْ إِلَيْهِ أَهَمُّ المُكَالَمَاتِ السَّـابِقَةِ، فَقَدْ أَصْبَحَ أَسْعَدُ كَهْلًا، يَتَذَكَّـرُ الأَحْدَاثَ بِصُعوبَةٍ، فَضْلًا عَـنِ العَدَدِ الهائِلِ مِن المُكَالَمَاتِ الَّـتي كَانَ طَرَفًا فِيهَا اليَوْمَ. جَاءَ أَمْجَـدُ يَصْطَنِعُ الحَزْمَ، فَيُرَخِّمُ صَوْتَهُ، ويُقَطِّبُ حَاجِبَيْهِ، وَلَكِـنَّ بَطْنَهُ المُمْتَدَّةَ أَمَامَهُ خَذَلَتْهُ بِمَا صَنَعَتْ مِنْ صُعودٍ وَهُبوطٍ، فَبَدَا سَـاذَجًا أَكْثَـرَ مِنْهُ جَادًّا، وَقَالَ بِصَوْتٍ مَلَأَهُ بِالرَّصَانَةِ كَمَا تُمْلَأُ الفُقَّاعَةُ بِالْهَوَاءِ:

- فِي السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ اتَّصَلَ بِنَا مَمْدوحُ يَاسِينَ، وَأَبْدَى انْزِعاجَهُ مِنْ عَدَدِ الرَّسائِلِ الَّتي تَرَكْناها لَهُ وَهُوَ رَجُلٌ كَثيرُ المَشاغِلِ، وَأَكَّدَ أَنَّنَا سَنَدْفَعُ مَغَبَّةَ فَعْلَتِنا، وَأَنَّنا مِنْ آلِ الرَّيَّانِ بِمَثَابَةِ التِّلْميذِ مِنْ أُسْتاذِهِ، فَلَيْسَ لَنَا التَّطاوُلُ عَلَيْهِمْ.

كَانَ أَمْجَدُ يَتَكَلَّمُ بِسَـذاجَةٍ، وَيُكَرِّرُ مَا يَسْـمَعُ، كَأَنَّهُ شَـريطُ تَسْجيلٍ مَمْلُوءٌ بِمَا شَاءَ لَهُ مَالِؤُهُ، وَلَمْ يَعِ مَا يَقُولُ تَمامًا، أَوْ يُفَكِّرْ بِمَا قَدْ يُزْعِجُ الشَّـيْخَ الطَّاعِنَ أَسْـعَدَ. أَمَّا الشَّيْخُ فَقَد انْهارَتْ قُواهُ الجَسَـدِيَّةُ مِنْ فَرْطِ الحَرَكَةِ، وَاسْتَنْزَفَتِ المُشْكِلَةُ الحالِيَّةُ مَا أَبْقَى لَهُ تَتَابُعُ العُقودِ مِنْ قُواهُ العَقْلِيَّةِ، فَلَمْ يَتَبَقَّ مِنْهَا إِلَّا مَا يُسْـعِفُهُ لِمَعْرِفَةِ مَكانِ وُجودِهِ، وَتَقْريرِ حاجَتِهِ لِلذَّهَابِ إِلَى الحَمَّامِ، لِذَلِكَ لَمْ يَعُـدْ قَـادِرًا عَلَى إِلْزامِ أَمْجَـدَ بِتَلْطيفِ الـكَلامِ، أَوْ اتِّباعِ أَيِّ بُروتوكولٍ مِن البُروتوكولاتِ الكَثيرَةِ المَوْضوعَةِ مِنْ أَجْلِ مُخاطَبَةِ

الشُّيُوخ مِنْ آلِ حَسّانَ، فَجَرَى الحِوارُ -بِمَا يَحْمِلُهُ مِنْ إهاناتٍ- سَلِسًا لَا يُعيقُهُ شَيْءٌ. وَاسْتَرْسَلَ أَمْجَدُ مُقَطِّبًا حَاجِبَيْهِ:

- ثُمَّ اتَّصَلَ خالِدُ المَرْزوقِ في الثّامِنَةِ والنِّصْفِ، وَقَالَ إنَّهُ يُغَلِّبُ المَصْلَحَـةَ العامَّةَ، وَيَدْعُو إلَى ضَبْطِ النَّفْسِ، وَإنَّهُ لَنْ يَألوَ جَهْدًا في إحْقاقِ الحَـقِّ، لِذَلِكَ فَهُوَ مُوافِقٌ عَلَى الذَّهـابِ مَعَ مَجْموعَةٍ مِنْ رِجالاتِ الحَيِّ إلَى عَسّـافِ الرَّيّانِ لِمُناقَشَـةِ قَضيَّةِ جَريمَةِ القَتْلِ الَّتي طَالَتِ ابْنَ أَخِيهِ.

- وَمَنْ غَيْرُهُ؟

- الشَّـيْخُ شامِلُ الكَوّارِيِّ، قَالَ إنَّ آلَ الرَّيّانِ لَيْسُوا إلَّا أَوْغادًا مُتَغَطْرِسـينَ، فَلْيَذْهبوا جَميعًا إلَى الجَحيـمِ، وَدَعَاك أَلَّا تَتَنازَلَ لَهُمْ بِشَـيْءٍ، وَوَضَّحَ أَنَّ شَـهيَّتَهُ مَفْتوحَةٌ عَلى مُشاجَرَةٍ كَبيرَةٍ، وَقَالَ افْعَلْها وَرِجالُنا أَمامَكَ، وَلَيْسَ وَراءَكَ.

هَزَّ الشَّيْخُ أَسْعَدُ رَأْسَهُ يُعْلِنُ تَلَقِّيَهُ الرِّسالَةَ، وَقَالَ:

- مَنْ غَيْرُهُ؟

- الشَّـيْخُ راغِبُ غَريبٍ، حَمَّلَنا مَسْـؤوليَّةَ إثارَةِ المَشـاكِلِ في الحَيِّ، وَاتَّهَمَنا بِالْعَبَثِ في اسْـتِقْرارِهِ، ثُمَّ شَـكَّكَ في قُدْرَتِنا عَلَى تَرْبيَـةِ أَبْنائِنا، وَتَمَنَّى أَنْ يَكونَ مِزاجُ عَسّـافِ الرَّيّانِ قَدْ أَصْبَحَ أَفْضَلَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَكِبَ مَا لَا تُحْمَدُ عُقْباهُ.

- يَـا لَكَ مِنْ مُتَهَـوِّرٍ أَرْعَنَ يَا لُطْفي، سَـتُهْلِكُ الْمَالَ، وَتُهينُ الرِّجالَ.

ثُمَّ صَمَتَ قَلِيلًا:

- وَمَنْ غَيْرُهُ اتَّصَلَ؟

- الشَّـيْخُ تَحْسـينُ زَيْدٍ، أَبْدَى تَعاطُفَهُ مَـعَ مُصابِنا، وَدَعَانَا لِضَبْـطِ النَّفْسِ، وَتَحَـدَّثَ عَنْ حُقوقِ الْجِـيرَةِ، وَأَنَّهَا تُمْلي عَلَيْهِ وَضْعَ أَمْوالِهِ وَرِجالِهِ في خِدْمَةِ الصُّلْحِ، ثُمَّ أَعْلَنَ جاهِزِيَّتَهُ لِلْخُرُوجِ مَعَ مَجْموعَةِ الرِّجالِ الذَّاهِبَةِ إِلَى عَسّـافِ الرَّيّانِ مِنْ أَجْلِ تَطْييبِ الخاطِرِ.

- وَمَن حَضَرَ مِنْ أَبْناءِ عُمومَتِنا؟

- أَبْناءُ حَسّانَ كُلُّهُمْ هُنا مُنْذُ أَرْبَعَةِ أَيّام مُسْتَنْفِرينَ يَنْتَظِرُونَ الأَوامِرَ، وَشُـيوخُ آلِ الجاسِمِ -مِنْ غَيْرِ حَسَّـانَ- أَبْدَوْا تَفَهُّمَهُمْ لِوَضْعِنا، وَيَنْتَظِرونَ مَا سَتَؤولُ إِلَيْهِ الأُمورُ.

- حَسَنًا، سَأَنامُ قَلِيلًا، ثُمَّ أُكَلِّمُ سُلْطانًا.

* * *

أَفَاقَ الشَّيْخُ أَسْـعَدُ مَساءً، يَمْلَؤُهُ القَلَقُ مِن الحَديثِ مَعَ الشَّيْخِ سُـلْطانٍ، وَلَكِنَّهُ حَديثٌ لَا غِنًى عَنْـهُ، فَنَادَى عَلَى أَمْجَدَ لِيَجيءَ بِالْهَاتِـفِ، وَيَطْلُـبَ لَهُ الشَّـيْخَ. وَذَهَبَ في مُخَيِّلَتِهِ يَسْـتَعْرِضُ

الاحْتِمــالاتِ القائِمَــةَ لِرُدُودِ سُــلْطان عَلَيْهِ، لَمْ تَكُنْ حِسَــابَاتُهُ مَنْطقيَّةً تَمامًا، فَقَدْ نَخَرَتِ العُقــودُ المُتَتابِعَةُ مُخَيِّلَتَهُ، وَمَلأَتْهَا بالأَوْهــام والهَــلاوِسِ، وَلَوْلَا عَادَاتٌ مُتوارَثَةٌ لَمَا بَقِيَ في رِئاسَــةِ قَوْمِهِ. لَمْ يَنْتَبِهْ لِصَوْتِ سُلْطانٍ الَّذِي انْطَلَقَ مِن الهاتِفِ:

- مَرْحَبًا.

أَعَادَهَا سُلْطانٌ مَرَّتَيْنِ حَتَّى انْتَبَهَ أَسْعَدُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ:

- أَهْلًا بِابْنِ العَمِّ، كَيْفَ حالُكَ؟

- أَنَــا بِخَيْرٍ، وَإِنْ كَانَــتْ لَفْظَةُ ابْنِ العَمِّ تُثِــيرُ عِنْدِي بَعْضَ القَلَقِ، فَقَدْ جَرَتْ عادَتُكُمْ آلَ حَسّــانَ الجَاسِــمِ أَلّا تَعْرِفونَا أَبْناءَ عُمومَةٍ إِلَّا في مَصائِبِكُمْ.

كَانَتْ لَهْجَةُ سُــلْطانٍ وَكَلِماتُهُ كافِيَتَــينِ لِتَقْلِيصِ الاحْتِمالاتِ الإيجابيَّةِ الَّتِي فَكَّرَ فِيهَا أَسْــعَدُ، فَبَدَأَ يُرَجِّحُ صُعوبَةَ الأَحْداثِ القادِمَةِ إِذَا شَارَكَ فِيهَا سُلْطانٌ، وَلَكِنْ هَلْ مِن المُمْكِنِ أَلّا يُشارِكَ؟ قَطْعًــا لَا، بَــلْ رُبَّمَا كَانَ الاحْتِمــالُ الوَحيدُ المُؤَكَّــدُ في الأَحْداثِ القادِمَةِ هوَ مُشــارَكَةُ سُــلْطانٍ فِيهَا، فَهُوَ الشَّيْخُ الأَبْرَزُ وَالأَقْوَى بَيْنَ شُــيوخِ آلِ الجَاسِــمِ، وَلَنْ يَرْضَى أَبْناءُ العَمِّ بِتَهْميشِــهِ، أَوْ تَقْليــلِ دَوْرِهِ، وَلَكِنَّ المُشْــكِلَةَ أَنَّهُ رَجُلٌ صَعْبُ المِــرَاسِ، وَعَزيزُ النَّفْسِ، وَالعِزَّةُ مَصْدَرٌ لِلْمَتَاعِبِ، لَا يَنْعَمُ بِهَيْبَتِها إِلَّا مَن اخْتَارَ

أَنْ يَدْفَعَ ضَريبَتَها. قَالَ أَسْعَدُ بِلَهْجَةِ المَغْلوبِ عَلى أَمْرِهِ:

- نَعَمْ إِنَّنَا في مَأْزِقٍ، قتَلَ لُطْفي ابْنًا لِلرَّيَّانِ، وَلَا نَدْري إِلَى أَيْنَ تَسيرُ بِنَا الأُمورُ.

- سَمِعْنَا عَن الحادِثِ، وَعَن الرِّجالِ الذَّاهِبَةِ إِلَى عَسّافٍ، وَأَنَا سَأُرْسِلُ أَخِي جابِرًا مَعَهُمْ، وَاعْلَمْ يَا أَسْعَدُ أَنَّنَا قَوْمٌ لَا نَقْبَلُ أَنْ تَسيرَ الأُمورُ بِنَا، بَلْ نَحْنُ رُبّانُها وَقائِدُها، نُسَيِّرُها شَرْقًا إِذا رَأَيْنا حاجَتَنا في الشَّرْقِ، وَنَأْخُذُ بِنَواصِيهَا ذَليلَةً غَرْبًا إِذا تَبَيَّنَّا مَصالِحَنا هُنَاكَ.

ابْتَلَعَ أَسْعَدُ كَلامَ سُلْطانٍ دُونَ أَنْ يَزيدَ عَلَى قَوْلِ «حَسَنًا»، فَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ سُلْطانًا قَرَّرَ المُواجَهَةَ نِدًّا بِنِدٍّ كَعادَتِهِ، وَأَيْقَنَ في نَفْسِهِ أَنَّهُ أَقَلُّ مِنْ مَنْعِ هَذِهِ المواجَهَةِ، حَتَّى وَإِنْ كانَ أَتونُها بَيْتَهُ، فَرِجالُهُ وَمالُهُ وَحُظْوَتُهُ بَيْنَ آلِ الجَاسِمِ قَليلَةٌ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ بَعْدُ لِمَاذا اخْتَارَ سُلْطانٌ جابِرًا - الأَخَ الأَصْغَرَ - دُونَ إِخْوَتِهِ لِهَذِهِ المَهِمَّةِ. وَأَكْمَلَ سُلْطانٌ:

- أَمَّا عِتابُنا عَلَى انْفِصالِكُمْ وَخُروجِكُمْ مِنْ حِيِّنَا فَلَمَّا يَحِنْ وَقْتُهُ بَعْدُ.



الفَصْلُ الخَامِسَ عَشَرَ

الضَّحَايَا

قَبْلَ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ عَامًا، مَاتَ نَاصِرٌ بِجُرْعَةِ هِيرُوينَ زَائِدَةٍ، فَأَضَاعَ زَوْجَتَهُ وابْنَهُ أَحْمَدَ ذَا الخَمْسَـةِ أَعْـوام، كَمَا أَضَاعَ قَبْلَها ثَرْوَةَ العائِلَةِ بِسوءِ إدارَتِهِ وَذَهابِ عَقْلِهِ لاهِثًا خَلْفَ الْهيرُوينِ، وَلا مُعيلَ بَعْدَهُ لِلأُسْرَةِ المَنْكوبَةِ سِوَى شَقيقِهِ الأَصْغَرِ، الَّذي كَانَ قَدْ أَنْهَى حِينَهَا دِراسَـتَهُ الجامِعيَّةَ لِيَخوضَ غِمارَ الحَياةِ وَأُسْرَةٌ صَغيرَةٌ تَتَعَلَّقُ بِهِ تَعَلُّقَ قـارِب -يُحاصِرُهُ البَحْرُ- بِحَبْلٍ رَقيقٍ. لَمْ يُحْسِـنِ العَمُّ -أَمَامَ ضِحْكَةِ أَحْمَدَ البَريئَةِ وَعَيْنَاهُ الْمُبْحِرَتَانِ فِي لُجاجٍ مِن اللَّمَعَانِ- إِلَّا رَمْيَ المَنْطِقِ وَالرَّكْضَ وَراءَ مَا يُمْلِيهِ القَلْبُ مِنْ شَفَقَةٍ وَرَأْفَةٍ، فَكَانَ يُعينُ الأُسْرَةَ الصَّغيرَةَ عَلَى مَعيشَتِها دُونَ أَنْ يُبْـدِيَ لَهُمْ سَـخَطَهُ مِنْ تَحَمُّلِ خَطَأِ غَـيْرِهِ، وَعَزاؤُهُ احْتِضانُ أَحْمَدَ لَهُ حِينَ يَجيءُ بِالأَلْعَابِ والطَّعامِ، وَأَيْضًا عَواطِفُهُ المُرْتَجَلَةُ عَلَى لِسانِهِ حِينَ يَقُولُ: «أُحِبُّ عَمّي نائِلًا أَكْثَرَ مِنْ أُمِّي»، فَتَبْتَسِمُ مَديحَةُ - أُمُّهُ - كَأَنَّهَا «الْمُونَالِيزَا».

* * *

أَطَـلَّ الْبَدْرُ خافِتًا يُزاحِمُ الْغُيـومَ الْمُتَراكِمَةَ، لِيَمُنَّ عَلَى الحَيِّ بِبَعْـضِ النّورِ، وَيُعْطِيَ إِعْلانًا لِسُـكّانِهِ بِجَـوَازِ الرّاحَةِ، وَلَكِنْ هَيْهَـاتَ، فالْحَيُّ يَقِظٌ يَعُدُّ جِراحَهُ عَلَّهُ يَجِدُ سَـبيلًا لِتَضْميدِها. اقْتَرَبَـتِ السّـاعَةُ مِن الثّامِنَـةِ، وَنائِلٌ يُصارِعُ خاطِـرًا في ذِهْنِهِ يَدْعـوهُ إِلَى عَدَمِ النُّهـوضِ، وَالاحْتِفاظِ بِالْحَرارَةِ الَّتي أَشْـعَلَهَا جِسْـمُهُ السّـاكِنُ تَحْتَ الدِّثارِ، فَاسْـتَعَانَ بِمَلَلِهِ وَالشَّوْقِ لِسَهْرَةٍ في بَيْتِ ياسِـرٍ أَسْـلِحَةً قَضى بِهَا عَلَى ذَلِكَ الخاطِرِ الفَتّانِ، وَإِنْ أَبْقَى في نَفْسِـهِ بَعْضَ جِراحاتٍ. تَوَجَّهَ مُسْرِعًا نَحْوَ بَيْتِ ياسِرٍ، الَّذي اسْـتَقْبَلَهُ مُسْتَلْقِيًا في حُجْرَةِ الجُلوسِ، بَعْدَ أَن انْتَقَلَتْ إِلَيْهِ فَيْرُوسَاتُ الشِّتاءِ مِنْ شَادِي فَفَتَكَتْ بِهِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِتَحِيَّةِ نائِلٍ أَكْثَرَ مِنْ إيماءَةٍ خَجُولَةٍ بِرَأْسِهِ، غَطَّ بَعْدَهَا في نَوْمٍ عَميقٍ.

اسْتَشْـعَرَ نائِلٌ الخَجَلَ، وَقَرَّرَ العَوْدَةَ لَوْلا إِصْرارُ شَادِي عَلَيْهِ بِاحْتِساءِ الشّـايِ، والمَطَرُ الَّذي بَدَأَ يَتَساقَطُ في الخَارِجِ. كَانَ نائِلٌ مُشْتاقًا لِحِوارِ شَادِي، فَبادَرَهُ بِابْتِسامَةٍ عَطوفَةٍ:

- أَراكَ أَفْضَلَ اليَوْمَ.
- نَعَمْ، لَقَدْ تَعافَيْتُ.
- هَيّا أَتِمَّ تَعافيكَ، نُريدُ أَنْ نَتَجَوَّلَ في الحَيِّ غَدًا.
- إِنِّي مُعَافًى تَمامًا، وَلَكِنّي لا أَسْتَطيعُ الخُروجَ غَدًا.

- نَعَمْ، تذكَّرْتُ، تَحَدَّثَ أبوكَ أَمَامِي عَنْ عَرّافَةٍ مَنَعَتْكَ، لِمَاذَا تَمْنَعُكَ عَرّافَةٌ مِن الخُروجِ؟

اسْتَغْرَقَ شَادِي فِي التَّفْكِيرِ يَنْتَقِي مُفْرَداتِهِ لِلتَّعْبِيرِ عَمَّا حَصَلَ مَعَ العَرّافَةِ، أَرَادَ أَنْ يُصَوِّرَ الحَدَثَ بِأَقَلِّ إِسـاءَةٍ مُمْكِنَةٍ لِلْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ وَحَمِيدَةَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ اسْـتِغْرَاقَهُ فِي التَّفْكِيرِ بِحَدِّ ذَاتِـهِ كَانَ مُثِيرًا لِلرِّيبَةِ، إِذْ جَعَلَهُ يَتَلَعْثَـمُ، وَيَقْتَطِعُ أَجْزَاءً مِن الجُمَـلِ، حَتَّى بَدَا حَدِيثُـهُ كَأَنَّهُ يَحْتَاجُ عَرّافَـةً أُخْرَى لِتُجَمِّعَ شَتَاتَهُ.

لَمْ يَشَـأْ شَـادِي القَوْلَ إِنَّ جَارَتَهُمْ فَاطِمَةَ جَـاءَتْ مُنْذُ يَوْمَيْنِ تُرِيدُ مُجَالَسَةَ حَمِيدَةَ وَشُرْبَ شَايِ الصَّبَاحِ مَعَهَا، إِلَّا أَنَّهَا قَضَتْ نِصْفَ النَّهَارِ فِي بَيْتِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ تَغْيِيرُهَا لِرَأْيِهَا بِسَـبَبِ مُتْعَةِ وَجَدَتْهـا مَعَ حَمِيدَةَ، بَلْ جُمْلَةٍ قَالَتْهَا بَهِيَّةُ لِأُمِّهَا: «إِنَّ شَـادِيًا نَائِمٌ يَهْذِي»، فَطَلَبَتْ فَاطِمَةُ أَنْ تَرَاهُ لَعَلَّهَا تَسْـتَطِيعُ المُسـاعَدَةَ، فَلَمَّـا رَأَتْ حَمِيـدَةُ مِنْهَا الجِدِّيَّـةَ وَالْحَزْمَ أَخَذَتْهـا حَيْثُ يَنَامُ شَـادِي، الَّذِي كَانَ يَتَقَلَّبُ كَثِيرًا فِي نَوْمِهِ وَلَا يَسْتَقِرُّ عَلَى جَانِبٍ، وَيُفَـرِطُ فِي الحَدِيثِ غَيْرِ المُتَرَابِـطِ، وَفِي ذِكْرِ كَلِماتٍ غَيْرِ مَأْلُوفَةٍ: «جَمَاعِيَّةٍ، شَخْصِيَّةٍ اجْتِنَابِيَّةٍ، صِرَاعٍ، يُوتُوبْيَا»، فَضَرَبَتْ فَاطِمَةُ بِيَدِهَا عَلَى صَدْرِهَا، وَقَالَتْ:

- يَا إِلَهِي، إِنَّهُ يُحَادِثُ الجِنَّ.

لَمْ تَحْتَمِلْ حَميدَةُ وَقْعَ كَلِماتِها، فَوَضَعَتْ يَدَيْهَا عَلَى رَأْسِها:

- يَا وَلَدي، كَمْ تُعَانِي!

وَكَادَتْ أَنْ تَبْدَأَ النَّدْبَ لَوْلَا أَنْ أَكَّدَتْ لَهَا فاطِمَةُ بِلَهْجَةِ الخَبِيرِ المُتَمَرِّسِ أَنَّ عِلاجَ شَادِي أَمْرٌ سَهْلٌ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي التَّعْجِيلُ بِهِ.

لَمْ يَكُنِ العِلاجُ سِـوى عَرّافَةٍ سَاقَتْ حَميدَةُ شَادِيًا إِلَيْهَا، وَقَدْ خَلُصَتِ العَرّافَةُ إِلَى أَنَّ الإِنْفِلْوَنْزَا لا تَسْـتَدْعِي الهَذَيانَ، وَأَشَادَتْ بِقَوْلِ فاطِمَةَ إِنَّ هَذَا الكَلامَ الغَرِيبَ الَّذِي تَفَوَّهَ بِهِ شَـادِي هوَ مِنْ كَلام الجِـنِّ، وَلَكِنَّها أَوْضَحَتْ أَنَّ شَـادِيًا في مَرْحَلَـةٍ مُتَقَدِّمَةٍ مِنْ تَواصُلِهِ مَعَهُمْ، إِذْ بَدَأَ يَتَعَلَّمُ لُغَتَهُمْ، وَأَنَّ الجِنَّ كَثيرُ الزِّيارَةِ لَهُ، وَبَيَّنَتْ أَنَّ شَـبابَ شَادِي يُغْرِي بَناتِ الجِنِّ الشَّـبِقَاتِ، فَطَلَبَتِ العَرّافَـةُ مِنْ حَميدَةَ بَعْضَ المِلْحِ، وَرِيشَـتَي دَجـاجٍ، وَخَلْطَةً مِن الكَمّـونِ وَالزَّعْفَـرَانِ. وَبَعْـدَ أَنْ جَلَبَتْ حَميـدَةُ الوَصْفَةَ، أَكَّدَتِ العَرّافَةُ أَنَّ الجِنِّيَّةَ العاشِـقَةَ خَرَجَتْ مِنْ جَسَـدِ شَـادِي، وَلَكِنَّ كِبْرِياءَ الأُنْثَى وَشَوْقَها يَدْفَعانِها إِلَى البَقاءِ فِي الأَنْحاءِ مُتَرَبِّصَةً، لِذَلِكَ يَنْبَغِي عَلَى شَادِي أَلّا يَخْرُجَ لِثَلَاثَةِ أَيّام لاحِقَةٍ.

غَضَّ شَـادِي الطَّرْفَ عَـنْ كُلِّ هَذَا، وَاكْتَفَـى بِإِخْبارِ نائِل أَنَّ حَميدَةَ نَقَلَتْ إِلَيْهِ مَشِـيئَةَ عَرّافَـةٍ بِمَنْعِهِ مِن الخُروجِ ثَلاثَةَ أَيّام لِأَسْـبابٍ لا يَعْلَمُها، وَلَمْ يَشَـأْ نائِلٌ التَّطَفُّلَ عَلَيْـهِ، فَاكْتَفَى بِمَا سَمِعَهُ، وَاحْتَسَى الشّايَ، وَذَهَبَ.

الفَصْلُ السَّادِسَ عَشَرَ

السِّفَارَةُ

مَـا انْفَـكَّ الغُموضُ عَـدوًّا يُقْلِقُ النّـاسَ، وَيَفْـتَرِسُ بِأَنْيابِهِ المَسْـمومَةِ بِالتَّوَتُّرِ سَـلامَهُم الدّاخِلِيَّ، وَالغُمُوضُ مَرَضٌ لَا يُشْبِهُ غَيْرَهُ مِـن الأَمْـراضِ، فَعِلاجُهُ لَيْسَ بِيَدِ طَبيبٍ ماهِرٍ، وَلا حَتَّى دَجّالٍ مُتَحاذِقٍ، بَلْ بَيْنَ أَوْراقِ أَكاديميٍّ يُتْقِنُ تَسْـمِيَةَ الأَشْـياءِ، وَتَحْديـدَ مَظاهِرِهـا بِمَا يَجْعَلُهـا مُمَيَّزَةً عَنْ غَيْرِهـا، فَلَوْ قُلْتَ لِأَحَدِهِمْ: «شَـرِبْتُ ذَلِكَ المُرَكَّبَ الكيمْيائِيَّ الشَّـفافَ عَديمَ اللَّوْنِ والرّائِحَـةِ» لَغَدا قَلِقًا مُضْطَرِبًا يَسْـتَهْلِكُ مَا تَيَسَّـرَ لَهُ مِنْ ذاكِرَةٍ وَمَهـاراتٍ تَحْليليَّـةٍ إِلَى أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ مَا شَـرِبْتَهُ يُدْعَى «مَاءً». لِهَذَا لَمْ يَكُفَّ الحَيُّ عَنْ إِيجَادِ مُسَـمًّى لِما تَفْعَلُهُ أَريجُ، فَافْتَرَضَ أَكاديمِيٌّ أَنَّهَا «مازوخيَّةٌ»[1]، وَأَشَـاعَ شابٌّ حالِمٌ أَنَّهَا مَعْشوقَةٌ، وَنَشَرَ - بَيْنَ النّاسِ - خَبيرٌ بِالنِّسَاءِ أَنَّهَا عاهِرَةٌ، وَلَكِنْ أَريجُ لَمْ تَكُنْ أَيًّا مِنْ هَذَا.

(١) المازوخيَّـةُ هِـيَ اضْطِرابٌ نَفْسِـيٌّ سُـلوكيٌّ، وَتَعْني البَحْـثَ عَنِ الأَلَمِ، والاسْتِمْتاعَ عِنْدَ تَلَقّي التَّعْذيبِ الجَسَديِّ أَو النَّفْسيِّ أَو الجِنْسيِّ.

وَضَعَتْ أَريجُ يَدَها عَلَى خَدِّها بِشَكْلٍ تِلْقائيٍّ مِنْ شِدَّةِ الصَّفْعَةِ، ثُمَّ ابْتَسَمَتْ قَائِلَةً:

- سَلِمَتْ يَداكَ يا سَيِّدَ الحَيِّ.

أَلِفَتْ أَريجُ أَنْ يُعامِلَها عَسّاف بِذُلٍ مُنْذُ أَنْ كانَتْ طِفْلَةً رَضيعَةً، حَتَّى غَدا الإِذْلالُ وَتَقَبُّلُه جُزْءًا مِنْ عَلاقَتِها بِهِ، فَكَانَ عَسّافُ يَسْتَقْبِلُهَا مُهينًا وَيُوَدِّعُها مُهينًا دُونَ أَنْ تَشْعُرَ بِغَضاضَةٍ. نَزَلَتْ عَنِ السَّريرِ لِتَرْتَديَ مَلابِسَها، ثُمَّ وَضَعَتْ مُغَلَّفًا فِيهِ مَبْلَغٌ كَبيرٌ مِنَ المَالِ عَلَى السَّريرِ قَبْلَ أَنْ تَمْضيَ، وَلَمْ تَرَ يَوْمًا ضَيْرًا في هَذَا، فَقَدِ اعْتَادَتْ عَلى أُمِّها وَهيَ تَفْعَلُ ذَلِكَ، وَالمَرْءُ يَنْشَأُ عَلَى تَقاليدِ أَهْلِهِ حَتَّى لَيَظُنَّها عَاداتِ الكَوْنِ وَسُنَنَ الطَّبيعَةِ، فَيَتَقَبَّلُهَا تَقَبُّلَ تَلَاحُقِ الشُّرُوقِ وَالْغُروبِ، بَلْ رُبَّمَا يَتَعَصَّبُ لَهَا فَيَرَى مَا يُخَالِفُهَا مُنْكَرًا. أَمَّا عَسّافُ فَلَمْ يَجِدْ حَرَجًا فِي ذِكْرِ عَلاقَتِهِ بِأَريجَ وَأُمِّها، بَلْ وَالتَّبَاهِيَ بِهَا، مِمَّا جَعَلَ سُكّانَ الحَيِّ كُلَّهُمْ يَعْلَمُونَ بِهَا.

قَبْلَ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ عَامًا وَرِثَتْ سُمَيَّةُ مَالًا لا يَنْضُبُ، فَتَوَجَّهَتْ عُيونُ أَهْلِ الحَيِّ نَحْوَها، فَخَافَتْ عَلَى نَفْسِها وَمالِها، وَلَمْ تَثِقْ في زَوْجِها حَامِيًا، فَهَرَبَتْ مِنْ بَيْتِها تائِهَةً مُتَحيِّرَةً، وَلَمْ تَجِدْ أَمَامَهَا مَنْ يَحْمِيهَا إِلَى أَن امْتَدَّتْ يَدُ شَيْخِ الرَّيّانِ لَها، فَتَعَهَّدَ بِحِمَايَتِهَا، بَلْ جَعَلَها وَاجِبًا مِن الوَاجِبَاتِ المَنوطَةِ بِأَيِّ

شَـيْخ لَاحِقٍ لِآلِ الرَّيَّانِ، وَلِأَنَّ تَعاقُبَ الأَيّام يَكْشِـفُ مُضْمَرَاتِ النُّفوسِ كَمَا تَكْشِـفُ سِـتارَةٌ تُفْتَحُ مِنْ داخِلِ غُرْفَةٍ مَا بِخارِجِها مِنْ مَشـاهِدَ؛ فَقَدْ عَرفَتْ سُمَيَّةُ أَنَّ ثَمنَ حِمايَتِها مَالُهَا وَجَسَدُهَا. وَتَتَابَعَتِ الأَجْيالُ وَكُلٌّ مُلْتَزِم بِوَاجِبَاتِهِ، فَشُـيوخُ الرَّيَّانِ -كابِرًا عَنْ كابِرٍ- يُضَاجِعُونَ نَسْـلَ سُمَيَّةَ، وَيَسْتَحْوذونَ عَلَى أَمْوالِهِنَّ، فِي مُقابِلِ حِمايَتِهِنَّ، وَكَانَتْ أُخَيْرَتَهُنَّ أَريجُ.

فَتَحَ الحارِسُ لِأَريجَ الْبَابَ الرَّئِيسيَّ حِينَ لَاحَتْ لَهُ قادِمَةً مِن الدَّاخِلِ البَعيدِ كَأَنَّهَا بُقْعَةٌ سَوْداءُ عَلَى البَيْتِ الأَبْيَضِ.

* * *

لِلسِّـيَادَةِ مُقْتَضَيَـاتٌ لَا بُدَّ مِنْ تَوفُّرِها فِي مَـنْ رَامَهَا، فَتَرَاهَا تَأْلَفُ الشُّـجاعَ الحـازِمَ الحَلِيمَ، وَتَسْـتَوْحِشُ الجَبـانَ المُتَرَدِّدَ الغَضـوبَ، وَقَلَّمَا اجْتَمَعَتْ مُقْتَضَيَاتُ السِّـيادَةِ هَذِهِ فِي رَجُلٍ كَمَا اجْتَمَعَـتْ فِي خالِدِ المَرْزوقِ، لِذلِكَ فَقَد اخْتـارَهُ الرِّجالُ مُتَحَدِّثًا بِاسْمِهِمْ فِي سِـفارَتِهِمْ إِلَى عَسّافِ الرَّيّانِ، بِالإضافَةِ إِلى كَوْنِهِ ابْنُ أُسْـرَةٍ عَريقَةٍ وَقَوِيَّةٍ فِي الحَيِّ، تَحْميهِ إِذَا تَكَالَبَتْ عَلَيْهِ صُروفُ الدَّهْرِ. اعْتَدَلَ عَسّافُ فِي جِلْسَتِهِ واصْطَنَعَ الوَقارَ وَالتَّجَهُّمَ - كَمَا يَلِيقُ بِسَـيِّدٍ مِنْ سَادَاتِ الحَيِّ - حِينَ سَمِعَ وَقْعَ خُطَى القَوْمِ. وَقَدْ

ضَمَّ مَجْلِسُهُ راغِبَ غَريبٍ وَمَمْدوحَ يَاسِينَ وَرَئيسَ مَرْكَزِ الشُّرْطَةِ فِي الحَيِّ، المُقَدَّمَ خَليلَ عَيّاشٍ.

جَلَسَ أَسْعَدُ حَسّانَ إلَى يَمينِ خالِدٍ، وَيَدُهُ المُرْتَجِفَةُ تَتّكِئُ عَلَى عَصاهُ، وَمِلْءُ جَوْفِهِ شُعورٌ أَنَّهُ أَشْقَى أَهْلِ الأَرْضِ جَميعًا. نَظَرَ إلَى خالِدٍ لَعَلَّهُ يَبْدَأُ حَديثَهُ، فَيَكْسِرَ التَّوَتُّرَ المُنْتَشِرَ فِي الأَجْواءِ. أَحَسَّ خالِدُ بِقَلَقِ أَسْعَدَ، وَتَحَفُّظِ عَسّافٍ، فَارْتَأَى بَدْءَ الكَلامِ بِمُداعَبَةِ عَسّافٍ:

- أَرَى أَنَّ وَزْنَكَ فِي تَزايُدٍ يَا عَسّافُ، هَلّا كَفَفْتَ عَنْ لُحومِ حَيَواناتِ الحَيِّ.

أَبْدَى عَسّافُ نَواجِذَهُ، فَانْشَرَحَ صَدْرُ أَسْعَدَ، وَلَكِنْ سُرْعانَ مَا سَقَطَتِ العَصَا مِنْ يَدِهِ، وَاسْتَحالَتِ الرّاحَةُ الَّتي غَمَرَتْ وَجْهَهُ وُجومًا حِينَ بَدَأَ عَسّافُ كَلامَهُ، فَتَمَنَّى أَسْعَدُ أَنْ يَعودَ بِهِمِ الزَّمانُ، فَيَقْتُلَ لُطْفي أَحَدَ أَبْنائِهِ بَدَلًا مِن ابْنِ الرَّيّانِ، وَيَنْتَهِيَ الأَمْرُ عَلَى هَذا، فَالتَّوَرُّطُ مَعَ آلِ الرَّيّانِ يُهَدِّدُهُ وَأَبْناءَهُ كُلَّهُمْ. لَمْ يَكُنْ عَسّافُ قَدْ زادَ عَنْ قَوْلِ:

- إذَا نَفِدَتْ حَيَواناتُ الحَيِّ فَإنَّ لَنا غِنًى فِي لُحومِ البَشَرِ.

تَدارَكَ خالِدُ وُجومَهُ الَّذي ظَهَرَ عَلَى وَجْهِهِ بِابْتِسامَةٍ لَمْ تَفْتَرِقْ فِيهَا شِفاهُهُ، ثُمَّ قالَ:

- إنَّمَا يَتَمَيَّزُ الْبَشَـرُ عَن الحَيَوَانَاتِ بِالْأَخْلَاقِ، وَإِنَّ الأَخْلاقَ لَتَتَفاضَـلُ، وَأَفْضَلُها الرَّحْمَةُ، والرَّحْمَةُ جاذِبَـةٌ لِلْعَفْوِ، جالِبَةٌ لِلْخَيْرِ، والْخَيْرُ مُبْتَغانا وَغايَتُنا، لِأَجْلِهِ جِئْنَا وَجِئْتُمْ، فَارْحَمُوا وَاصْفَحوا، وَاحْقِنوا الدِّماءَ، وَآثِرُوا الاسْتِقْرارَ عَلَى الدَّمارِ.

رَدَّ عَسّافٌ سَرِيعًا:

- وَأَيْنَ حَقُّ القَتيلِ مِنْ تِلْكَ الرَّحْمَةِ؟ وَأَيْنَ اسْـتِقْرارُ أُسْـرَتِهِ وَأَهْلِهِ؟

- وَكَيْفَ تَرَى نَيْلَ حُقوقِهِ وَحُقوقِهِمْ؟

- كَانَ مُعْتَصِمٌ رَسـولَ آلِ الرَّيّانِ فِي الحارَةِ الشَّـرْقيَّةِ، وَكَانَ يَسْعَى لِتَطْويرِ الحارَةِ وَجَعْلِها مَكَانًا أَفْضَلَ، وَلَكِنَّهُ قُوبِلَ بِالْقَتْلِ غَدْرًا، أَيُقْتَلُ ابْنٌ لِلرَّيَّانِ يَا خالِدُ ثُمَّ تَطْلُبُ مِنَّا الصَّفْحَ!

انْتَفَضَ جابِرٌ وَاقِفًا مِنْ مَقْعَدِهِ، ثُمَّ قَالَ ناظِرًا لِعَسّافٍ:

- أَرْواحُ أَبْنـاءِ الرَّيّانِ لَا تَزيدُ قيمَةً عَنْ أَرْواحِ غَيْرِهِمْ، وَإِنِّي لَأَرْجُو بَعْدَ انْتِهائِنا مِنْ أَمْرِ هَذَا الحادِثِ أَنْ تَدَعُوا شُؤونَ الحارَةِ الشَّرْقيَّةِ لِأَهْلِهَا، فَلَا شَأْنَ لَكُمْ فِيهَا.

ثُمَّ نَظَرَ إِلَى راغِبٍ وَمَمْدوحٍ:

- وَلَا لِغَيْرِكُمْ.

زَمْجَرَ عَسّافٌ كَأَنَّهُ رَعْدٌ دَوَّى:

- مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الأَرْعَنُ؟

رَفَعَ جابرٌ رَأْسَهُ لِلأَعْلَى قَلِيلًا، وَرَدّ بِثِقَةٍ:

- أَنَا أَخُو سُلْطانِ الجَاسِم، وَمُمَثِّلُهُ فِي هَذِهِ السِّفارَةِ.

قَالَ عَسّافٌ بِصَوْتِهِ الجَهْوَرِيِّ الغاضِبِ:

- أَلا يَعْرِفُ سُلْطانٌ كَيْفَ يَخْتارُ لِسِفاراتِهِ مَنْ يَعْرِفُ قَدْرَ الرِّجالِ! لَوْلَا أَنَّكَ فِي بَيْتِي وَجِئْتَ مَعَ الشَّيْخِ خالِدٍ لَقَتَلْتُكَ عَلَى تَطاوُلِكَ.

صَمَتَ عَسّافٌ لَحَظاتٍ ابْتَلَعَ فِيهَا كُلَّ الهَوَاءِ الَّذِي فِي الغُرْفَةِ، وَأَوْقَعَ شَكْلُهُ الخَوْفَ فِي نَفْسِ جابِرٍ، الَّذِي لَمْ يَسْتَجْمِعِ الرَّدَّ، فَتَابَعَ عَسّافٌ:

- وَلَكِن اعْلَمْ أَنَّ أَمامَكَ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ ساعَةً لِتَكُونَ قَدْ خَرَجْتَ مِنْ حِمايَ؛ لِأَنِّي سَأَقْتُلُكَ حِينَ تَقَعُ عَيْنِي عَلَيْكَ، أَتَعْرِفُ إِلَى أَيْنَ يَمْتَدُّ حِمايَ أَيُّهَا الوَغْدُ!

خَرَجَ جابرٌ بِخُطًى سَرِيعَةٍ، وَهُوَ يُتَمْتِمُ:

- سُلْطانٌ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا تُوزَنُ الرِّجالُ وَلَا الأَرْواحُ بِمَوازِينِ آلِ الرَّيّانِ.

اسْتاءَ جابرٌ مِنْ عَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَى مواجَهَةِ عَسّافٍ مُباشَرَةً، فَقَدْ عَلِمَ أَنَّ سَبَبَها لَيْسَ حِلْمًا مِنْهُ، وَلا ضَرْبًا مِنْ ضُروبِ السِّياسَةِ،

إنَّمَــا هوَ عَجْــزٌ وَقِلَّةُ حيلَةٍ لا تَليقُ بمُرَشَّــحٍ لاحِقٍ لِمَشْـيخَةِ آلِ الجَاسِــم، وَمَا لَبثَ أنْ أقْنَعَ نَفْسَــهُ أنَّ صِغرَ سِنِّهِ مُقارَنَةً بعَسّافٍ عاملٌ مُهمٌّ في خَســارَةِ هَذهِ الجَوْلَةِ، وَأنَّ تَقدُّمَ العُمُرِ وَحْدَهُ كَفيلٌ بتَجْميعِ الخِبْرَاتِ. اتَّصَلَ بسُلْطانٍ وَأخْبَرَهُ بِمَا جَرَى.

كَانَتْ وَتيرَةُ الأَحْداثِ أسْرَعَ مِنْ أنْ يَتَدارَكَها خالِدٌ، كُلُّ شَيْءٍ حَــدَثَ في دَقيقَةٍ، دَقيقَةٍ واحِــدَةٍ تَكَفَّلَتْ بجَعْــلِ الحُرِّ مُهَدَّدًا، وَبالعَبَــثِ في اسْــتِقْرارِ بُيــوتٍ وَأحْيَاءٍ، في حِينِ أنَّــهُ قَدْ تَمضي سَــاعَاتٌ، بَلْ شُــهورٌ دُونَ أنْ يَحْدُثَ شَــيْءٌ ذُو قِيمَةٍ، مَا أغْرَبَ الوَقْتَ! لَمْ يَسْتَطِعْ خالِدٌ إلَّا تَوْزيعَ النَّظَرَاتِ الغاضِبَةِ بَيْنَ عَسّافٍ وَجابِــرٍ. وَفي دَقيقَةٍ أُخْرَى كَانَ شــامِلُ الكَوّارِيِّ قَــدْ خَرَجَ وَراءَ جابرٍ، وَتَبعَهُ أبْناءُ الجَاسِــمِ كُلُّهُمْ، حَتَّى أسْــعَدُ، وَلَكِنْ لَمْ تَكُنِ العِزَّةُ مَا أخْرَجَهُ، بَل الخَوْفُ عَلَى حَياتِهِ.

قَالَ خَليلُ عَيّاشٍ:

- إنَّنَا نُبْدي قَلَقَنا مِمَّا يَحْدُثُ في الحَيِّ.

لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ أحَدٌ، صَمْتَ الجَميعُ، وَوَقَفَ خالِدٌ قَائِلًا:

- هَاتِ طَلَباتِكَ مِنْ آلِ الجَاسِمِ يَا عَسّافُ، لِآخُذَها وَأرْحَلَ.

- لَدَيْنَا ثَلاثَةُ طَلَباتٍ؛ أوَّلًا: أنْ يَأْتيَ لُطْفي وَكُلُّ مَنْ أتَمَّ الثّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنْ إخْوَتِهِ، وَمَعَهُمْ أكْفانُهُمْ، وَلَنَا تَقْريرُ مَصيرِهِمْ؛ ثَانِيًا:

أَلَّا يَدْخُـلَ أَحَدٌ مِنْ آلِ الجَاسِـمِ الجُزْءَ الغَرْبيَّ مِن الحَيِّ؛ شَمالَهُ وَجَنوبَهُ، وَإِلَّا فَلَسْـتُ مَسْـؤُولًا عَنْ حَياتِهِ؛ ثالِثًـا: أَنْ يَدْفَعَ آلُ الجَاسِمِ عَشْرَ سَبائِكَ مِن الذَّهَبِ، أَوْ مَا يُعادِلُها مِن النُّقودِ.

- أَراكَ مُجْحِفًا يَا عَسّافُ.

- فَأَنْتُمْ مَعَ آلِ الجَاسِمِ إِذًا!

- نَحْنُ لَسْنَا مَعَ أَحَدٍ، وَلَا ضِدَّ أَحَدٍ، إِنَّمَا نَسْعَى لِحَقْنِ الدِّماءِ، وَلَكِنَّكَ تَطْلُبُ مَا لَمْ يَعْهَدْهُ الحَيُّ، وَإِنِّي -وَإِنْ كُنْتُ أَحْسَبُكَ رَجُلًا هَادِئًـا حَلِيمًا- أَظُنُّ أَنَّ غَضَبَكَ مِنْ جابرٍ جَعَلَكَ تَطْلُبُ مَا هوَ لَيْسَ حَقًّا لَكَ، لِهَذَا سَـأَعْتَبِرُ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْ طَلَباتِكَ هَذِهِ، وَسَآتِيكَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ، لَعَلَّ النُّفوسَ تَهْـدَأُ، فَتَجْرِي الأُمورُ عَلَى مَا اعْتَادَتْ أَنْ تَجْرِيَ عَلَيْهِ.

ثُمَّ نَظَرَ إِلَى راغِبٍ وَمَمْدوحٍ:

- أَظُنُّكُمَا عَلَى الحِيَادِ أَيْضًا.

نَظَرَ كِلَاهُما إِلَى الآخَرِ، وَقَالَ راغِبٌ:

- أَلَا تَعْلَمُ يَا خالِدُ أَنَّنَا قَدْ تَحالَفْنا مَعَ آلِ الرَّيّانِ مُنْذُ مَا يَزيدُ عَنْ سَبْعِينَ عَامًا!

ثُمَّ أَعْقَبَهُ مَمْدوحٌ:

- وَاعْلَمْ يَا خالِدُ أَنَّ آلَ يَاسِينَ لَمْ يَخْسَرُوا فِي أَيِّ مُشاجَرَةٍ مُنْذُ

أَنْ وُجِدَ الحَيُّ، وَلَمْ تُنْهَبْ لَهُمْ أَرْضٌ، وَلَا فُرِضَ عَلَيْهِمْ قرارٌ.

قَالَ خالِدٌ مُغادِرًا:

- يَبْدُو أَنَّني سَأراكُم جَمِيعًا بَعْدَ يَوْمَيْنِ.

* * *

وَصَلَ خالِدٌ بَيْتَ سُلْطانٍ فِي اليَوْمِ التَّالِي، فَاسْتَقْبَلَهُ وَعَلَى يَمينِهِ جابِرٌ:

- هَاتِ مَا عِنْدَكَ يَا خالِدُ.

- يَبْدُو أَنَّ الأَخْبارَ سَبَقَتْنِي إِلَيْكَ.

- نَعَمْ، سَبَقَتْكَ، أَيُطْرَدُ أَخٌ لِسُلْطَانٍ يَا خالِدُ، ثُمَّ يُهَدَّدُ بِالْقَتْلِ!

- إِنَّ القَوْمَ مَوْتُورُونَ يَا سُلْطانُ، وَلَا يُؤْخَذُ كَلامُهُمْ كَمَا قِيلَ.

- لَا يَلِيقُ بِالشُّيوخِ إِلَّا الحِلْمُ والْحَزْمُ، فَإِنْ كَانَ عَسَّافٌ لَا يَتَمَتَّعُ بِهِمَا، فَلِمَ نُفاوِضُهُ؟

هَمَّ خالِدٌ بِالرَّدِّ، فَرَفَعَ سُلْطانٌ يَدَهُ يوقِفُهُ مُعْلِنًا عَدَمَ انْتِهَائِهِ، ثُمَّ أَرْدَفَ:

- أَعْلِمْ عَسَّافًا أَنَّ أَمَامَ رِجالِهِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ ساعَةً لِمُغادَرَةِ الحارَةِ الشَّرْقِيَّةِ، وَإِلَّا شَبِعَتْ كِلابُ الحَيِّ كَمَا لَمْ تَشْبَعْ قَبْلًا، وَإِذَا كَانَ مَقْتَلُ غِرٍّ مِنْ آلِ الرَّيّانِ يُقابَلُ بِتَهْدِيدِ رَجُلٍ شَرِيفٍ مِنْ آلِ الجَاسِمِ، فَإِنَّ تَهْدِيدَ جابِرٍ بِرَأْسِ عَسّافٍ.

- إذَا كُنْتُـمْ سَـتُزايُدونَ عَلَى بَعْضِكُـمْ بالمَطالِـبِ، فَلْتَبْدَؤوا مُشـاجَرَتَكُمْ إذًا! حَرِيٌّ بِكُمْ آلَ الجَاسِمِ أَنْ تَسْأَلوا عَنْ طَلَباتِ آلِ الرَّيّانِ، فَأَنْتُم الواتِرونَ، وَلَهُـمْ أَنْ يَطْلُبُوا، وَإِنِّي أَراكُمْ بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ مُتَرَبِّصينَ، لا يَنْقُصُكُمْ إلَّا أَنْ تُهَاجِمُوهُمَ!

- وَمَا هِيَ طَلَباتُ آلِ الرَّيّانِ؟

- أَمْهَلْتُهُمْ يَوْمَيْنِ لِمُراجَعَتِها، كَمَا أُمْهِلُكَ يَوْمَيْنِ أَيْضًا لِتُعيدَ حِسـاباتِكَ، وَإِنْ كُنْتُ فِي قَرارَةِ نَفْسِي أَعْلَمُ أَنَّكَ حاسِمٌ لِأَمْرِكَ مُنْذُ إرْسـالِكَ جابِرًا، وَالَّذي لَمْ يَكُنْ إلَّا لِاسْتِفْزازِهِمْ، أَتُريدُ الشِّجار مَعَهُمْ يَا سُلْطانُ؟

- أَلا تَرَى أَنَّنَا فِي شِجارٍ مَعَهُمْ مُنْذُ عُقودٍ طَويلَةٍ، وَأَنَّ صِراعَنَا مَعَهُمْ لَيْسَ وَليدَ اللَّحْظَةِ، لَقَدْ قَسَّمُونَا قَبْلَ ثَلاثينَ عامًا، فَجَعَلُوا البَيْتَ بُيُوتًا، والشَّـيْخَ شُـيُوخًا، وَإِذَا كُنَّا قَـدْ قَتَلْنا رَجُلًا مِنْهُم الآنَ، فَهِيَ لَيْسَـتْ إلَّا كَـرَّةً مِنْ حَرْبٍ ضَروسٍ، لَـنْ تَنْتَهِيَ إلَّا بِانْتِهَاءِ أَحَدِنا.

- أَنْتَ تَبْغِي وتَتَجَبَّرُ يَا سُلْطانُ، وتَنْبُشُ أُمُورًا حُسِمَتْ وَبَتَّ فِيهَا شُيوخٌ قَبْلَكَ، والأَوْلَى بِكَ انْتِظارُ مَطالِبِ القَوْمِ، والرَّدُّ عَلَيْهَا بِمَا يَقْبَلُهُ العُرْفُ.

- لَمْ يَبُتَّ أَحَدٌ شَـيْئًا، إِنَّ مَا تَرَاهُ أُمُورًا مَحْسـومَةً لَيْسَ إِلَّا هُدْنَةً مُؤَقَّتَةً.

صَمَتَ سُلْطانٌ يَتَفَحَّصُ وَجْهَ خالِدٍ، ثُمَّ تابَعَ:

- إِنَّ فِي كَلامِكَ مَا يُوحِي بِأَنَّكَ مِنْهُمْ يَا خالِدُ.

- لَسْـتُ مِنْ أَحَدٍ، وَلَا مَعَ أَحَدٍ، أَنَا أَسْـعَى لِلصُّلْحِ بِمَا يَعْرِفُهُ الحَيُّ مِنْ عَادَاتٍ وَقَوانينَ، فَإِذَا فَشِـلَتْ سِـفَارَتِي، لَنْ يُشارِكَ فِي مُشاجَرَتِكُمْ مِنْ آلِ المَرْزوق رَجُلٌ وَلَا مَالٌ.

صَمَتَ خالِدٌ لَحَظاتٍ، ثُمَّ أَرْدَفَ:

- أَراكَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ، والسَّلامُ عَلَى أَهْلِ السَّلامِ.



الفَصْلُ السَّابِعَ عَشَرَ

الرِّسَالَةُ

لِلْقَدَرِ عَجائِبُهُ الَّتي لَا تَنْتَهي، فَهُوَ قادِرٌ عَلَى إِدْهاشِ النّاسِ بِمَا يَبْتَكِرُ مَهْما ظَنُّوا إِحاطَتَهُمْ بِمَنْطِقِهِ، وَمِنْ تِلْكَ العَجائِبِ الرِّسالَةُ الَّتي تَلَقَّاها نائِلٌ عَلَى هاتِفِهِ، كانَتْ غَرِيبَةً لِما أَثارَتْهُ في نَفْسِهِ مِنْ دَهْشَةٍ وَأَسْئِلَةٍ، بَلْ وَإِنْكارٍ أَيْضًا، وَالَّذي مَا لَبِثَ أَنْ تَزايَدَ، حَتَّى سَيْطَرَ عَلَى ذِهْنِهِ احْتِمالٌ أَنَّ شَخْصًا مَا يُمازِحُهُ بِإِرْسالِ تِلْكَ الرِّسالَةِ، وَلَكِنْ في قَلْبِ ذَلِكَ الاحْتِمالِ الطّاغي كانَ يَتَراءَى احْتِمالٌ ضَئيلٌ - كَأَنَّهُ نُقْطَةٌ في وَسَطِ بَحْرٍ - بِأَنَّ الأَمْرَ حَقيقيٌّ، وَرَجُلٌ مِثْلُ نائِلٍ يَعْرِفُ أَنَّ الشَّاذَّ كَثِيرًا مَا يَتَوارَى خَلْفَ المَأْلوفِ، وَأَنَّ رَحِمَ الاعْتياديِّ مِن الأُمورِ طَالَمَا أَنْجَبَ الأَعاجيبَ، لِذَلِكَ كَانَتْ ظِلالُ احْتِمالٍ ضَئيلٍ بِغَرابَةِ الأَمْرِ حَرِيَّةٌ بِتَتَبُّعِها، وَخُصُوصًا إِذَا لَمْ يَسْتَدْعِ تَتَبُّعُها هَذَا أَيَّ خَسارَةٍ، فَلَنْ يُضيرَ نائِلًا لَوْ جَرَّبَ الاسْتِجابَةَ لِلرِّسالَةِ، وَهَذَا مَا جَعَلَهُ يُتَمْتِمُ: مَكْسَبٌ عَظيمٌ وَراءَ احْتِمالٍ ضَئيلٍ، وَلا خَسارَةَ، سَأَذْهَبُ إِذًا، وَهَلْ جِئْتُ إِلى هَذا الحَيِّ مِن البِدايَةِ إِلَّا لِأُمورٍ كَهَذِهِ!

انْتَفَضَ نائِلُ وَاقِفًا انْتِفاضَةَ أَسَدٍ يَهْجُمُ عَلَى فَرِيسَتِهِ، وَحَزَمَ أَمْتِعَتَهُ سَرِيعًا كَأَنَّهُ عاشِقٌ مَلْهوفٌ أَتاحَ لَهُ القَدَرُ فُرْصَةً نادِرَةً لِلِقاءِ الحَبيبِ. اسْتَعْجَلَ سائِقَ التّاكْسي نَحْوَ بَيْتِ ياسِرٍ، وَلَمْ تَكُنْ عَجَلَتُهُ هَذِهِ لِتُخْفي شَوْقَهُ لِشادي الَّذِي اسْتَقْبَلَهُ عَلَى البَابِ بِلَهْفَةٍ:

- نائِلُ، تَفَضَّلْ بالدُّخُولِ.

احْتَضَنَهُ نائِلٌ بِشَوْقٍ قائِلًا:

- لَيْسَ أَمامَنا وَقْتٌ، هَل انْتَهَيْتَ مِنْ أَمْرِ العَرّافَةِ يا فَتَى؟

رَدَّ شادِي فَرِحًا:

- نَعَمْ.

ثُمَّ عَجَّلَ بِالسُّؤالِ:

- هَلْ سَنَخْرُجُ اليَوْمَ؟

- أَجَلْ، أَيْنَ أَبوكَ؟

- فِي المَزْرَعَةِ.

- اذْهَبْ واحْزِمْ أَمْتِعَتَكَ بِمَا يَكْفِي لِيَوْمَيْنِ، وَسَأَذْهَبُ لاسْتِئْذانِهِ فِي مُرافَقَتِكَ، ثُمَّ أَعودُ إِلَيْكَ.

- إِلَى أَيْنَ سَنَذْهَبُ؟

- لَا وَقْتَ لِلشَّرْحِ، سَأَقُولُ لَكَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الطَّرِيقِ.

دَخَلَ شَادِي غُرْفَتَهُ مُسْتَغْرِبًا، فَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ يَرَى نائِلًا مُتَعَجِّلًا، يَبْـدُو أَنَّ الخَطْـبَ جَلَلٌ، وَلَكِنَّـهُ لَا يَدْعُو لِلْقَلَقِ، فَقَـدْ بَدَا نائِلٌ سَعِيدًا. وَأَيًّا كَانَ الخَطْبُ فَمُرافَقَةُ نائِلٍ وَحْدَهَا غايَةٌ عِنْدَ شَادِي، وَدافِعٌ يُحَفِّزُهُ لِلذَّهَابِ وَالانْتِهاءِ مِنْ أَمْرِ الأَمْتِعَةِ.

* * *

مَضَتِ السَّـيّارَةُ بِالرَّفيقَيْنِ الجَالِسَيْنِ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ فِي المَقْعَدِ الخَلْفِـيِّ، وَلَمْ يَجِدْ شَـادِي مَا يَقْضِي بِهِ وَقْتَهُ طَـوالَ الطَّرِيقِ إِلَّا مُراقَبَـةَ نائِلٍ، الَّـذِي لَمْ يَثْبُتْ فِي مَكانِهِ أَبَدًا كَأَنَّهُ وَرَقَةُ شَـجَرٍ هَشَّـةٌ أَخَّرَها قَدَرُها لِتَعْبَثَ بِهَـا رِياحُ نُوفَمْبِرَ. وَقَـدْ تَنَاوَبَتْ مَفاصِلُهُ كُلُّها بِحَرَكاتٍ غَـيْرِ هادِفَةٍ، فَمَرَّةً يُحَرِّكُ يَدَهُ، وَأُخْرَى يَهُزُّ قَدَمَهُ، وَثالِثَةً يَعْبَثُ بِأَصابِعِهِ. لَمْ يَسْـأَلْهُ شَادِي عَنِ الدّاعِي لِهَـذِهِ الرِّحْلَةِ المُفاجِئَـةِ، فَقَدْ خُيِّـلَ إِلَيْهِ أَنَّ نائِلًا لَنْ يَسْـمَعَهُ لِيُجِيبَهُ، وَلِأَنَّ الإِحْسـاسَ بِالزَّمَنِ رَفِيقٌ مُخْلِصٌ لِلشُّـعُورِ؛ فَهُوَ بَطِيءٌ لِمَنْ يَنْتَظِرُ بِفُضولٍ ما لا يَعْلَمُهُ، وَسَـرِيعٌ لِمَنْ يَضْطَرِبُ ذِهْنُهُ بِالهَواجِسِ والاحْتِمالاتِ؛ فَقَدْ أَحَسَّ شَـادِي أَنَّ الدَّهْرَ سَيَنْقَضِي قَبْلَ أَنْ يَصِلَا، فِي حِينِ قَطَعَ نائِلٌ الطَّرِيقَ سَرِيعًا كَالضَّوْءِ.

* * *

لَمْ يَزِدْ شَادِي عَن النَّظَرِ إِلَى نائِلٍ، الَّذِي وَقَفَ أَمَامَ قَصْرٍ ضَخْمٍ ثُمَّ تَقَدَّمَ خُطُواتٍ خَجِلَةً لَا تُشْفِي غَلِيلَ دَقَّاتِ قَلْبِهِ المُتَسارِعَةِ، لِيَدْخُلَ مِن البَابِ الرَّئِيسيِّ إِلَى أَوَّلِ مَكْتَبٍ قَابَلَهُ:

– عُذْرًا، أَيْنَ مَكْتَبُ الدُّكْتورِ عارِفِ الرَّيَّانِ؟

– في آخِرِ المَمَرِّ مُباشَرَةً.

نَسِيَ نائِلُ –عَلَى غَيْرِ عادَتِهِ– أَنْ يَشْكُرَ الرَّجُلَ، وَتَقَدَّمَ إِلَى آخَرِ المَمَرِّ، دُونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى شَادِي. دَخَلَ غُرْفَةَ المَكْتَبِ بَاحِثًا عَنْ أَيِّ شَخْصٍ يَسْتَعْلِمُ مِنْهُ، فَتَقَدَّمَ نَحْوَ فَتاةٍ جالِسَةٍ عَلَى مَكْتَبٍ:

– هَلْ هَذَا هوَ مَكْتَبُ الدُّكْتورِ عارِفٍ؟

– نَعَمْ يَا سَيِّدي، هَلْ مِنْ مَوْعِدٍ مُسْبَقٍ؟

تَرَدَّدَ نائِلٌ في الإجابَةِ، فَلَمْ يَكُنْ مُتَأَكِّدًا مِنْ صِحَّةِ الرِّسالَةِ الَّتي وَصَلَتْهُ، حَتَّى إِنَّهُ حَاوَلَ اسْتِجْماعَ مُحْتَوَاهَا وَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَقَالَ مُرْتَبِكًا:

– أَنَا نائِلُ اليَمانيِّ.

ابْتَسَمَتِ السِّكْرتيرَةُ قَائِلَةً:

– أَهْلًا بِكَ يَا دُكْتورُ نائِلُ، الدُّكْتورُ عارِفٌ يَنْتَظِرُكَ، وَلَكِنَّهُ في اجْتِماعٍ الآنَ، وَسَيَنْتَهي بَعْدَ نِصْفِ ساعَةٍ، تَفَضَّلْ بِانْتِظارِهِ، مَا هوَ مَشْرُوبُكَ المُفَضَّلُ؟

سَمِعَتِ السِّكْرتيرَةُ مَا ظَنَّ نائِلٌ أَنَّهُ يُتَمْتِمُ بِهِ لِنَفْسِهِ: «الدُّكْتورُ يَنْتَظِرُني! نِصْفِ ساعَةٍ!» فَهَزَّتْ رَأْسَها تُؤَكِّدُ عَلى مَا قالَهُ. تَسارَعَتْ دَقّاتُ قَلْبِ نائِلٍ، وَارْتَفَعَ قَوْسُ حاجِبِهِ حَتَّى تَكَدَّسَتْ ثَنَايَا جَبْهَتِهِ فَوْقَ بَعْضِها:

- هَلْ لِي بِكوبِ مَاءٍ؟
- بالطَّبْع.

لَمْ يَكُنْ شَادِي أَقَلَّ ذُهولًا مِنْ نائِلٍ، وَلَيْسَ ذُهولُهُ نَتيجَةَ مَا سَمِعَهُ، فَهُوَ لَمْ يُدْرِكِ الأَمْرَ كَامِلًا بَعْدُ، وَلَكِنَّ رُؤْيَةَ نائِلٍ شَارِدَ الذِّهْنِ - كَأَنَّهُ يُعايِنُ مَقْبَرَةً فِرْعَوْنيَّةً - كَفيلَةٌ وَحْدَهَا باسْتِدْعاءِ دَهْشَتِهِ، فَلَمْ يَعْتَدْ نائِلًا إِلَّا مُفَوَّهًا، حاضِرَ الذِّهْنِ، وَقَليلَ الدَّهْشَةِ. مَرَّتْ دَقائِقُ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَ نائِلٌ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ - مُنْذُ غادَرَ الحَيَّ مُتَّجِهًا نَحْوَ الحارَةِ الغَرْبيَّةِ - مَدَى تَوَتُّرِهِ، فَقَرَّرَ عَدَمَ جاهِزِيَّتِهِ لِهَذِهِ المُقابَلَةِ، فَقَالَ لِلسِّكْرِتيرَةِ مُتَلَعْثِمًا:

- هَلْ لِي بِالْمَجيءِ غَدًا؟
- بالطَّبْع يَا سَيِّدي.

نَظَرَتِ السِّكْرتيرَةُ إِلَى الكُمْبيوتَر، وَقَالَتْ:

- أَفْضَلُ مَوْعِدٍ هوَ الواحِدَةُ بَعْدَ الظُّهْر.

تَنَهَّدَ نائِلٌ، وَمَنَحَ رُموشَهُ فُرْصَةً لِلتَّلاقِي بَعْدَ فِراقٍ، وَمَضَى قَائِلًا:

- حَسَنًا.

* * *

جَـاءَ نائِـلٌ في اليَوْم التَّالِي يُخْفِـي مَا لَمْ يَسْـتَطِعْ إبْراءَهُ مِنْ ذُهولِه خَلْفَ أَناقَتِهِ المُفْرِطَةِ وَخُطواتِهِ المُسْتَبْطِئَةِ المُتَزِنَةِ المُتَّجِهَةِ إلَى داخِـلِ المَكْتَبِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إلَى شَـادِي الَّـذِي فَارَقَهُ حِينَ لَمْ يُصَـرِّحْ لَهُ بِالدُّخُـولِ. لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ ذُو الزِّيِّ العَسْـكَرِيِّ الَّذِي نَهَضَ مِنْ مَكْتَبِهِ في نِهايَةِ الغُرْفَةِ هوَ الشَّـيْءَ الوَحيدَ الَّذِي أَوْغَلَ في جِراحاتِ ذُهولِهِ، فَقَدْ كَانَ كُلُّ شَـيْءٍ في الغُرْفَةِ غَرِيبًا، وَرُبَّمَا يَسْـتَغْرِبُ المَرْءُ الاعْتيادِيَّ إذا أَتَاهُ بِفُؤادٍ يَسْتَحْضِرُ الاسْتِغْرابَ. وَسُرْعَانَ مَا سَمِعَ نائِلٌ صَوْتًا رَقِيقًا لا يَلِيقُ بِبِذْلَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ:

- أَهْلًا بِالدُّكْتُورِ نائِلٍ.

- أَهْلًا بِكَ يَا سَيِّدي.

أَرْدَفَ نائِلٌ مُتَرَدِّدًا:

- جِئْتُ بِدَعْوَةٍ مِن الدُّكْتورِ عارِفٍ، أَهوَ هُنَا؟

قَهْقَهَ الرَّجُلُ كَسِـكِّيرٍ في حانَةٍ شَـعْبيَّةٍ، حَتَّـى ظَنَّ نائِلٌ أَنَّ البَدْلَةَ العَسْكَرِيَّةَ لَيْسَـتْ إِلَّا زِيًّا تَنَكُّرِيًّا يَرْتَدِيهِ الرَّجُلُ احْتِفالًا بِأَحَدِ الكَرْنَفالاتِ، فَاسْـتَقَرَّتْ عَيْنُهُ عَلَيْهَـا تُطالِعُها، والرَّجُلُ يُجيبُ:

- أَنَا الدُّكْتورُ عارِفٌ، سَعِدْتُ حِينَ عَلِمْتُ بِأَنَّكَ فِي الحَيِّ.

ثُمَّ أَرْدَفَ عارِفٌ الَّذي لاحَظَ تَعَلُّقَ عَيْنِ نائِلٍ بِالْبَدْلَةِ:

- أَتَسْتَغْرِبُ رُؤْيَتي بِالزِّيِّ العَسْكَرِيِّ؟

- فِي الحَقيقَةِ، نَعَمْ، لَمْ أَكُنْ مُسْتَعِدًّا لِمُقابَلَةِ عَسْكَرِيٍّ.

- وَهَلْ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ الاسْتِعْدادِ لِمُقابَلَةِ عَسْكَرِيٍّ والاسْتِعْدادِ لِمُقابَلَةِ رَئيسِ جامِعَةِ الحَيِّ؟

- لَطالَما أَنْكَرْتُ عَلَى نَفْسِي الَّتي حَدَّثَتْني بِأَنَّهُ لا فَرْقَ!

ابْتَسَمَ عارِفٌ قائِلًا:

- قَهْوَةً سادَةً؟

لَمْ تُضِفْ مَعْرِفَةُ عارِفٍ مَشْروبَ نائِلٍ المُفَضَّلَ المَزيدَ مِنَ الدَّهْشَةِ فِي نَفْسِهِ، فَمَا سَبَقَهَا مِنْ أَحْداثٍ كَانَ أَكْثَرَ غَرابَةً، لِدَرَجَةٍ أَصْبَحَ غَريبُ الأَحْداثِ بَعْدَهَا غَيْرَ ذِي دَهْشَةٍ، كَمَا يَحْدُثُ لِرَجُلٍ يُضْرَبُ بِالْعَصَا إِلَى أَنْ يَموتَ، لِيُصْبِحَ الضَّرْبُ بَعْدَهَا غَيْرَ مُجْدٍ، فَأَجَابَ نائِلٌ:

- نَعَمْ.

جَلَسَ عارِفٌ خَلْفَ مَكْتَبِهِ عَلَى كُرْسِيٍّ عَالٍ مِنَ الجِلْدِ الأَسْوَدِ، وَقَدْ أَبْدَلَ بِابْتِسامَتِهِ مَلامِحَ أَكْثَرَ حِيادِيَّةً، ثُمَّ قَطَّبَ جَبينَهُ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ لِنائِلٍ بِالْجُلُوسِ:

- اجْلِسْ مِنْ فَضْلِكَ.

كَانَ الكُرْسِيُّ المُخَصَّصُ لِجُلوسِ نائِلٍ أَقَلَّ ارْتِفَاعًا، وَظَهْرُهُ مُوَجَّهٌ لِلبَابِ مُباشَرَةً؛ حِيَلٌ يَسْتَخْدِمُهَا ذَوُو النُّفوذِ لإِرْبَاكِ مُجالِسِيهِمْ وَفَرْضِ سَطْوَتِهِمْ، وَهِيَ ألاعيبُ يُدْرِكُها نائِلٌ جَيِّدًا بِحُكْمِ عَمَلِهِ، وَكَثْرَةِ مُفاوَضاتِهِ، فَجَلَسَ مُحَاوِلًا بَسْطَ نُفوذِهِ بِأَنْ تَقَدَّمَ بِكُرْسِيِّهِ قَليلًا، وَوَضَعَ راحَةَ يَدِهِ بِهُدُوءٍ عَلَى المَكْتَبِ، وَلَمْ تَكُنْ تِلْكَ النَّوَايَا لِتَخْفَى عَلَى عارِفٍ، الَّذِي تَقَدَّمَ بِكُرْسِيِّهِ أَكْثَرَ لِيَبْسُطَ يَدَهُ عَلَى كِتابٍ مُرْتَفِعٍ أَمَامَهُ، وَنَظَرَ إِلَى عَيْنَيْ نَائِلٍ مُباشَرَةً، ثُمَّ قالَ:

- عَلِمْنَا أَنَّكَ مُهْتَمٌّ بِأَسْلافِنا، وَأَنْتَ رَجُلٌ مُحَنَّكٌ، فَلِمَاذَا لَا تَسْتَقي المَعْلومَةَ مِنْ مَصْدَرِها؟

- هوَ الفُضولُ لَيْسَ أَكْثَرَ، فُضولٌ أَقَلُّ مِنْ أَنْ آتيَ إِلَى هُنَا قَاطِعًا تِلْكَ المَسافَةَ الكَبيرَةَ لِأَحْصُلَ عَلى المَعْلومَاتِ.

- الفُضولُ، جَلّابُ المَتاعِبِ، هَلْ أَحْكي لَكَ قِصَّةَ القِطَّةِ الَّتي قَتَلَها فُضولُها؟

أَنْزَلَ نائِلٌ يَدَهُ عَن المَكْتَبِ في حَرَكَةٍ تِلْقائيَّةٍ، فَتَابَعَ عارِفٌ:

- سَمِعْنا عَنْ بَعْضِ المُناوَشاتِ في الحارَةِ الشَّرْقيَّةِ، هَلْ تَعْرِفُ تَفاصيلَ لِذَلِكَ؟

- كَلّا، لَا أعْرِفُ أكْثَرَ مِمَّا يَعْرِفُهُ النّاسُ.

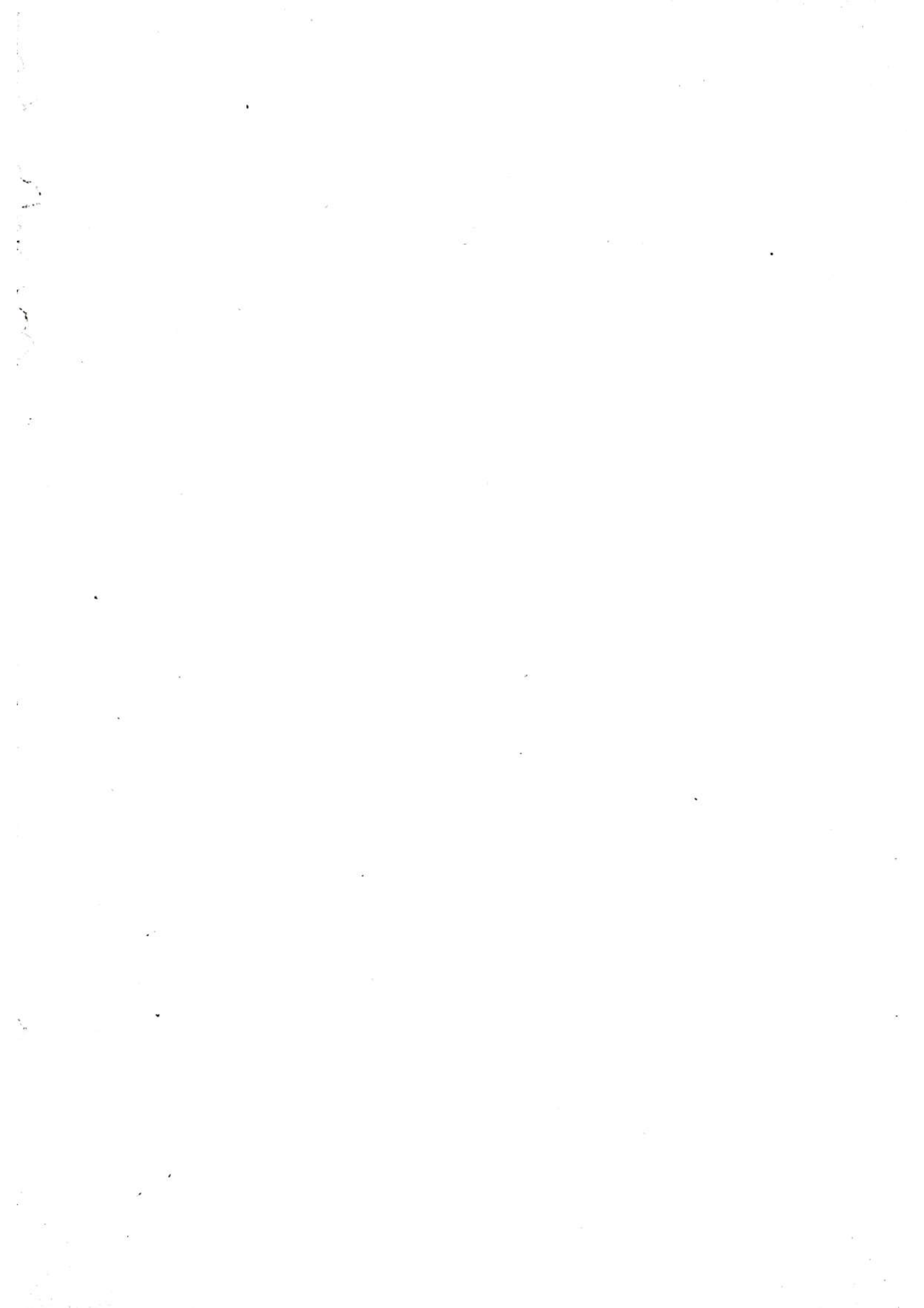
ابْتَسَمَ عارِفٌ مُدْرِكًا دَهاءَ حِيَادِ الإجابَةِ، فَلَمْ يَسْأَلِ السُّؤالَ التَّالِيَ: «هَلْ لَكَ أَنْ تُعْلِمَنا بِوجْهَةِ نَظَرِكَ، وَتُزَوِّدَنا بِالْمَعْلُومَاتِ لَاحِقًا؟»، وَنَظَرَ إِلَى سَاعَتِهِ، وَثَبَّتَ عَيْنَيْهِ عَلَى نائِلٍ مُبْتَسِمًا، ثُمَّ نَهَضَ مِنْ مَقْعَدِهِ مُصافِحًا نائِلًا:

- أَتَمَنَّى لِقاءَكَ لَاحِقًا.

وَقَفَ نائِلٌ ناظِرًا إِلَى كُوبِ قَهْوَتِهِ المَلِيءِ، وَرَدَّ الابْتِسامَةَ -دُونَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْ أَسْنانِهِ- مُغادِرًا. أَخَذَ شَادِيًا مِنْ يَدِهِ خَارِجًا مِن القَصْرِ، وَلَمْ يَلْبَثْ شَادِي أَنْ سَأَلَهُ:

- إِلامَ خَلُصَتِ المُقابَلَةُ؟

- آلُ الرَّيّانِ يُسِيؤُونَ لِلْحَيِّ، إِنَّهُمْ عِبْءٌ عَلَى الأَخْلاقِ وَالْعِلْمِ، وَتَصَدُّرُهُمْ لِلْمَشْهَدِ فِي الحَيِّ لَيْسَ إِلَّا نُقْطَةً سَوْداءَ فِي تارِيخِهِ.



الفَصْلُ الثَّامِنَ عَشَرَ

وَانْتَهَتِ الْهُدْنَةُ

أَمْسَى الحَيُّ كَمَا يُمْسي مَريضٌ يَنْتَظِرُ نَتيجَةَ فُحوصاتِهِ المَخْبَرِيَّةِ الَّتي تُشَخِّصُ إصابَتَهُ بِمَرَضٍ خَطيرٍ، وَلَمْ تَكُنِ الهُدْنَةُ الَّتي طَلَبَها خالِدُ المَرزوق إلَّا تَأْجيلًا لإِعْلانِ تِلْكَ النَّتيجَةِ، وَقَدْ يَكونُ تَأْكيدُ وُجودِ المَرَضِ أَسْهَلَ عَلَى نَفْسِ المَريضِ مِن انْتِظارِ نَتيجَتِهِ، وَلَكِنْ لِكُلِّ انْتِظارٍ نِهايَةٌ، وَإِنْ طالَ التَّأْجيلُ فَلا بُدَّ لِلنَّتائِجِ أَنْ تَتَكَشَّفَ.

نَهَضَ خالِدٌ وَتَجَهَّزَ، وَذَهَبَ إِلَى بَيْتِ الرَّيّانِ مُصْطَحِبًا شَقيقَهُ الشَّيْخَ ماجِدًا يَسْتَعْلِمانِ عَنْ قَرارِ عَسّافٍ، حَيْثُ لَمْ يَبْقَ عَلَى تِلْكَ المُهْلَةِ إلَّا ثَلاثُ ساعَاتٍ، فَوَقَفَ في بَيْتِ الرَّيّانِ رافِضًا الضِّيافَةَ والجُلوسَ، وَقالَ:

– أُعْلِمُكَ يا عَسّافُ أَنَّ اليَوْمَيْنِ الَّذَيْنَ أَمْهَلْتُكَ إيَّاهُما لِلتَّفْكيرِ عَلَى مَشارِفِ الانْقِضاءِ، وَما زالَتْ لَكُمْ في بَيْتِ حَسّانَ دِماءٌ مُراقَةٌ، فَهاتِ طَلَباتِكَ لِأُرْسِلَها لِلْقَوْمِ، لَعَلَّ الحَيَّ يَنامُ آمِنًا.

– لَقَدْ أَخْبَرْتُكَ طَلَباتي يا خالِدُ، وَلَيْسَ لِشَيْخِ الرَّيّانِ التَّراجُعَ عَنْ طَلَباتٍ طَلَبَها.

صَمَـتَ خالِدٌ لَحَظاتٍ صَمْتَ العاجزِ عَـنْ رَدْعِ مُصيبَةٍ قادِمَةٍ، وَلَكِنَّهُ قَرَّرَ مُحاوَلَةً أَخيرَةً تَطْمَئِنُّ لَهَا نَفْسُـهُ حِينَ يُحَدِّثُها بأَنَّهُ اسْتَنْزَفَ كُلَّ مَا يُمْكِنُ في سَبيلِ رَدْعِ المُشاجَرَةِ، فَأَرْدَفَ:

– إِنْ شِـئْتَ شَـكَّلْنَا لَجْنَةً تَقْضي في الأَمْرِ بِمَا عَرَفَهُ الحَيُّ مِنْ قَوانينَ.

– إِذَا كُنْـتَ تَرَى طَلَباتِي مُجْحِفَـةً، فَكَيْفَ أَرْضَى بِمَا تَحْكُمُ لِي يَا خالِدُ!

– نَعَـمْ، أَراكَ مُجْحِفًا يَا عَسّـافُ، وَتَطْلُبُ مَـا لَا يَحِقُّ لَكَ، وَأُريـدُكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ كُلَّ مَا أَحْتَكِمُ عَلَيْهِ مِـنْ مَالٍ وَوَلَدٍ بَعيدٌ عَنْ مُشـاجَرَتِكُمْ هَذِهِ، مَا لَمْ تَمَسَّ بُيوتَنا أَوْ مَزارِعَنا أَوْ رِجالَنَا بِأَيِّ ضَرَرٍ، فَعِنْدَهَا سَـيَحِقُّ لَنَا الدِّفَاعُ عَنْ أَنْفُسِنا، والسَّلامُ عَلَى أَهْلِ السَّلامِ.

* * *

تَقَدَّمَتِ السَّـيارَةُ الَّتي تُقِلُّ خالِدًا وَماجِدًا عَبْرَ طَريقٍ موحِشٍ نَحْوَ بَيْتِ سُـلْطانٍ في لَيْلٍ بَدَا وَكَأَنَّهُ شَبَحٌ يَسُنُّ أَنْيابَهُ لِلانْقِضَاضِ عَلَى فَريسَـتِهِ، وَخالِدٌ يَتَمَسَّكُ بِأَمَلٍ أَخيرٍ في الصُّلْحِ، لَعَلَّ سُلْطانًا يُلِينُ جانِبَهُ، فَيُقَرِّرُ حَقْنَ الدِّماءِ. قَالَ ماجِدٌ:

– أَراكَ حَرِيصًا عَلَى حَقْنِ الدِّماءِ!

لَمْ يَتَوَقَّعْ خالدٌ هَذَا الكَلامَ مِنْ ماجِدٍ، فَلَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَبْدَأُ الرَّدَّ، أَيُؤَكِّدُ لِشَقيقِهِ حِرْصَهُ؟ أَمْ يَلومُ عَلَيْهِ اسْتِغْرابَهُ؟ أَمْ يَسْأَلُهُ عَنْ أَسْبابِ هَذَا الاسْتِغْرابِ؟ فَتَابَعَ ماجِدٌ حِينَ أَدْرَكَ حَيْرَةَ شَقيقِهِ:

– أَلَيْسَتْ هَذِهِ المُشاجَرَةُ في مَصْلَحَةِ آلِ المَرْزوقِ؟

فَطِنَ خالِدٌ إلَى مَا يَرْمي إِلَيْهِ ماجِدٌ، فَأَجَابَ:

– يَا أَخِي، رُبَّمَا كَانَتْ هَذِهِ المُشاجَرَةُ في مَصْلَحَتِنَا، فَهِيَ – بِلا شَكٍّ – سَتَسْتَنْزِفُ مَوارِدَهُمْ، فَتُضْعِفُهُمْ، وَعِنْدَهَا سَنَتَصَدَّرُ نَحْنُ المَشْهَدَ في الحَيِّ، وَنَقودُهُ دُونَ مُقاوَمَةٍ كَمَا يَقودُ الفارِسُ خَيْلَهُ حَيْثُ شَاءَ. وَلَكِنِ اعْلَمْ أَنَّ المُتَصَدِّرَ إِذَا كَانَ وَحِيدًا لا يَسْتَمِرُّ في صَدارَتِهِ طَويلًا، إِذْ لا بُدَّ لَهُ مِنْ قُطْبٍ مُنافِسٍ يَسْتَفِزُّهُ وَيُبْقيهِ جَاهِزًا لِتَطْويرِ نَفْسِهِ، فَإِذَا انْفَرَدَ قُطْبٌ بِالصَّدارَةِ اطْمَأَنَّتْ نُفُوسُ رِجالِهِ، فَضَعُفَتْ هِمَمُهُمْ، وَأَتَتْهُ الهَزيمَةُ سَريعًا مِنْ مَأْمَنِهِ.

– فَلِمَاذَا لا نَنْصُرُ طَرَفًا عَلَى آخَرَ، فَنُبْقيهِ قُطْبًا مُنافِسًا لَنَا؟

– لِأَنَّ النَّاسَ يَا أَخِي تَحْكُمُ بِالأَخْلاقِ، وَتَرْكَنُ إِلَى المَواثيقِ وَإِنْ كانَتْ لا تَعْمَلُ بِهَا، فَإِذَا نَصَرْنا طَرَفًا عَلَى آخَرَ تَحَدَّثَ الحَيُّ بِذَلِكَ، فَلامُونَا وَقَاطَعُونَا، وَخَسِرْنا حُلَفاءَنا وَأَصْدِقاءَنا.

قَطَعَ حَديثُ خالِدٍ مَعَ ماجِدٍ الطَّريقَ سَريعًا، وَمَا لَبِثَتِ السَّيَّارَةُ أَن اسْتَراحَتْ مُؤَقَّتًا أَمامَ بَيْتِ سُلْطانٍ، الَّذي اسْتَقْبَلَ الشَّيْخَيْنِ وَعَنْ يَمينِهِ جابِرٌ، وَعَنْ يَسارِهِ أَسْعَدُ:

- أَهْلًا بِشُيوخِ المَرْزوقِ.

ثُمَّ أَمَرَ بِجَلْبِ القَهْوَةِ والعَشَاءِ، مَا اسْتَدْعَى امْتِعاضَ خالِدٍ، فَقَالَ:

- لَيْسَ هَذَا وَقْتَ أَكْلٍ وَشُرْبٍ، فَلَمْ آتِ ضَيْفًا وَلَا صَديقًا، بَلْ رَسولًا، فَاسْمَعْ رِسَالَتِي.

أَوْمَأَ سُلْطانُ بِرَأْسِهِ لِلأَسْفَلِ مُقْفِلًا فَمَهُ، وَمُقَطِّبًا جبينَهُ يُعْلِنُ جاهِزِيَّتَهُ لِاسْتِقْبَالِ الرِّسالَةِ، فَأَرْدَفَ خالِدٌ:

- إِنَّ لَدَى آلِ الرَّيّانِ ثَلاثَةَ طَلَباتٍ.

صَمَتَ خالِدٌ بُرْهَةً اطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى حُسْنِ اسْتِماعِ سُلْطانٍ، ثُمَّ أَكْمَلَ:

- مَجِيءُ القاتِلِ وَإِخْوَتِهُ مِمَّنْ أَتَمَّ الثّامِنَةَ عَشَرَ حامِلِينَ أَكْفانَهُمْ.

اسْتَدْعَى كَلامُ خالِدٍ رَغْبَةً عارِمَةً لِلْبُكَاءِ فِي نَفْسِ حَسّانَ، وَغَضَبَ جابِرِ الَّذِي وَقَفَ مُقاطِعًا:

- مَا هَذَا الهُراءُ، أَنَحْمِلُ أَكْفانَنا لِآلِ الرَّيّانِ!

رَدَّ عَلَيْهِ خالِدٌ بِلَهْجَةٍ صارِمَةٍ:

- اهْدَأْ يَا وَلَدُ، وَلَا تَتَكَلَّمْ فِي حَضْرَةِ مَنْ هوَ أَكْبَرُ مِنْكَ، هَلْ أَنَا هُنَا لِلْحَديثِ مَعَكَ أَنْتَ!

نَظَرَ سُلْطانٌ إلَى جابِرٍ قَائِلًا:

- لَنْ تَسودَ يَا جابِرُ مَا لَمْ تَتَمَتَّعْ بِالْحِلْمِ، دَعِ الرَّجُلَ يُكْمِلُ سِفارَتَهُ، لِنَرُدَّ عَلَيْهِ.

أَكْمَلَ خالِدٌ كَلامَهُ وَعُيونُهُ تُحَدِّقُ في جابِرٍ بِحِدَّةٍ:

- الطَّلَبُ الثَّانِي هوَ عَدَمُ دُخولِ أَحَدٍ مِنْ آلِ الجاسِمِ الجُزْءَ الغَرْبِيَّ مِن الحَيِّ. والثّالِثُ أَنْ تَدْفَعُوا عَشَرَ سَبائِكَ مِن الذَّهَبِ، أَوْ مَا يُعادِلُها مِن النُّقودِ.

قَالَ سُلْطانٌ بِهُدُوءٍ يَتَوارَى خَلْفَ النّيرانِ المُشْتَعِلَةِ في عَيْنَيْهِ:

- هَل انْتَهَيْتَ؟

- نَعَمْ، وَأُريدُ سَماعَ رَدِّكَ.

- وَمَا رَأْيُكَ أَنْتَ؟

- أَنَا لَا رَأْيَ لِي في هَذَا الحادِثِ، إنَّمَا أَنَا وَسيطٌ وَرَجُلُ سَلامٍ، وَأَنْتَ مَنْ يُنْتَظَرُ رَدُّهُ.

- حَسَنًا، سَأُخْبِرُكَ جُزْءًا مِنْ رَدِّي بَعْدَ سَاعَتَيْنِ.

صَرَخَ سُلْطانٌ:

- جابِرُ، اجْمَعْ لِي كُلَّ مَنْ يَنْتَسِبُ لِآلِ الجاسِمِ مِمَّنْ أَتَمَّ الثّامِنَةَ عَشَرَ مِنْ عُمُرِهِ، أُريدُهُمْ بَعْدَ سَاعَتَيْنِ يَمْلَؤونَ السّاحَةَ الخارِجيَّةَ، ثُمَّ اذْهَبْ إلَى الشَّيْخِ شامِلِ الكَوّارِيِّ، وَشُيوخِ الحارَةِ

الغَرْبيَّة الَّذين كانُوا على حلْف معَنَا قبْلَ ثَلاثين عَامًا. وَأَعْلمْهُمْ بِرَغْبَتي بزيارتهمْ بعْد ثلاث ساعات للضَّرُورَة.

لمْ تَكْتمِل السَّاعتان حتَّى جاء أبْناءُ الجاسم إلى بيْت سُلْطان، الَّذي اسْتقْبلَهُمْ خطيبًا:

- كُنَّا جميعًا أُسْــرة واحدة قبْل ثلاثين عاما. نعيشُ في بيْت واحِد، ونأتمرُ بأمْر شيْخ واحد. فعبثتْ بنا أيْد قذرةٌ لآل الرَّيَّان وَحُلفائِهِــمْ. ففرّقتْنا. وإنَّ الأُســر إذا افْترقــتْ ضعُفتْ، وقلّتْ سَطْوَتُها، وضاعتْ هيْبَتُها. ونبشــتْها ضباعُ الحيّ. وتجمّعتْ عَلَيْهَــا عقاربُــهُ وأفاعيــه. وقدْ تكالبــتْ علَيْنا مُنْذُ أُسْــبُوعيْن وُحوشٌ ظنَّتْنَا فريســة ســهْلة. إذْ تبجّح آلُ الرَّيَّــان بمقْتَل ابْنِ لَهُمْ، فَانْتَشَروا في الحارَةِ الشَّرْقيَّة كقَطيع من الكِلاب على غزال شــارِدٍ، فَأَســاؤُوا الجِوارَ، وَطَلبُوا ما لَيْس يُطْلَــبُ، ولَيْس ذَلك إحْقاقًــا لِحَقٍّ لَهُمْ، إنَّما فَرْضًا لِلسِّيادَة. وَلَكِنْ هَيْهات أنْ يُمْلَيَ عَلَيْنَا أَحَدٌ سَــطْوَتَهُ، فَقَــدْ وُلِدْنا أَحْرَارًا أَقْوِيــاءَ، نَلْتَهِمُ صُخورَ الأَرْض إذَا جُعْنا، وَنَرِدُ دِماءَ الأَعَادِي إذا عَطِشْــنا، فَلا تُسْــتَباحُ لَنَــا أَرْضٌ، وَلا تُمْلى عَلَيْنَا شُــروطٌ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا سَــتَخْرُجونَ مِنْ بَيْتي تُطَوِّقونَ الحارَةَ الشَّــرْقيَّةَ، وَبَعْدَ أَرْبَع وَعِشْــرينَ ساعَةً مِــن الآنَ كُلُّ دَمٍ فِي الحارَةِ الشَّــرْقيَّةِ لا يَنْتَمِي لِأَبْنَائِهَا مَهْدورٌ،

وَلْتَعْلَمْ كِلابُ الحَيِّ أَنْ لا طَيْرَ يَطِيرُ في الحارَةِ الشَّرْقيَّةِ إلَّا بِإذْنِنا وَمُوافَقَتِنَا، وَلا عُذْرَ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ بِالتَّخَلُّفِ، والسَّلامُ خِتامٌ.

ثُمَّ أَشَارَ سُلْطانٌ بِيَدِهِ لِلْجَمْعِ بِالتَّفَرُّقِ، وَلَمْ يَتْرُكْ فُرْصَةً لِلْأَسْئِلَةِ، وَنَظَرَ إلَى خالِدٍ قَائِلًا:

- هَذَا رَدِّي يَا خالِدُ فَأَعْلِمْهُمْ بِهِ.

أَحَسَّ خالِدٌ أَنَّ الفُرْصَةَ الأخيرَةَ لِلصُّلْحِ تَتَبَخَّرُ وَتَتَلاشَى، وَأَنَّهُ لَمْ يَعُدْ لَدَيْهِ مَا يُقَدِّمُهُ مِنْ أَجْلِهِ، فَقَالَ:

- فَاعْلَمْ إذًا أَنَّ آلَ المَرْزوقِ مُحايِدونَ، وَلَنْ يَشْتَرِكَ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَلا مَالٌ، فَلَا تَأْبَوْا عَلَيْنَا حِيادَنَا بِمَا يُسِيءُ لَنَا، فَتَدْفَعُونَا دَفْعًا لِلْخُرُوجِ مِنْهُ، والسَّلامُ عَلَى أَهْلِ السَّلامِ.

* * *

قَضَى خالِدٌ لَيْلَتَهُ يَروحُ وَيَجِيءُ بِالرَّسَائِلِ بَيْنَ الْحارَتَيْنِ، فَيَنْقُلُها كَمَا يَسْمَعُهَا؛ بِكَلِماتِهَا وَحِدَّتِها، وَقَدْ كَانَ أَقْوَى مِنْ أَنْ يَتَعَرَّضَ لَهُ أَحَدٌ بِأَذَى وَإِنْ حَدَّثَتْ بَعْضُ النُّفوسِ أَصْحابَها مِنْ حِينٍ لِآخَرَ بِالاعْتِداءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ اتِّهام الطَّرَفِ الآخَرِ، لِإشْعالِ فَتيلِ أَزْمَةٍ أُخْرَى تَسْرِقُ الأَلْبابَ عَنِ الأَزْمَةِ الحاليَّةِ. وَهَا هوَ الآنَ في مَنْزِلِ عَسّافٍ يُخْبِرُهُ بِرَدِّ سُلْطانٍ عَلَيْهِ، وَكَانَ عَسّافٌ قَدْ هَيَّأَ نَفْسَهُ لِرَدٍّ مِنْ هَذَا النَّوْعِ، فَأَلْقَى جَوابَهُ جاهِزًا عَلَى مَسامِعِ خالِدٍ:

- لَطَالَمَا حَرَصْنَا عَلَى تَطْوِيرِ هَذَا الحَيِّ، وَسَخَّرْنا لِذَلِكَ إمْكانيّاتِنا، وَشَحَذْنا هِمَمَنا، وَمِن أَجْلِ هَذا صَبَرْنا عَلَى جَهْلِ غَيْرِنا، وَعَذَرْنا قِلَّةَ حيلَتِهِ، وَلَكِنَّ الجَهْلَ قَدْ بَلَغَ مَداهُ بِمَقْتَلِ ابْنِنا مُعْتَصِم، أَحَدِ جُنودِنا المُتَطَوِّعِينَ في سَبيلِ غاياتِنا الشَّريفَةِ. ثُمَّ كَانَ أَنْ تَجَبَّرَ قَتَلَتُهُ، وَرَفَضُوا الامْتِثالَ لِمَطالِبِنا المَشْروعَةِ، بَلْ أَمْهَلُونَا أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ ساعَةً لِلْخُرُوجِ مِنْ حارَتِهِمْ، وَنَحْنُ قَوْمٌ لا يُعْتَدَى عَلَيْنَا ثُمَّ نَصْمُتُ، تِلْكَ مُقْتَضَياتُ الشَّرَفِ يَا خالِدُ، وَأَنْتَ أَهْلٌ لِمَعْرِفَتِهَا، لِذَلِكَ لَنْ نَخْرُجَ مِن الحارَةِ الشَّرْقيَّةِ حَتَّى يَسْتَجِيبُوا لِمَطالِبِنا، أَوْ تُصْبِحَ شَوارِعُ حارَتِهِمْ حَمْراءَ بِدِمَائِهِمْ.

أَخَذَ خالِدٌ الرِّسالَةَ لِيَنْقُلَها إِلَى سُلْطانٍ فاقِدًا الأَمَلَ في أَيِّ صُلْح، ثُمَّ مَضَى نَحْوَ بَيْتِهِ يُفَكِّرُ في الأَيّامِ القادِمَةِ. اغْتَسَلَ وَتَناوَلَ طَعامَهُ، ثُمَّ طَلَبَ مِن ماجِدٍ أَنْ يَجْمَعَ آلَ المَرْزوقِ لِيَخْطُبَ فِيهِم. وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ حَتَّى لُبِّيَتْ دَعْوَتُهُ، فَالْكُلُّ مُتَأَهِّبٌ يَنْتَظِرُ مَعْرِفَةَ دَوْرِهِ في هَذا الخِلافِ الَّذي يَشْغَلُ الحَيَّ بِأَكْمَلِهِ. وَوَقَفَ خالِدٌ أَمَامَ الجَمْعِ مِنْ آلِ مَرْزُوقٍ، وَقَالَ:

- إِنِّي أَرَى مُشاجَرَةً قَريبَةً، وَأَرْجُو أَنْ تَكونَ أَهْوَنَ مِمَّا أَراهَا، فالصُّلْحُ بَيْنَ آلِ الرَّيّانِ وَآلِ الجَاسِمِ يَسيرُ إِلَى طُرُقٍ مَسْدودَةٍ،

وَإِنِّي لَأَرَى آلَ الجَاسِمِ -وَإِنْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُمْ أَقْرَبُ جِوارًا لَنا، وَتَرْبِطُنا بِهِمْ عَلاقاتُ نَسَبٍ وَصَداقَاتٌ مَتِينَةٌ- مُخْطِئِينَ إِذْ يَنْبُشُونَ ثاراتِ الأَمْسِ، وَيَسْتَفِزّونَ آلَ الرَّيَّانِ بِتَصْدِيرِ رُغْبِهِمْ لِلتَّفاوُضِ، وَيُصَعِّبونَ مُجْرَياتِ الصُّلْحِ. وَلَيْسَ آلُ الرَّيَّانِ أَقَلَّ مِنْهُمْ خِطْئًا إِذْ يَطْلُبُونَ مِن القَوْمِ ما لَيْسَ يُطْلَبُ، وَيُقَدِّمُونَ إِخْضاعَهُمْ عَلَى التَّوَصُّلِ مَعَهُمْ إِلى تَسْوِيَةٍ. لِذَلِكَ فَقَدْ أَخَذْنا مِنْ هَذا الخِلافِ مَوْقِفًا مُحَايِدًا لا يَدْعُو إِلَّا لِلصُّلْحِ، فَلَنْ يَشْتَرِكَ رِجالُنا وَمالُنا في المُشاجَرَةِ حَتَّى إِشْعارٍ آخَرَ مِنِّي. فابْتَعِدوا عَنْ مَناطِقِ النِّزاعِ، وَالْزَموا حِماكُمْ جَماعاتٍ لا فُرادَى، والسَّلامُ خِتامٌ.

* * *

خَرَجَ سُلْطانٌ – فَوْرًا بَعْدَ انْتِهاءِ سِفارَةِ خالِدٍ الأَخيرَةِ لَدَيْهِ – إِلَى الأَطْرافِ الشَّرْقيَّةِ لِلْحارَةِ الشَّماليَّةِ لِلِقاءِ الشُّيُوخِ هُنَاكَ، وَالَّذِينَ تَجَمَّعوا في أَحَدِ البُيوتِ بِطَلَبٍ سابِقٍ مِنْ جابِرٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ عَلَى عَجَلٍ، وَأَلْقَى سَرِيعًا مَا ارْتَجَلَهُ مِنْ كَلامٍ في آذانِهِمْ:

– كُنَّا حِلْفًا قَبْلَ عُقودٍ، نُدافِعُ عَنْ بَعْضِنا، فَيُفَكِّرُ المُعْتَدِي

كَثِـيرًا قَبْلَ أَنْ يَقْتَرِفَ حماقَةً في حَقِّنا، والْيَوْمَ تَفرَّقْنا، وَلَمْ يَكُنْ تَفَرُّقُنَا هَذَا صَرْفًا فَرَضَهُ الدَّهْرُ عَلَيْنَا، بَلْ تَدَخُّلًا خَبيثًا مِنْ حِلْفٍ آخَرَ يَقُـودُهُ آلُ الرَّيّانِ، فَأَصْبَحْنَا ضُعَفاءَ أَمَامَهُمْ، وَفَقَدْنا الكَثيرَ مِنْ سَـطْوَتِنا وَهَيْبَتِنَا، وَلَا يَخْفَى عَلَيْكُـمْ أَنَّ كُلَّ النّاسِ تَتَكَتَّلُ، وَأَنَّنَـا اليَوْمَ أَحْوَجُ مَا نَكونُ إِلَى حِلْفٍ لِـرَدِّ المُعْتَدِينَ عَلَيْنَا، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا جِئْتُ.

وَقَفَ شَـيْخٌ مِنْ بَيْنِهِمْ تَجَهَّزَ سَابِقًا لِلْكَلَام بِاسْمِ المَجْموعَةِ، فَرَدَّ عَلَى سُلْطانٍ:

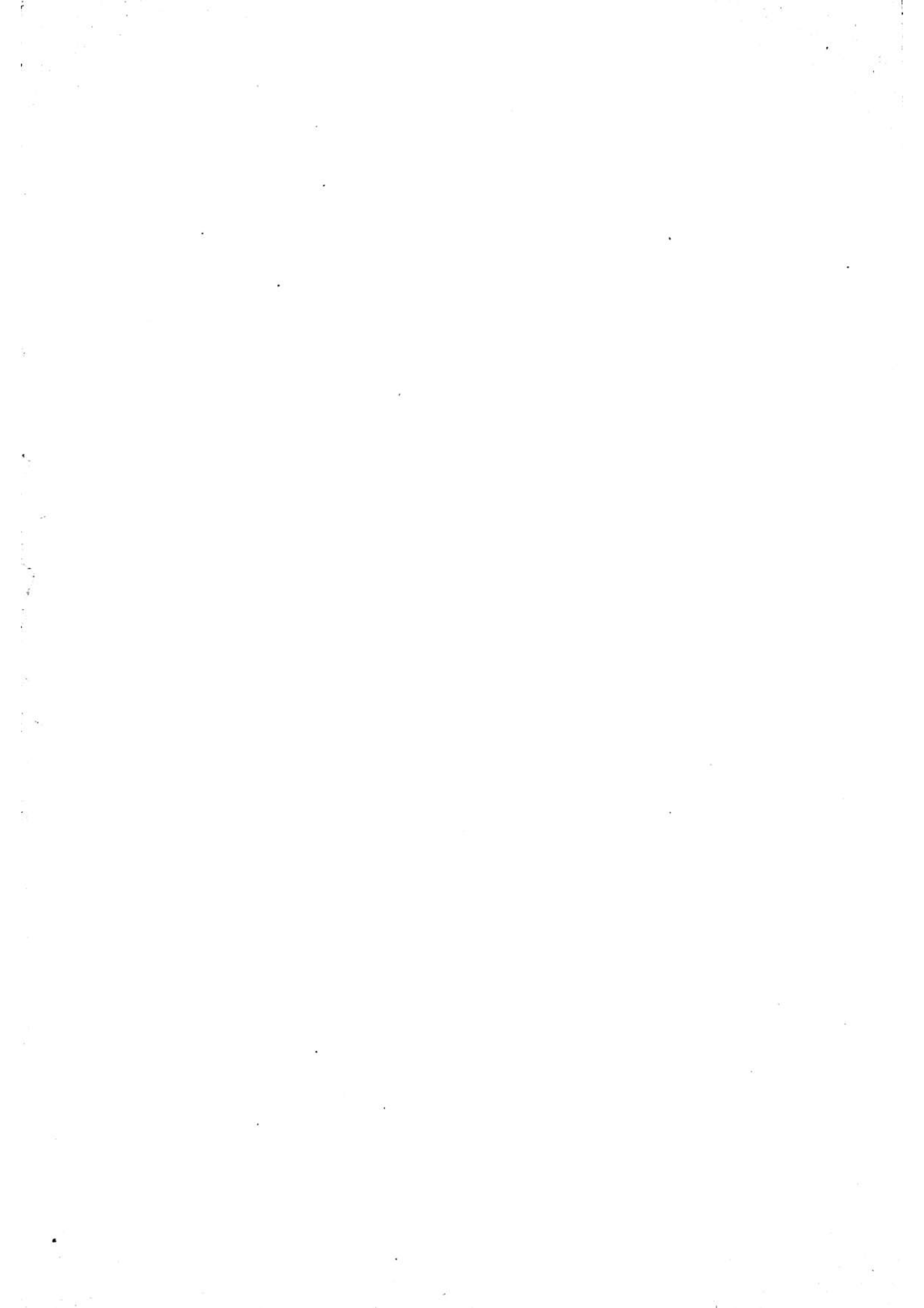
– لَا نُرِيـدُ أَنْ نُطيلَ عَلَيْكَ لِضيقِ وَقْتِكَ، وَقَدْ عَرَفْنا مَا يَجْري بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ آلِ الرَّيّانِ، وَلَكِنَّنَا لَسْـنا جَاهِزينَ الآنَ لِحِلْفٍ، وَلَا نَسْتَطيعُ أَنْ نَطْلُبَ مِنْ رِجالِنا أَنْ يَتَشاجَروا مَعَ آلِ الرَّيّانِ لِأَجْلِكُمْ غَدًا، فَنُفوسُهُمْ تَحْتَاجُ وَقْتًا أَطْوَلَ مِنْ لَيْلَةٍ وَضُحَاهَا لِتَقَبُّلِ حِلْفِهِمْ مَعَكُـمْ، وَأَقْصَى مَا يُمْكِنُنَا في هَـذِهِ الظُّروفِ الرّاهِنَةِ هوَ إِمْدادُكُمْ بِالأَمْوَالِ، وَإِجارَتُكُمْ إِذَا احْتَجْتُمُوهَا.

– لَيْـسَ مَا يَجْري بَيْنَنَا وَبَيْنَ آلِ الرَّيّانِ فَقَطْ مَا جَاءَ بِي هُنَا، فالحِلْفُ إِذَا أَنْشَأْناهُ سَيَبْقَى مُسْتَمِرًّا حَتَّى بَعْدَ هَذَا الخِلافِ.

قَاطَعَهُ الشَّيْخُ المُنْتَدَبُ لِلْحَديثِ:

- نَحْتَـاجُ حِلْفًا فِعْلًا لِرَدْعِ آلِ الرَّيَّـانِ وَحُلَفائِهِم المُتَزايِدينَ، وَلَكِـنْ لا يُمْكِنُ إجْرَاؤُهُ بِهَذِهِ السُّـرْعَةِ، حَتَّى وَإن اسْـتَعْجَلَتْنَا ظُـروفٌ كَهَذِهِ، فَاعْلَمْ يا سُـلْطانُ أَنَّ الحِلْـفَ لَيْسَ مَرْفُوضًا، بَل التَّعْجيلَ بِهِ.

شَرِبَ سُلْطانٌ قَهْوَتَهُ في صَمْتٍ حِينَ لَمْ يَعُدْ لَدَيْهِ مَا يَقُولُهُ، ثُمَّ اصْطَحَبَ جابِرًا عَائِدًا إلَى بَيْتِهِ.



الفَصْلُ التَّاسِعَ عَشَر
عَلَى المَقَاهِي وَخَلْفَ الأَبْوَاب

قَلَّمَا يَتَّفِقُ النَّاسُ - بِمُخْتَلَفِ طَبَقاتِهِم الاجْتِماعيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ - عَلَى مُمارَسَةِ سُلوكٍ مُشْتَرَكٍ كَمَا يَتَّفِقُونَ عَلَى التَّلَذُّذِ بِنَقْلِ الأَخْبارِ، لِهَذَا مَا لَبِثَتْ أَخْبارُ خِلافِ آلِ الجَاسِمِ مَعَ آلِ الرَّيَّانِ أَنْ تَسَرَّبَتْ مِنْ قُصورِ الشُّيُوخِ إِلَى بُيوتِ العامَّةِ، حَتَّى أَوْغَلَتْ فِي المَجالِسِ، وَصَارَتْ حَديثَ النَّاسِ كُلِّهِمْ. وَلأَنَّ النَّاسَ فِي الحَيِّ يَنْتَقُونَ الأَخْبارَ ويُطوِّعونَها كَمَا تَشَاءُ رَغَباتُهُمْ؛ فَقَدْ تَعَدَّدَتِ السِّيناريوهاتُ المُتَداوَلَةُ لِلْخِلافِ، بَلْ إِنَّهَا لَمْ تَتَّفِقْ فِيمَا بَيْنَهَا إِلَّا عَلَى وُجودِ خِلافٍ عَميقٍ بَيْنَ الأُسْرَتَيْنِ، وَأَمْسَى الحَيُّ كُلُّهُ قَلِقًا مِنْ تَبعاتِ الخِلافِ المُفْتَرَضَةِ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ النِّساءِ قَامَتْ بِشِرَاءِ الأَكْلِ وَحِفْظِهِ وَتَخْزِينِهِ، فَمَنْ يَعْلَمُ مَا القادِمُ! رُبَّمَا تُغْلَقُ المَحالُّ أَبْوابَها، فَتَرْتَفِعَ الأَسْعارُ، وَيَجوعَ النَّاسُ. كَمَا أَصْبَحَتْ مَقَاهِي الحَيِّ مَرْتَعًا لِلْكَثِيرِ مِن الرِّجالِ الَّذِينَ بَدَأوا يَسْتَعْرِضُونَ مَا تَوَهَّموا مِنْ وَعْيِهِمْ وَمَهاراتِهِم التَّحْليليَّةِ فِي تِبْيانِ مَوازِينِ القُوَى، وَصياغَةِ فَرْضيّاتٍ مُحْتَمَلَةٍ لِلْمُشاجَرَةِ، فَرْضيّاتٍ لا يُقَدَّرُ

لَهَـا في الغالِـبِ أَنْ تَخْرُجَ مِن المَقْهَى حَيْثُ يَجْلِسُـونَ. عَلَى أَحَدِ المَقَاهِي المُكْتَظَّةِ جَلَسَ ياسِـرٌ وَشَـادي وَنَائِـلٌ يَتَبَادَلُونَ أَطْرافَ الحَديثِ. قَالَ ياسِرٌ:

- لَا يَنْبَغِـي عَلَيْكَ البَقَـاءُ في الفُنْدُقِ وَحْدَكَ يَـا نائِلُ، تَعَالَ واجْلِسْ مَعَنَا، النّاسُ يَحْتَاجُونَ رُفَقاءَ في مِثْلِ هَذِهِ الظُّروفِ.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِن اقْتِناعِ نائِلٍ التّامِّ بِكَلامِ ياسِـرٍ، إلَّا أَنَّهُ رَفَضَ العَرْضَ مُتَرَدِّدًا لِمَا قَدْ يُسَـبِّبُ وُجودُهُ في بَيْتِ الأُسْـرَةِ مِنْ حَرَجٍ، فَقَالَ ياسِرٌ:

- لَقَـدْ طَاوَعْتُكَ في بادِئِ زِيارَتِـكَ لِلْحَيِّ، وَرَضِيتُ أَنْ تَجْلِسَ وَحْدَكَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّكَ ضَيْفٌ، فَطَاوِعْني الآنَ.

تَمَنَّى ياسِرٌ في قَرارَةِ نَفْسِهِ أَنْ يَرْفُضَ نائِلٌ الخِيارَيْنِ - الجُلوسَ وَحْدَهُ أَو المَجيءَ إلَى بَيْتِ ياسِرٍ - وَيَخْتارَ مُغادَرَةَ الحَيِّ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بُخْلًا أَوْ سُـوءَ ضِيافَةٍ، بَلْ خَوْفًا عَلَى نائِلٍ في هَذِهِ الظُّروفِ الاسْتِثْنائِيَّةِ، وَبَعْدَ تَرَدُّدٍ طَويلٍ أَعْلَنَ نائِلٌ مُوافَقَتَهُ:

- أَنْتَ عَلَى صَوابٍ، وَأَرَى أَنْ أَجْلِسَ مَعَكَ بَعْضَ الوَقْتِ.

صَمَـتَ نائِلٌ ثَوانِيَ يَخْتَبِرُ فِيهَا رَدَّ فِعْلِ ياسِـرٍ عَلَى كَلامِهِ، وَأَكْمَلَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ نَجاحِ ياسِرٍ في إخْفاءِ قَلَقِهِ وَحَرَجِهِ:

- وَلَكِـنْ حَتَّى أَنْتَ لَا يَنْبَغِي لَـكَ الجُلوسُ وَحْدَكَ، فَأَرَى أَنْ

تُكَلِّـمَ أَبْنَاءَ عُمومَتِـكَ لِتَتَجَمَّعوا أَمَامَ بُيُوتِكُـمْ، وَتَحَموا البُيوتَ وَالأَرَاضِيَ وَالأَمْلاكَ.

- وَلِمَـاذَا نَفْعَـلُ ذَلِكَ؟ هَلْ نَحْنُ فِي خَطَـرٍ؟ لَا عَلاقَةَ لَنَا بِهَذِهِ المُشاجَرَةِ، وَلَسْنَا مَعَ أَحَدٍ فِيهَا، لَقَدْ أَمَرَ عَسَّافٌ وَسُلْطَانٌ رِجالَهُمْ بِعَدَمِ التَّعَرُّضِ لِمَنْ لَيْسُوا أَطْرَافًا بِالمُشاجَرَةِ.

- هَـذَا صَحيـحٌ، وَلَكِنَّها ظُروفٌ اسْـتِثْنائِيَّةٌ تَجْعَـلُ الأَمْنَ ضَعِيفًا، وَتوقِظُ المُجْرِمينَ كَمَا يوقِظُ الشِّتاءُ الْفَيْرُوسَاتِ، وَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ الرِّهانَ عَلَى أَخْلاقِ المِئاتِ مِن الرِّجالِ وَإِطاعَتِهِمْ لِلأَوَامِرِ بِحَذَافِيرِهَا والأَمْنُ غائِبٌ.

لَمْ يَفْهَمْ ياسِرٌ تَمامًا مَا يَرْمِي إِلَيْهِ نائِلٌ، فَلَمْ يَزِدْ عَلَى قَوْلِهِ:

- حَسَنًا.

نَفِدَ الكَلامُ مِـنْ جَعْبَةِ الجَميعِ، وَثَقُلَ تَكْـرارُهُ عَلَى النُّفوسِ لِمَـا يَمْتَلِئُ بِهِ مِنْ قَلَـقٍ، فَصَمَتَ الجَميعُ، وَسَـرَحَ كُلٌّ فِي دُنْيَاهُ، وَتَنافَرَتِ العُيونُ كَأَنَّهَا أَقْطابُ مِغْناطيسٍ لَا تَتَلاقَى. كَسَـرَ نائِلٌ الجُمودَ بِإِعْلَانِ رَغْبَتِهِ فِي القِيَامِ عَنْ مَقْعَدِهِ لِطَلَبِ القَهْوَةِ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا غَرَضَهُ الحَقيقيَّ، بَلْ حُجَّةً تُخْفي إِرادَتَهُ فِي التَّجَوُّلِ بَيْنَ الطّاوِلاتِ المُكْتَظَّةِ لِسَـماعِ آرَاءِ النّـاسِ وَتَوَجُّهاتِهِمْ، فَهُوَ - وَإِنْ كَانَ مُتَيَقِّنًـا أَنَّ النّاسَ لَا يُقَـدِّرونَ الأُمورَ حَقَّ قَدْرِها - يَعْلَمُ

أَنَّ رَأْيَ المَجْموعَـاتِ مُؤَثِّرٌ، فَقَدْ يُعِيقُ خُطَطًا أَوْ يَدْعَمُها، وَلِهَذَا وُجِدَتِ السِّياسَةُ. فَتَلَكَّأَ عِنْدَ طاوِلَةٍ يَسْأَلُ جَالِسٌ عَلَيْهَا أُخَرَ:

– وَلِمَاذَا تَظُنُّ أَنَّ المُشاجَرَةَ لَنْ تَقومَ؟

رَدَّ الآخَرُ بِثِقَةٍ:

– عَلاقَةُ الرَّيّانِ بِالْجاسِمِ مُتَوَتِّرَةٌ طَوالَ الوَقْتِ، وَلَكِنَّهُمْ أَذْكَى مِنْ جَعْلِ هَذَا التَّوَتُّرِ مُشاجَرَةً كَبيرَةً، تَسْتَنْزِفُ قُدُراتِهِمْ وَوَقْتَهُمْ وَمالَهُمْ، أَلَمْ تَسْمَعْ بِالْمُشاجَرَةِ الشَّهيرَةِ الَّتي كَادَتْ تَحْصُلُ بَيْنَهُمْ قَبْلَ خَمْسِـينَ عَامًا؟ وَلَكِنْ حَتَّى هَذِهِ تَدارَكُوهَا فَلَمْ تَحْصُلْ، إِنَّهُمْ يَتَشاجَرونَ شِجارًا بَارِدًا فِي مَلاعِبَ أُخْرَى يَا عَزِيزِي.

أَكْمَلَ نائِلُ تَجَوُّلَهُ، حَتَّى اسْـتَوْقَفَهُ صَـوْتٌ أَجَشُّ عِنْدَ طاوِلَةٍ أُخْرَى:

– آلُ الرَّيّـانِ ضُعَفاءُ لَوْلَا أَتْباعُهُمْ، أَنَسِـيتُمْ أَنَّ أَرْبَعَةَ رِجالٍ دَخَلُـوا بَيْتَهُمْ قَبْلَ عِشْـرِينَ عَامًا، فَهَدَموا أَرْكَانًـا مِنْهُ، وَقَتَلُوا بَعْضَ أَهْلِهِ؟ وَلَمْ يُعْرَفْ حَتَّى الآنَ مَنْ هُمْ.

قَفَزَ شابٌّ يُجَالِسُهُ مِنْ مَكانِهِ غَاضِبًا:

– وَهَـلْ صَدَّقْتَ هَـذَا! إِنَّهَا خُدْعَـةٌ لِلْأَغْبِيَـاءِ أَمْثالِكَ، هَلْ تَعْرِفُ كَـمْ بَيْتًا خُرِّبَ بَعْدَ هَذِهِ الواقِعَةِ الْمُزَيَّفَةِ، إِنَّهَا صَنيعَتُهُمْ لِيَتَّخِذوها ذَريعَةً وَحُجَّةً لِلْعَبَثِ فِي بُيوتٍ أُخْرَى.

اتَّجَهَ نائِلٌ عَائِدًا إلَى طاوِلَتِهِ، فَمَرَّ بِشَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ، يَتَبَادَلَانِ الحَدِيثَ:

– آنَ لِآلِ الرَّيَّانِ أَنْ يُلَقَّنُوا دَرْسًا قَاسِيًا، إِنَّهُمْ أَوْغَادٌ مُتَغَطْرِسُونَ.

– آلُ الجَاسِمِ لَيْسُوا أَفْضَلَ مِنْهُمْ، الكُلُّ هُنَا أَوْغَادٌ.

وَصَلَ إِلَى الطَّاوِلَةِ، وَهَمَّ بِسُؤَالِ شَادِي عَنْ رَأْيِهِ فِي الأَحْدَاثِ الجارِيَةِ لَوْلَا مُرورُ جَحافِلَ مِنْ آلِ الجَاسِمِ عَبْرَ الحارَةِ. ارْتَبَكَ الجَالِسُونَ، وَصَمَتَ الجَميعُ، إِلَّا شَابٌ عَلَى الطَّاوِلَةِ المُجاوِرَةِ لِنائِلٍ، قَالَ بَعْدَ أَنْ قَهْقَهَ:

– أَحْيَانًا يَكونُ التَّهْديدُ بِالْقُوَّةِ أَفْضَلَ مِن اسْتِخْدامِها.

* * *

فِي سَاعَةِ الغُرُوبِ، جَاءَ خَمْسَةُ رِجالٍ يَرْكُضُونَ نَحْوَ البَيْتِ كَأَنَّهُمْ يُسَابِقُونَ آخِرَ مَا تَبَقَّى مِنْ ضَوْءٍ فِي السَّماءِ، فَهَدَموا أَجْزاءً مِنْـهُ، ثُمَّ بَحَثُوا عَنْ أَيِّ فَرْدٍ فِيهِ، وَلَكِنْ لَمْ يَجِدُوا أَحَدًا، فَكادوا يَخْرُجونَ مِـن المَنْزِلِ لَـوْلَا أَنْ لَمَحَ أَحَدُهُمْ قَدَمًـا تَرْتَجِفُ تَحْتَ السَّرِيرِ، فَعَادَ وَسَحَبَهَا إِلَى الخَارِجِ، فَظَهَرَ شَادِي يَنْتَحِبُ، رَكَضَتْ حَميدَةُ بِاتِّجَاهِ الرَّجُلِ تَصْرُخُ:

– اتْرُكُوهُ، لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا.

دَفَعها الرَّجُلُ، وَضرَبَ شَادِيًا بِهِراوَةٍ ضَخْمَةٍ عَلَى رَأْسِهِ، فَسَقَطَ مَغْشيًا عليْه وَسَطَ دِمائِه. وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْفاسُهُ أن انْقَطَعَتْ مُفارِقًا الحَياةَ.

سَمِعَ ياسِرٌ صُراخَ حَميدَةَ:

- لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا، لَمْ يفْعلْ شيْئًا.

فَرَكَضَ نَحْوَ غُرْفَتِها، ووجدها تَنْتفضُ فَوْقَ السَّرير، تَقَدَّمَ نَحْوَها:

- لا عَليْكِ، كابُوسٌ وانْتَهى.

° ° °

في ساعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ من اللَّيْلِ -وقَبْلَ المُهْلَةِ الَّتي حَدَّدَها سُلْطانٌ بِسَاعَتَيْنِ- حِينَ يُحيطُ السَّوادُ الحالِكُ بِالدُّنْيَا كَما تُحِيطُ التَّمْرَةُ بِنَواتِها، فَتُصْبِحُ حَتَّى حَرَكَةُ القَدَمِ إِلَى الأَمَامِ مَدْعاةً لِلْخَوْفِ، جَاءَ ابْنُ عَمٍّ لِياسِرٍ يَرْكُضُ بَاحِثًا عَنْهُ:

- أَيْنَ أَنْتَ يَا رَجُلُ، الشَّيْخُ تَحْسينٌ يَتَّصِلُ بِكَ مُنْذُ سَاعَتَيْنِ.

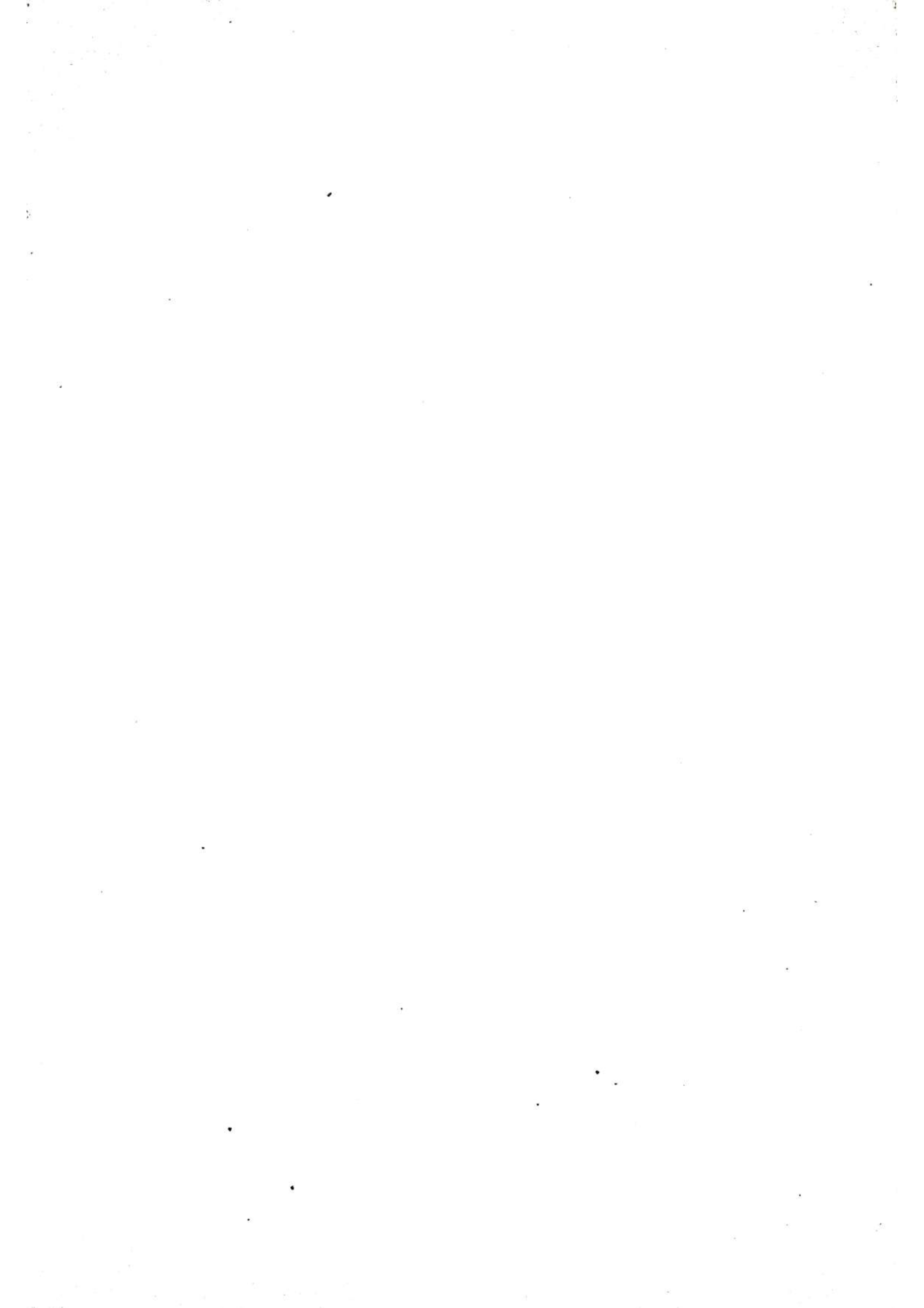
مَا زَالَ اسْمُ الشَّيْخِ تَحْسِينٍ وَحْدَهُ يَجْلِبُ الارْتِباكَ لِياسِرٍ، رَغْمَ اعْتِيادِهِ عَلَى سَماعِهِ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ سَنَوَاتٍ، فَهُوَ سَيِّدُ القَوْمِ، وَحامي العَادَاتِ والتَّقاليدِ، العَادَاتُ الَّتِي يَتَصَدَّرُهَا تَبْجيلُ سَيِّدِ القَوْمِ. رَدَّ ياسِرٌ مُرْتَبِكًا:

- عُــذْرًا، لا أَحْمِلُ هاتِفي مَعِي، وَلَكِنْ هَلْ كُلُّ شَــيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ؟

- إِلَى الآنَ نَعَمْ، وَلَكِنَّ الشَّــيْخَ تَحْسينًا أَرْسَلَني لإِعْلامِكَ بِأَنَّ آلَ زَيْدٍ سَيَتَجَمَّعُونَ بِمُعَدَّلِ سَــبْعَةِ رِجالٍ أَمَامَ كُلِّ بَيْتٍ، وَبَيْتُكَ فِيهِ رَجُلَانِ لِذَا سَنُرْسِــلُ لَكُمَا خَمْسَــةً، وَذَلِكَ لِحِمَايَةِ المُمْتَلَكَاتِ والأَعْرَاضِ.

ارْتَعَشَ ياسِــرٌ، وَنَظَرَ إِلَى نائِلِ الَّذِي قَالَ كَلَامًا مُشَــابِهًا مُنْذُ مُدَّةٍ قَصيرَةٍ، وَإِنْ لَمْ يَعْدُ كَلامُهُ كَوْنَهُ اقْتِراحًا، أَمَّا الآنَ فَهُوَ كَلامٌ أَكْثَرُ وُضُوحًا، وَمَتْبوعٌ بِأَمْرِ العَوْدَةِ إِلَى المَنْزِلِ والتَّجَمُّعِ، وَقَالَ:

- حَسَنًا، هَيّا بِنَا، لِنَعُدِ الآنَ إِلَى البَيْتِ.



الفَصْلُ العِشْرون

سَاعَةُ الصِّفْرِ

عِبــاراتُ التَّهْديدِ مِنْ أَكْثَـرِ الظَّواهِرِ النَّفْسـيَّةِ عِصْيانًا عَلى التَّفْسيرِ، لِتَبايُنِ مَدَى صِدْقِها الَّذي يَبْدَأُ مِنْ أَهْوَنِ دَرَجاتِ الضَّعْفِ إِلَى أَشْـرَسِ دَرَجاتِ القوَّةِ. وَلا يُمْكِنُ بِأَيِّ حَالٍ فَصْلُ خِبْرَةِ مُطْلِقِ تَهْديدٍ مَا عَنْ تَقْديرِ جِدّيَّتِهِ، فَقَدْ يَقُولُهُ خَبيرٌ يَعْرِفُ أَنَّ التَّهْديدَ آخِرُ الحُلولِ إِذَا اسْـتَنْفَدَ المَرْءُ بَدائِلَهُ السِّلْميَّةَ، وَقَدْ يُطْلِقُهُ أَرْعَنٌ تَقُـودُهُ أَنَاهُ وَقِلَّةُ تَجَارِبِهِ فَيَجْعَلُ التَّهْديـدَ أَوَّلَ حُلولِهِ، يَجْري عَلَى لِسـانِهِ جَرَيانَ المَـاءِ في نَهْرٍ، فَلا مَناصَ مِنَ انْتِظارِ سـاعَةِ الصِّفْرِ لِمَعْرِفَةِ صِدْقِ تَهْديدِ سُلْطانٍ لِآلِ الرَّيّانِ.

وَمَا إِنْ حَانَتْ ساعَةُ الصِّفْرِ - الَّتي أَمْسَى الحَيُّ بِأَكْمَلِهِ يَنْتَظِرُهَا - حَتَّى تَحَرَّكَ مِئاتٌ مِنْ رِجالِ الجَاسِـمِ نَحْوَ الطَّريقِ الرَّئيسِـيِّ الَّذي يُغْلِقُهُ آلُ الرَّيّانِ، وَأَيْدِيهِم وَمَلابِسُـهُمْ وَسَـيّاراتُهُمْ مَلأَى بِالأَسْـلِحَةِ. وَحِينَ تَبَدَّوْا أَطْلَقَ رِجالُ آلِ الرَّيّانِ العِنانَ لِأَقْدامِهِمْ هارِبِـينَ، فَرَكَضوا إِلَى الجَنوبِ الغَرْبِيِّ بِاتِّجَـاهِ بُيوتِ الأَدْهَمِ، وَرَكَضَ خَلْفَهُمْ رِجالُ الجَاسِمِ مَزْهوّينَ، وَلَمْ يَسْمَعْ سَوادُهُمْ صَوْتَ

القادَةِ في الأَمَامِ يَنْهَاهُم عَنْ ذَلِكَ، وَأَعْرَضَ مِنْهُمْ مَنْ سَمِعَ، فَتَبِعَهُمْ رِجالُ الجَاسِمِ كُلُّهُمْ إلَّا سامِرٌ -شَقيقُ سُلْطانٍ- وَرِجالُهُ العِشْرُونَ، الَّذِينَ عَـادُوا نَحْوَ بَيْتِ سُـلْطانٍ لِحِمَايَتِهِ، وَفي طَرِيـقِ عَوْدَتِهِمْ قَابَلَتْهُمْ ثَلاثُ مَجْموعاتٍ مِنْ آلِ الرَّيّانِ وَغَريبٍ وَياسِـين يَنْوُونَ اللَّحاقَ بِرِجالِ الجَاسِـمِ والهُجومَ عَلَيْهِـمْ مِن الخَلْفِ، فَتَعَرَّضَ سـامِرٌ وَرِجالُهُ لَهُـمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَقَلَّ عَـدَدًا، فَقُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ، وَتُرِكُوا طَرِيحِي الأَرْضِ كَأَنَّهُمْ جُزُرٌ نائِيَةٌ تَحَدُّهُمْ دِمَاؤُهُمْ مِـنْ كُلِّ الجِهاتِ، وَفَرَّ البَاقُونَ. ثُمَّ لَحِقَتْ مَجْمُوعَتَانِ مِن الثَّلاثَةِ بِرِجالِ الجَاسِـمِ، وَاتَّجَهَتِ الأَخيرَةُ صَوْبَ بَيْتِ سُـلْطانٍ، وَلَكِنَّ عُيونُ آلِ الجَاسِـمِ كَانَتْ أَسْرَعَ مِنْهُمْ إلَى هُنَاكَ، فَوَصَلَتِ الأَخْبارُ إِلَى سُلْطانٍ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ الرِّجالُ، فَاسْتَقْبَلَهُمْ سُلْطانٌ جَبَلًا شامِخًا بَيْنَ بَعْضِ رِجالِهِ، والْكَثيرِ مِنْ رِجالِ شـامِلِ الكَوّارِيِّ، فَلَمْ يُبْقِ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ.

تَقَدَّمَ شـامِلٌ نَحْوَ سُـلْطانٍ مُشَـمِّرًا عَـنْ ذِرَاعَيْهِ السَّـمِينَتَيْنِ الْمُسَـكَتَيْنِ بِسَـاطُورٍ ضَخْـمٍ كَأَنَّهُ جَزّارٌ فَـرَغَ لِتَوِّهِ مِـنْ تَقْطيعِ مُحْتَوَياتِ دُكّانِهِ كُلِّها، وَقَالَ وَهُوَ يُقَهْقِهُ:

- نِعْمَ الرَّجُلُ، سَـيَذْكُرُ لَكَ الحَيُّ هَذَا إِلَى الأَبَدِ، تَعالَ نَقْضِ وَقْتَ فَراغِنا بِالعَبَثِ بِهَذِهِ الجُثَثِ القَذِرَةِ.

- وَنِعْـمَ الحَليفُ أَنْـتَ، دَعِ العَبَثَ بِالْجُثَثِ وَأَرْسِـلْ كَتيبَةً صَغيرَةً مِن الرِّجالِ لِتُطَمْئِنَنا عَلَى رِجالِنا.

- بَلْ كَتيبَتَيْنِ، واحِدَةً تُقَاتِلُ وَأُخْرَى تُطَمْئِنُ.

- حَسَنًا، وَلَكِنْ لَا تَنْسَ إِبْقاءَ بَعْضِ الرِّجالِ هُنَا لِلْحِمَايَةِ.

صَمَتَ شـامِلٌ فَجْأَةً وَهُوَ فِي قِمَّةِ نَشْوَتِهِ، ثُمَّ سَأَلَ كَتِلْمِيذٍ بَلِيدٍ تَدارَكَ مَا فَاتَهُ مِنْ دَرْسٍ ظَنَّ أَنَّهُ اسْتَوْعَبَهُ:

- وَلَكِنْ إِلَى أَيْنَ أُرْسِلُهُمْ بِالضَّبْطِ؟

- أُقَـدِّرُ أَنَّ رِجالَ الرَّيَّانِ اسْـتَدْرَجُونَا لِلَّحَاقِ بِهِمْ إِلَى نَوَاحِي بُيوتِ الأَدْهَمِ حَيْثُ اللِّقاءُ الأَهَمُّ هُنَاكَ.

لَمْ يُخْفِ شامِلٌ اسْتِغْرابَهُ حِينَ سَأَلَ سُؤالَهُ التَّالِيَ:

- لِمَاذَا بُيوتُ الأَدْهَمِ بِالتَّحْدِيدِ؟

- إِنَّ عَسّافًا سَـيَتَجَنَّبُ بَعْضَ المَناطِقِ الَّتِي تَقْطُنُهَا أُسَرٌ قَوِيَّةٌ لِكَيْ لَا يَتَوَرَّطَ فِيهَا، فَلَنْ يَسْـتَدْرِجَ آلَ المَرْزوقِ بِإِرْسَـالِ رِجالِهِ شَرْقًا.

- وَمَاذَا لَوْ خَدَعَنا، وَأَرْسَلَهُمْ هُنَاكَ؟ عَلَى اعْتِبارِ أَنَّهُ أَمْرٌ غَيْرُ مُتَوَقَّعٍ لَنَا فَلَنْ نَتَهَيَّأَ لَهُ.

- يَا لَيْتَهُ يَفْعَلُ! لَوْ أَرْسَـلَ رِجالَهُ هُنَاكَ سَيُقْضَى عَلَيْهِ، وَلَنْ تَقومَ لِآلِ الرَّيّانِ قائِمَةٌ مَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَشْرِقِها.

صَمَتَ سُلْطانٌ بُرْهَةً اطْمأَنَّ فِيهَا لِفَهْم شامِلٍ لِكَلَامِه، ثُمَّ أَكْمَلَ:

- كَمَا أَنَّ عَسّافًا سَيَبْتَعِدُ عَنْ إِثَارَةِ بُؤَرٍ لِلْمَشَاكِلِ حَوْلَ مُمْتَلَكَاتِهِ، فَمِن الحَمَاقَةِ أَنْ يَسْمَحَ بِلِقاءٍ فِي الشَّمالِ الغَرْبيِّ عِنْدَهُ، وَهُوَ حَرِيصٌ كَذلِكَ عَلَى حِمَى حُلَفَائِهِ مِنْ آلِ يَعْقوبَ وَياسِينَ وَغَرِيبٍ، فَلَنْ يُرْسِلَ الرِّجالَ إِلَيهِم، فَلا يَتَبَقَّى لَدَيْهِ إِلَّا الجَنوبُ الغَرْبيُّ، أَو الجَنوبُ، فَأَمَّا الجَنوبُ الغَرْبيُّ فَردْهَتُهُ الجَنوبِيَّةُ، يَرْتَعُ فِيهَا حَتَّى لَا نَكَادُ نُفرِّقُها عَنْ حِمَاهُ.

- فَالْجَنُوبُ إِذًا.

- نَعَمْ، الجَنوبُ هوَ الْخَيَارُ الأَكْثَرُ مُلائَمَةً، فَهُوَ قَرِيبٌ جُغْرافِيًّا مِنْ رِجالِ عَسّافٍ الَّذِينَ كَانُوا يَتَجَمْهَرونَ وَيُغْلِقونَ الطَّرِيقَ، وَقَاطِنُوهُ مِنْ آلِ الأَدْهَمِ لَيْسُوا حُلَفَاءَهُ لِيَهْتَمَّ بِأَمْنِهِمْ، وَهُمْ أَضْعَفُ مِن المُطالَبَةِ إِذَا خَسِرُوا رِجَالًا أَوْ مَالًا.

قَهْقَهَ شامِلٌ مُنْتَشِيًا:

- نِعْمَ الرَّأْيُ، سَنَقْضِي عَلَى الأَوْغادِ.

* * *

اكْتَمَلَتِ التَّجْرِبَةُ الَّتِي جَاءَ نائِلٌ إِلَى الحَيِّ مِنْ أَجْلِهَا، بَلْ لَمْ يَدُرْ فِي خَلَدِهِ حِينَ قَرَّرَ المَجِيءَ أَنْ يُعايِشَ تَجْرِبَةً بِهَذَا النُّضجِ، وَلَمْ يَعُدْ فِي الحَيِّ مَا يُغْرِيهِ فِي البَقاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَعُدْ قَادِرًا عَلَى

التَّجَوُّلِ بِحُرِّيَّةٍ، واكْتِساب المَزيدِ مِن المَعْرِفَةِ والتَّجْرِبَةِ، فَارْتَأى المُغادَرَةَ، وَلَكِنْ مَا كُلُّ مَا يَرْتَئِيهِ المَرْءُ يَسْتَطيعُ إجْراءَهُ عَلَى لِسانِهِ فَوْرًا، فَقَدْ كَانَ نائِلٌ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَشْتَاقُ لِشادي وَياسِرٍ والْحَيِّ، وَأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ الصَّوابِ أَنْ يَحُلَّ بَيْنَ القَوْمِ ضَيْفًا ثُمَّ يُغادِرُهُمْ إذَا أَلَمَّتْ بِهِم الشِّدَّةُ. وَقَدْ كَانَ هَذَا الخَاطِرُ يُرْهِقُ نَفْسَ ياسِرٍ أَيْضًا، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ اللاّئِقِ أَنْ يُصَرِّحَ لِنائِلٍ بِهِ وَأَنْ يَطْلُبَ مِنْ ضَيْفِهِ المُغادَرَةَ، إذْ سَيَشُقُّ عَلَيْهِ جَلْدُ النّاسِ لَهُ إذَا فَعَلَها، فَالنَّاسُ تَجْلِدُ الضَّعيفَ، وَتَرَى أَفْعالَهُ ناقِصَةً وَإِن اكْتَمَلَتْ، فَكَيْفَ السَّبيلُ إِلَى إعْلامِ نائِلٍ بِالرَّغْبَةِ إذًا؟ قَرَّرَ ياسِرٌ الاسْتِمْرارَ فِي إكْرامِ نائِلٍ حَتَّى تَجْلِبَ الظُّروفُ الحَلَّ جاهِزًا.

لَمْ تَتَأَخَّرِ الظُّروفُ كَثِيرًا، فَسُرْعَانَ مَا اشْتَبَهَ رَجُلٌ مِنْ آلِ الجَاسِمِ بِوُجُودِ غَريبٍ فِي الحارَةِ الشَّرْقِيَّةِ، وَهُوَ مَا يُخالِفُ تَعْليماتِ سُلْطانٍ، وَلَمْ يُخَلِّصْ نائِلًا مِنْ بَراثِنِ المُشْتَبِهِ إلَّا الشَّيْخُ تَحْسِينٌ، الَّذي قَدِمَ وَوَضَّحَ أَنَّ الرَّجُلَ ضَيْفٌ لا أَكْثَرَ، وَأَنَّهُ مُكَرَّمٌ حَتَّى يُقَرِّرَ مِنْ نَفْسِهِ الرَّحيلَ، فَقَرَّرَ نائِلٌ الرَّحيلَ مِن الحَيِّ، وَإعْلامَ ياسِرٍ، وَلَمْ يَنْتَظِرْ كَثِيرًا لِأَجْلِ ذَلِكَ، فَكَانَ الغَداءُ فُرْصَةً مُلائِمَةً لِلتَّجَمُّعِ، اسْتَغَلَّهَا نائِلٌ قَائِلًا بَعْدَ أَنْ فَرَغُوا مِن الأَكْلِ:

- إنَّهُ لَيَشُقُّ عَلَيَّ أَنْ أَنْزِلَ بَيْنَكُمْ فِي اليُسْرِ، وَأَرْحَلَ عَنْكُمْ فِي العُسْرِ، وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّ وُجودِي أَصْبَحَ جَلّابًا لِلْمَشاكِلِ، وَأَنْتُمْ قَوْمٌ

طَيِّبُونَ، تَرَوْنَ الوُدَّ طَرِيقًا لِتَعايُشِكُمْ، وَتَفْرشونَ الوُرودَ لِلْقَريبِ وَالغَرِيبِ أَيْنَمَا حَلَّ أَو ارْتَحَلَ، فَهَنِيئًا لَكُمْ بِمَا امْتَلأَتْ قُلوبُكُمْ مِنْ رَحْمَةٍ، وَقَدْ قَضَيْتُ هُنَا شَهْرًا لَمْ أَرَ إِلَّا المُعامَلَةَ الكَريمَةَ، والخُلُقَ الحَسَنَ، وَلَكِنَّ الكَوْنَ قَدْ سَنَّ مُذْ وُجِدَ أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ نِهايَةً، فَمَا أَنَا إِلَّا ضَيْفٌ عابِرٌ وَإِنْ أَحْبَبْتُ المُكوثَ، وَهَا قَدْ أَزِفَتْ نِهايَةُ الزِّيارَةِ، وَأَرْجُو أَلَّا يَكونَ اللِّقاءَ الأَخيرَ بَيْنَنَا، فَاغْفِروا لَنَا زَلَّاتِنا، وَاسْتُروا عُيوبَنا، وَاذْكُرُونَا بِالخَيْرِ.

لَمْ يَتَمالَكْ شَادِي نَفْسَهُ، فَقَامَ وَاحْتَضَنَ نائِلًا، وَبَكَى كَطِفْلٍ صَغيرٍ سَقَطَتْ مِنْهُ الحَلْوَى في مُسْتَنْقَعِ مَاءٍ آسِنٍ، فَقَالَ نائِلٌ وَقَدْ نَجَحَ بِخِبْرَتِهِ الطَّويلَةِ في إِخْفاءِ رَغْبَةٍ عارِمَةٍ بِالْبُكاءِ:

– مَا بِكَ أَيُّهَا الفَتَى! سَأُحادِثُكَ بِاسْتِمْرارٍ، وَسَنَلْتَقي بِالتَّأْكيدِ.

قَالَ ياسِرٌ:

– أَرْجوكَ أَنْ تَزورَنا ثانِيَةً، لَمْ أَكُنْ لِأُوَافِقَكَ عَلَى رَحيلِكَ لَوْلَا الظُّروفُ الَّتي يَمُرُّ بِهَا الحَيُّ. سَأُعْلِمُ الشَّيْخَ تَحْسينًا بِرَغْبَتِكَ، لِيُرْسِلَ مَعَنَا رِجالًا يُوصِلُونَكَ إِلَى المَطارِ.

لَمْ يَقْوَ شَادِي عَلَى قَوْلِ أَيِّ شَيْءٍ، لَمْ يَسْتَطِعْ غَيْرَ البُكاءِ، وَإِغْماضِ عَيْنَيْهِ لِيَسْتَرْجِعَ شَريطَ الرِّحْلَةِ مُنْذُ أَنْ رَأَى رَجُلًا أَنيقًا يُسَلِّمُ عَلَيْهِ فِي المَطارِ حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ.

الفَصْلُ الْحَادي وَالْعِشْرُونَ

سُقُوطُ التِّمْثَالِ

وَصَلَ نائِلٌ إلَى قَصْرِهِ يَمْلَؤُهُ الحَنينُ وَالاشْتياقُ بَعْدَ إجازَةٍ طَويلَةٍ قَضَاهَا بَعِيدًا عَنْ صَفيَّةَ وَمَحْمودٍ، اسْتَقْبَلَتْهُ صَفيَّةُ بِحَرارَةٍ وَشَوْقٍ، فَابْتَسَمَ وَقَدْ صافَحَتْ عُيونُهُ عُيونَ صَفيَّةَ:

– اشْتَقْتُ إلَيْكِ.

رَدَّتْ صَفيَّةُ الابْتِسامَةَ بِأَرَقَّ مِنْهَا، وَوَجْهُهَا الدَّائِرِيُّ غَارِقٌ في الدُّموعِ، عَظيمَةٌ هِيَ الدُّموعُ، تُذْرَفُ في الأَفْراحِ وَالأَحْزانِ، لِتَمْتَلِكَ قُدْرَةً اسْتِثْنائِيَّةً عَلَى التَّعْبيرِ عَنِ المَشاعِرِ بِتَناقُضاتِها المُخْتَلِفَةِ، وَمَا لَبِثَتْ أَنْ قالَتْ بِمَكْرٍ بَعْدَ أَنْ اسْتَجْمَعَتْ أَنْفاسَها:

– لَقَدْ نَقَصَ وَزْنُكَ، لا تَهْتَمُّ بِنَفْسِكَ كَعادَتِكَ.

– سَتَهْتَمِّينَ أَنْتِ بي.

بَدَأَ المَطَرُ يَتَساقَطُ عَلَى اسْتِحْياءٍ، وَحِينَ أَحَسَّ بِهِ مَحْمودٌ جاءَ مِنَ الحَديقَةِ نَحْوَ مَدْخَلِ القَصْرِ، وَبِلَمْحِهِ نائِلًا رَكَضَ نَحْوَهُ، وَاحْتَضَنَهُ:

– أَيْنَ هَدِيَّتي؟

- سَأُحْضِرُها لَكَ لَيْلًا.

ثُمَّ قَرَصَهُ مِنْ خَدِّهِ، وَالْتَفَتَ إِلَى صَفِيَّةَ غامِزًا:

- إِنَّ مَنْ تَهْتَمِّينَ بِهِمْ يَسْمَنُونَ.

زَادَتْ صَفِيَّةُ عَلَى ابْتِسامَتِها الَّتي لَمْ تُفارِقْها مُنْذُ عَادَ نائِلٌ أَنْ رَفَعَتْ حاجِبَيْها بِدَلالٍ، فَتَابَعَ نائِلٌ:

- أَنَا مُتْعَبٌ، وَأُريدُ أَنْ أَصْعَدَ لِلرَّاحَةِ.

- حَسَنًا، ارْتَحْ قَلِيلًا، وَسَأُوقِظُكَ لِلْغَدَاءِ.

* * *

تَوَقَّفَ المَطَرُ، وَلَكِنَّ مَحْمودٌ لَمْ يَتَوَقَّفْ عَنْ مُمارَسَةِ عادَتِهِ بِمُراقَبَةِ صَفيَّةَ، واسْتِغْلالِ الْفُرْصَةِ الْمُناسِبَةِ لِلْهَرَبِ واللَّعِبِ في حَديقَةِ القَصْرِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ لِتَحْذيراتِ صَفيَّةَ الرَّقيقَةِ لَهُ بِعَدَمِ اللَّعِبِ لِئَلَّا يُزْعِجَ أَباهُ، فَتَسَلَّلَ مِنْ غُرْفَتِهِ في الطّابَقِ العُلْويِّ إِلَى الغُرْفَةِ المُجاوِرَةِ، وَمِنْهَا إِلَى بَاقِي الغُرَفِ واحِدَةً بَعْدَ واحِدَةٍ خِلْسَةً، حَتَّى وَصَلَ إِلَى المَخْزَنِ، وَهُنَاكَ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى كُرَةٍ حَمْراءَ قَديمَةٍ، فَأَعْجَبَتْهُ، وَقَرَّرَ أَخْذَها مَعَهُ إِلَى الحَديقَةِ، فَحَمَلَهَا في يَدِهِ، وَرَكَضَ إِلَى خارِجِ الغُرْفَةِ بَعْدَ أَن اطْمَئَنَّ إِلَى غِيَابِ صَفيَّةَ، لَكِنَّهُ سَمِعَ صَوْتَها فَجْأَةً أَثْناءَ رَكْضِهِ:

- مَحْمودُ! مَاذَا تَفْعَلُ يَا حَبيبي؟

ارْتَبَـكَ مَحْمودُ، وَسَـقَطَ عَلَى الأَرْضِ، فَأَفْلَتَـتْ مِنْهُ الكُرَةُ، وَتَقافَزَتْ عَلَى السَّـلالمِ، وَارْتَطَمَتْ بِحافَّةِ السُّلَّمَةِ قَبْلَ الأَخيرَةِ، فَطَارَتْ نَحْوَ التِّمْثالِ المُتَهالِكِ. سَقَطَ التِّمْثالُ عَلَى الأَرْضِ مُهَشَّمًا. بَيْنَمَا رَجَعَتِ الكُرَةُ مِـنْ قُوَّةِ الاصْطِدامِ إِلَى الاتِّجاهِ المُعَاكِسِ نَحْوَ السُّـلَّمِ، فَصَدَمَتْهُ بِخِفَّةٍ، وَعَادَتْ تَتَدَحْرَجُ بِبُطْءٍ حَتَّى اسْـتَقَرَّتْ مَكانَ التِّمْثالِ.

وَانْتَهَى يَوْمٌ عاديٌّ آخَرُ.

المُحْتَوَيات



أَمْسَى الحَيُّ كَمَا يُمْسي مَريضٌ يَنْتَظِرُ نَتيجَةَ فُحوصاته المَخْبَرِيَّة الَّتي تُشَخِّصُ إصابَتَهُ بِمَرَضٍ خَطيرٍ، وَلَمْ تَكُنِ الهُدْنَةُ الَّتي طَلَبَها خالدُ المَرْزوقِ إلَّا تَأْجيلًا لإعْلَانِ تلْكَ النَّتيجَة، وَقَدْ يَكونُ تَأْكيدُ وُجود المَرَضِ أَسْهَلَ عَلَى نَفْسِ المَريضِ من انْتظارِ نَتيجَته، وَلَكنْ لكُلِّ انْتظارٍ نهايَةٌ، وَإنْ طالَ التَّأْجيلُ فَلا بُدَّ للنَّتائِجِ أَنْ تَتَكَشَّفَ.

نشر مهند عميرة مع دار المعارف خمسة كتب:

١. رواية الشتاء الأخير. ٢٠٢٢

٢. على عتبات الوهم الفاتنة: فصول عن الحريات الفردية والاجتماعية والسياسية. ٢٠٢٢

٣. تحليل الفكر اليهودي. ٢٠٢١

٤. صنعة الشعر العربي: تأثير الحضارة والثقافة. ٢٠٢٠

٥. ثقافة العرب في الجاهلية. ٢٠١٩

٥٥٠٦٠/٠١



